اختيار النهاية الحزينة

غالب هلسا



بالتعاون مع
دار الكرمل - عمان

جمع وتحقيق : ناهض حتر

إختيار النهاية الحزينة

يوميات الصراع الطبقي
في الساحة الفلسطينية
في عقد الثمانينات.

غالب هلسا

إختيار النهاية الحزينة

يوميات الصراع الطبقي
في الساحة الفلسطينية
في عقد الثمانينات

مقدمة

في العقد الأخير (٧٩ - ١٩٨٩) من حياته النابضة بالإبداع والنضال، عاش غالب هلسا في أجواء الحركة الفلسطينية في لبنان وسورية؛ وكرّس جل وقته وكتاباته للكفاح الفلسطيني.

انتمى غالب هلسا للثورة الفلسطينية، آملاً في أن تكون «القلب المسلح للثورة العربيّة» منحازاً، على أساس طبقي صارم، للفئات الفلسطينية الكادحة ومقاتلي المخيمات؛ مؤكداً على البعد العربي والثوري للحركة الفلسطينية، ضدّ ما كان قد رسخه الكمبرادور الفلسطيني - وأداته: بيروقراطية م.ت.ف - من نزعات انعزالية اقليمية واستسلامية في هذه الحركة التي آلت إلى «نهاية حزينة» لم تكن، عند غالب هلسا، قدراً، بل «اختياراً» واعياً لفئات بورجوازية تعرف مصالحها جيداً.

كان غالب هلسا مدركاً إلي أين تتجه الحركة الفلسطينية.ولكن معركة الدفاع عن بيروت - التي شارك فيها غالب بكل طاقته، وتعرّف، اثناءها، على ماتختزنه الفئات الشعبية الفلسطينية واللبنانية من قدرات كفاحية هائلة.دفعته إلى الانخراط في نشاط فكري. سياسي محموم، آملاً بانطلاقة جديدة للحركة الفلسطينية، كانت تبدو ممكنة، خاصة بعد الانتفاضة التي شهدتها حركة فتح عام ١٩٨٣، وأدت إلى قيام فصيل راديكالي يحاول وصل ما انقطع من تطوّر الكفاح الفلسطيني بالاتجاه العربي الثوري الشعبي.

وفي هذا السياق، انتمى غالب هلسا إلى فتح - الانتفاضة، وخاض سجالات دامية ضد اليمين الفلسطيني، كما ضد القوى الانتهازية التي، تحت شعارات «يسارية»، سهّلت لليمين ذاك، استعادة مواقعة، فلسطينياً وعربياً.

وبالرغم من أنه لم يكن، عند وفاته، قد قطع علاقاته مع «فتح - الانتفاضة»، إلا ان غالب كان كتب، غير مرة، بصراحة، عن خيبة أمله في هذه المنظمة الجديدة، التي عادت لانتاج أمراض الحركة الفلسطينية، وفقدت زخمها، وانتهت إلى الإنكفاء.

إن هذة المجموعة المختارة من الدراسات والمقالات والمداخلات، تمثّل مساهمة غالب هلسا في الصراع الطبقي على الساحة الفلسطينية في عقد الثمانينات؛ ولاتمثل، بالطبع، كل كتاباته في هذا المجال.

لقد توفرت لي مادة غزيرة ومتنوعة من كتابات غالب هلسا «الفلسطينية». وليس كلها - وعملت، ولم يكن ذلك سهلاً، على اختيار وتوضيب ما يؤلف منها كتاباً ذا اتساق من حيث المضمون والشكل. وهكذا، كنتُ مضطراً إلى حذف موادّ وفقرات ومقاطع من مواد أخرى، وذلك لتخليص السياق العام للكتاب من النشاز والشطط والتكرار والإغراق في تفاصيل الحدث اليوميّ، مما تحفل به، عادةً، الكتابات الصحفية. كذلك، كنت مضطراً إلى دمج مادتين أو أكثر في فصل واحد؛ بما يتوافق مع المنطق الداخلي للنص.

ومع أن هذا الكتاب يظل، في النهاية، كتاب مختارات؛ ويستطيع قارؤه، بالتالي، أن يبدأ بقراءة الفصل الذي يريد، فقد اجتهدت أن يكون ترتيب الفصول والأقسام ذا منطق داخلي. وعليه، فربما تكون هنالك فائدة للقارىء إذا تابع التسلسل الذي اقترحناه.

لقد حاولت ماوسعني أن أضبط الاضطراب الذي شاب عدداً من الجمل والفقرات، مما هو معهود في الكتابات الصحفية، ولكن بدون الإضرار بالمعنى أو بالأسلوب؛ وبدون توسّع كذلك.

ويشوب هذا الكتاب نقص أساسي، وهو عدم اشتماله على هوامش وتعريفات وملاحظات وفهارس ربما كانت ضرورية. ومع ذلك، فقد قررت نشر الكتاب بدونها، أملاً في أن يتمكن باحثون متفرغون مستقبلاً، من انجاز هذا العمل في إطار مؤسّسي. هذا، مع الإشارة إلى أن طزاجة الأحداث والظواهر التي يعالجها الكتاب تجعل قراءته ممكنة، على الأقل لعقد قادم.

وفي الإطار نفسه، أشير إلى أن العديد من مواد هذا الكتاب، وصلتني غُفْلاً من مكان النشر وتاريخه؛ ولم استطع أن أفعل الكثير لتدارك هذه المشكلة. واذكر، هنا، أن مواد هذا الكتاب نشرت، على العموم، في مجلات وصحف ونشرات فلسطينية تصدر في سوريا ولبنان؛ وهي: «الحرية»، و«الهدف»، و«فتح»، و

«التعميم»، و«الكاتب الفلسطيني»، بالإضافة إلى «الطريق» اللبنانية و«دراسات اشتراكية» السورية.

سميت هذا الكتاب «اختيار النهاية الحزينة» وهو عنوان احدى مقالات غالب الأخيرة، التي تلمّس فيها مظاهر ما سيؤول إلى الفاجعة التي نعيش الآن. وأما العنوان الفرعي «يوميات الصراع الطبقي في الساحة الفلسطينية في عقد الثمانينات» فهو ما وجدتُ أنه الوصف الأدقّ لكتابات غالب «الفلسطينية» المكتوبة، دائماً، من وجهة نظر «طبقة ضد طبقة».

لقد كانت مساهمات الزملاء نزيه أبو نضال وعمر شبانة وجهاد هديب، أساسيّة لانجاز هذا الكتاب؛ إلا انني، بالطبع، اتحمل، وحدي، مسؤولية الأخطاء.

ناهض حتر

عمان في ١٩٩٤/٧/٤

القسم الأول

الذاكرة الفلسطينية

الفصل الأول

الذاكرة الفلسطينية

(١)

أذكر أنه خلال حصار بيروت كنت في حارة التراشحة. أهلها من سكان ترشيحا الواقعة في منطقة الجليل. الحارة كانت الهبوط الأقصى لمخيم برج البراجنة، وبداية بيروت. السيدة التي قالت لي إن لها صلة قربى بالشهيد ماجد أبو شرار - لا أذكر اسمها الآن - عرّفتني على أبنائها وبناتها الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والثالثة عشرة. قالت لي: إنهم يعرفون كل شيء عن فلسطين. إسألهم.

كانت ذاكرة آلية تحفظ أسماء المدن وبعض القرى، وتضاريس المناطق، وشيئاً من التاريخ. تاريخ حروب واحتلال وثورات ومذابح.

قالت السيدة: في الليل، قبل أن يناموا، أحكي لهم عن فلسطين، الناس والحكايات والأقارب وعن كل ما أتذكره.

كنا نجلس في حوش بيت من طابق واحد، مبلّط، ومسوّر ومحاط بشجر غير مثمر، نحيل، ورقه فاتح الخضرة، رقيق، يكاد يكون شفافاً.

قال أحد الحاضرين:

- هل رأيتم الشيخ ؟

وحين أجبنا بالنفي، قال الشاب :

- تصوروا أنه يرفض أن يبني له بيتاً.

- لماذا؟

– يقول : سأبنيه في بلدي.

ارتسمت في ذهني صورة لشيخ مضحك، ضيق الأفق، عصبي، عجوز جداً، قلت:

– أحب أن أراه.

نادوه. كان طويلاً، مستقيماً، يسير بوقار من يسيطر على حركته، وعلى انفعالاته. سألته عن السبب الذي يمنعه من بناء بيت له، فقال دون أن ينظر إليَّ:

– سأبنيه في بلدي.

– بلدك؟

– فلسطين. هدمه اليهود وسوف أعيد بناءه.

قلت :

– ما دمت مقيماً هنا ...

قاطعني وهو ما يزال يحتفظ بهدوئه:

– الأرض تنادي أهلها.

قلت:

– مش فاهم.

قال:

– عندما تبني بيتاً وتتزوج وتنجب أطفالاً خارج فلسطين، فإن ذلك النداء يتوقف.

عند كل إجابة من إجاباته كان الحاضرون يهمسون برؤوس محنية: صحيح. في اليوم التالي، ساعة الضحى، عدت إلى حارة التراشحة. كانت مدمرة تماماً بالقصف المدفعي الإسرائيلي. فوجئت بالكمية الهائلة من ألواح الصفيح المتناثرة في كل مكان. أين كانت؟ علمتني خبرة الأيام السابقة أن دمار منطقة ما لا يعني أن أهلها ماتوا تحت الحطام. لقد تعلم الناس كيف يحمون أنفسهم من القصف.

رأيت شاباً يتنقل قافزاً بين الحطام. عندما رآني استدار وسار نحوي. قلت:

ـ دمروا الحارة كلها.

قال:

- شفت المعجزة؟.

لم أفهم. أضاف:

- الشيخ.

- ماذا حدث؟

قال:اتبعني. سرت وراءه.سرنا ببطء بين أكوام الدمار. قال، وهو يسير أمامي، ودون أن يلتفت إلي:

- كل البيوت تهدمت ما عدا المكان الذي يسكن فيه الشيخ. سقطت عليه قنبلة فسفورية فلم يحدث له أي شيء.

اقتربنا من مسكن الشيخ. كان ثلاثة جدران من الطوب النيء، مغطى بقماش أبيض من قلوع المراكب. دخلنا من مدخل في الجدار. أمسك الشاب صينية طعام فيها خبز مقطع قطعاً صغيرة مغطاة بذرات من البوليين. قال :

- أنظر، كما هي. كان قد أعدها عشاء للقطط.

ثم أشار إلى عامود قصير من كاسات الشاي الموضوعة في قلب بعضها، ثم إلى صينية فوقها بعض فناجين وبكرج ممتلئ بالقهوة، وقال: كل شيء بقي على حاله. كان الشيخ يستعد لشرب القهوة. الفناجين ما زالت مستعدة لتقبل القهوة، والقهوة جاهزة.

قلت:

- والشيخ.

قال إن النار قد علقت بملابسه، فخلعها، وأخذ يتدحرج على الأرض الترابية، ثم أسرع عارياً إلى أقرب مستشفى.و قال: إنه زاره في المستشفى، وهو في صحة جيدة، وسوف يخرج غداً أو بعد غد.

- لم يصب بحروق؟.

- حروق بسيطة.

(٢)

كنا أربعة، فتاتين والمصور وأنا، نرتدي الملابس العسكرية، ونهبط من قمة التل الذي يقوم عليه مخيم برج البراجنة. طائرة إسرائيلية تطير فوقنا. لم يكن هنالك مكان نلجأ إليه. البيوت على جانبي الطريق مهدمة أو نصف مهدمة، وقد قذفت بأحشائها إلى الخارج، ومعظم ما تقذفه كان كتباً. عندما تنهدم البيوت تذهل لكثرة الكتب التي تحتويها.

قالت إحدى الفتاتين:

- ما بدها تغور عنا الطيارة!.

كانت تجذب ياقتي قميصها العسكري لتخفي نحرها. عندما تكون طائرة معادية فوقك، فإنك تشعر بالعري. قال المصور إن الطائرة تحمل صواريخ ارتجاجية لهدم البنايات. قالت الفتاة وهي تحكم ملابسها حول جسدها:

- بس تغور عنا.

بدت الفتاة، في جو تموز الملتهب، وكأنها في موجة باردة لم تلبس لها الملابس المناسبة. في تلك اللحظة سقطت قذيفة مدفعية على بعد حوالي عشرة أمتار منا. قالت الفتاة بعصبية:

- مش قلت الكوا!.

وكأننا مسؤولون عما حدث. قالت الفتاة الأخرى التي كانت تبدو مستغرقة في أفكارها الخاصة قبل قليل، إن تلك قذيفة بحرية اطلقتها البوارج الاسرائيلية بعد أن حددت لها الطائرة التي فوقنا الإحداثية. قالت الفتاة الأولى:

- شفت؟.

وهي تنظر إلي بغضب.

اختفت الطائرة. ولكن قذائف البوارج الإسرائيلية ظلت تلاحقنا. وصلنا إلى ساحة دائرية في طرفها ملجأ للجبهة الشعبية. كانت مجموعة من الناس تقف أو تجلس في ظل بيت لم يلحقه أي دمار. ألقينا التحية على الحاضرين، فجاءوا لنا بكراسي من الداخل.

اجتذب انتباهي رجل أخذ ينظر إليّ بحزن ووقور، وكأنه يشهدني على تحقق فاجعة كان قد تنبأ بها. كان الرجل متوسط الطول، يرتدي بنطلوناً رمادياً، وجاكتة بيجامة بيضاء

تتخللها خطوط عريضة سوداء، ولحيته التي خطها الشيب بدا أنها لم تحلق منذ أيام. كانت عيناه أغرب ما فيه. ورغم أني لا أستطيع معرفة الفروق بين العينين الأنثويتين والعينين الذكريتين، إلاّ أن عينيه كانتا أنثويتين. كانتا واسعتين، بياضهما مشوبٌ بحمرة فاتحة، والقرنيتان بنيتان، لهما أهداب طويلة، غزيرة.

كانت في عينيه نظرة تعرّف أدهشتني وأربكتني. ودون أن يحوّلهما عني قال بصوت مرتفع، مخاطباً الآخرين:

ـ والله لكلّمه أكثر ما كلّمه موسى

ارتفعت أصوات متعددة: ليس وقته الآن. عندنا ضيوف. حرام عليك إحنا في رمضان.

علا صوت الرجل فوق الضجة:

ـ ضيوف ما ضيوف لازم أكلّمه. رمضان ما رمضان لازم أكلّمه . لازم أكلمه أكثر ما كلمه موسى.

ـ عيب!.

ـ عيب ما عيب لازم أكلّمه.

وهو خلال ذلك يلقي نظرات متواطئة نحوي. دعوته إلى الجلوس بجواري، فجلس، قلت:

ـ بدك تكلّم مين؟.

رفع سبابة يده اليمنى نحو السماء وقال:

ـ هوه.

قلت:

ـ وشو بدك تقول له ؟

قال:

ـ بدي أسأله.

وألقى أسئلته: لقد طردني اليهود من بيتي في فلسطين، وها هم يريدون أن يطردوني من بيتي في المخيم. هذا حلال أم حرام؟ ذبح الأطفال. حلال أم حرام؟ جمعت خمسة آلاف ليرة، شقاء عمري، فجاءت قنبلة فسفورية وحرقتها. هذا حلال أم حرام؟ وأسئلة وأسئلة لا

حصر لها. والله لأكلمه أكثر ما كلمه موسى.

سألته إن كان قد أجاب على أسئلته. قال إنه لا يحب أن يُسْأل. قال لي الدكتور شاتيلا: تعلم الصبر. تذكر أيوب. صبر فعوّضه الله عن صبره.

ثم نظر إلي، كأنه يتحداني. قلت:

- إيش رديت على الدكتور شاتيلا؟

قال:

- قلت أيوب ما صبر. لو صبر ما حد سمع فيه. أيوب سأل وزعل ورفع صوته، أيوب احتج، منشان هيك صار مشهور وأخذ حقه. أيوب ما صبر.

- يعني ما جاوب على أسئلتك؟

قال إنه كان يرسل له مجموعات من الجان ليلعبوا بعقله، فكان يمسك بهم ويقتلهم بيديه. في كل يوم يقتل ثلاثة على الأقل. يأتون متظاهرين بالأدب والمودة، مدعين أنهم جاءوا للزيارة، فيتظاهر بتصديقهم، ثم يفاجئهم ويخنقهم بيديه.

أخذ القصف على المنطقة يتزايد، وتوجه بعض الحاضرين إلى الملجأ. أما صاحبي فقد كان مستغرقاً في أفكاره الخاصة. امرأة تقف مستندة إلى جدار المنزل، وفقدت ساعدها الأيسر، قالت إن القصف استمر بالأمس أربع ساعات، ولم يقتل إلا بعض القطط. وأضافت أنها ستبقى في بيتها ولن تغادره إلى الملاجئ التي في حارة حريك أو قرب البنك الفرنسي. كانت إحدى مفاخر سكان بيروت في تلك الفترة أنهم ظلوا في بيوتهم رغم الحصار العسكري والتمويني، ورغم انقطاع الماء والكهرباء.

أخذ الرجل ينظر إلى المرأة بتدقيق، ثم التفت إلي. توقعت أن يقول لي شيئاً عنها، ولكنه قال: ثم جاؤوا مرة ...

نسيت حديثنا السابق فقلت:

- مين همه اللي أجو؟

قال:

- الجن. كنت نايم. فلعبوا في مخي، ومرضت.

قال إنه ذهب إلى الدكتور شاتيلا. فتح له الدكتور رأسه ورأى دماغه، فقال: ما شاء الله،

نظيف، بس فيه حدا لعب فيه شوية. قلت له: عارف.

بعد عدة أيام كنت أصعد مخيم برج البراجنة. كان يرافقني جميل هلال ومراسل صحيفة اللوموند الفرنسية. التدمير أصبح شاملاً. كنا نقفز من حجر إلى حجر، لأن الطرقات اختفت تحت ركام البيوت المهدمة، محاولين الاحتماء خلف أكوام الحجارة من رصاص الرشاشات الإسرائيلية التي كانت تنطلق بكثافة لدقائق ثم تتوقف. عندما كانت تصطدم بالحجارة تتطاير قطع صغيرة في الجو. كان مراسل اللوموند ينحني كثيراً عندما تنطلق الرشاشات، رغم أننا كنا نقف وراء سواتر أكثر ارتفاعاً من قاماتنا. ثم توقفنا أمام مشهد فريد. على قمة أحد الأكوام الحجرية كان يجلس رجل قد فرد ساقيه الممتدتين على استقامتهما، معرضاً نفسه لرصاص القنص. فاجأتني نظرة التعرف في عينيه، وكان وجهه مألوفاً. كان وجهاً حزيناً حد البكاء، مأساوياً، يقول: لقد حدث ما توقعت. أليس كذلك؟.

اقتربت من الرجل محاولاً أن أتذكر أين رأيته قبل ذلك، أين رأيت تلكما العينين الكثيفتي الرموش؟

قلت:

ـ اليهود هدموا بيتك؟

قال:

ـ اليهود؟!

وأخذ يهز رأسه بحزن: «اليهود؟» قال. قلت:

ـ أنت؟

(٣)

في دراسة لي عن مجموعة الشهيد ماجد أبو شرار «الخبز المر» كتبت: هذا الفلسطيني ـ في هذه المجموعة ـ المعبأ موتاً: ذاكرة وذكرى ومصيراً، وفي أحيان، توقاً، هل يعيش تلك اللحظة الخيقة، حيث، حسب المصطلح الفرويدي، انتصرت غريزة الموت في داخله، وأصبح شخصية نيكروفيلية (أي عاشقة للموت) تسعد بانطفاء الحياة؟... إن دفع الوجود إلى قلب مأزق العدم يحمل دلالته. إنه رفض لكل عزاء فردي وخاص. إن الفلسطيني، وقد اقتصرت خياراته على خيار وحيد: أن يختار الموت الذي يعجبه، قد وضع الأسس النفسية

للعنف الثوري... لن تتخلص الثورة الفلسطينية من أشباح الموتى إلا بالعنف...

وكما ذكرنا، فإن الأموات ـ الشهداء، أو الضحايا ـ الشهداء، يلقون ظلالهم بكثافة على الأحياء في هذه المجموعة. إنهم يرسمون ، على نحو ما، طريق الأحياء. «محمدإسماعيل» ثبت عند رؤية واحدة: استشهاد زوجته وولديه، و«كمال النجار» الصغير، قد تحددت حياته سلفاً، أنْ يصبح نجاراً كأبيه الشهيد. لذا يثور ويحطم أطباق المطعم: «وغادر كمال المطعم... واتجه بجذل وأمل إلى الدكان المقابل... دكان أبي محمد النجار».

وأنا قد التقيت بهذه الظاهرة في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. كان ذلك خلال حوارات أجريتها مع بعض أهالي هذه المخيمات، امتدت زمناً، وذلك في عام ١٩٨٠، وأعيد ما قلته عن واحد من تلك الحوارات.

وحديث الأم عن الشهيد يبدو، في الظاهر، متناقضاً. فهي تنكر أن الشهيد يموت، ولكنها تتحدث، في الوقت ذاته عن موته. هذا ما لاحظته عند العديد من أمهات الشهداء اللواتي التقيتهن. لم أستطع أن أنفذ تماماً إلى عمق هذا المعتقد الشعبي. كل ما استطعت فهمه أن للشهيد موتاً خاصاً، يتضمن حياة خاصة. وأن استشهاد الإبن بالنسبة للأم له حزنه الخاص وفرحته الخاصة»

تحكي أم العبد عن زيارتها لمقابر الشهداء، ومن ذلك يتضح ذلك المعتقد المبهم:

«يشهد الله أني فتت، الدنيا غروب، القبور بلاقيهم خضر، خضر »، وقفت أنا. قلت:

انتو أبناء فلسطين، ليش بتخوفوا بنت فلسطين! طيب، طيب، ما أنا بنت أكبر واحد فيكم، واخت الكبير فيكو... يشهد الله القبور ساعتها تحركت. القبور بتتحرك لأن شهداءنا بدافعوا معنا، بحاربوا عدو فلسطين. تفكرش بالشهيد إنه ميت، لقيتهم بتحركوا وهمه بتحركوا لأن روح الشهيد بتحارب. البنت هاي كانت معاي. قلت ليها:

ـ هيها (ها هي) القبور بتتحرك.

قال لي أبو صطيف (حارس المقبرة):

ـ انتي مطولة؟

قلت:

ـ على مهلك. أنا بشوف القبور بتتحرك.

قال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله».

وتحكي أم العبد أنها رأت ابنها الشهيد يلتف حول قبره، وأنه سألها عن أبنائه فطمأنته عليهم. رأته كذلك في الحلم يحمل في يده قطعة من اللحم ويقول لها إنها هي التي تسببت في استشهاده. وككل أمهات الشهداء رأت جثة ابنها وهي تخرج من الثلاجة التي كان محفوظاً فيها، وكان جسده حاراً كالنار، وقد مال برأسه إلى اليمين، ثم إلى الشمال. هذا ما تكرره أمهات الشهداء كلهن.

إن علينا أن نتذكر هنا، أن قصص ماجد قد كتبت قبل هذا الحديث بعشرين سنة تقريباً. ولكن الاثنين يقتربان من الحقيقة النفسية ذاتها في الشخصية الفلسطينية: إن فعل الاستشهاد هو مثال يطرحه الشهيد للاحتذاء.

لقد استطاع ماجد ـ وعلى حد علمي أنها المرة الأولى في الأدب الفلسطيني ـ أن يلمس عمق ذلك التكوين النفسي للشخصية الفلسطينية، ويكشف عن مكوناتها: ذاكرة الموت، الشهيد الحي الميت، الموت الذي يرسم طريق الحياة. وهو بهذا يطرح واقعاً اجتماعياً وتكويناً جاهزاً للعنف الثوري.

(٤)

شاهدت فيلمين لميشيل خليفي علقا بذاكرتي بتشبث غريب. الفيلمان هما «الذاكرة الخصبة» و«عرس الجليل». أتساءل: لماذا يلتصق هذان الفيلمان بالذاكرة بكل هذه القوة والعناد؟ لماذا يصبحان كذكريات الطفولة المؤلمة، يستعادان ولا تخف حدتهما؟ الأغلب أن ذلك يعود إلى كونهما قد لمسا ذكريات طفولتي القروية المنسية، نبشا ذاكرة علاقة طفلية بالمحارم. بالطبع، الاتقان، والمستوى الفني العالي للفيلمين لهما دور في هذه الحياة الخاصة التي يعيشانها.

أتذكر في «الذاكرة الخصبة» مشهد الخالة، وهي تسير بجوار أرضها التي تسعى إلى استعادتها، وتقول إنها ذهبت إلى الخوري بشأن هذه المسألة، نفحة مجتمع قديم، تذكر قديم، تهب عليّ، مجتمع المحارم حيث يصبح للرجل وللدين قدرات كلية. المرأة تشقى ليل نهار، ولكن الرجل، خاصة ذاك المحاط بتابو ديني، يقول الكلمة الصحيحة والحاسمة. الرجل يمتلك بعض سمات إله سامي قديم.

وأتذكر بنات الخالة. إحداهن، غاضبة تشكو من حياتها الزوجية. ترسخ تلك الصورة بعمق. ان الإطار المرجعي لهذا الغضب واجبات وقيم مفترضة. إن غضبها يمتزج بحياد رصين، عابس وكفؤ في التعامل مع الأطفال والملابس. إنها جيل آخر يعرف أن له حقوقاً ويعيش مأساة المعرفة العاجزة عن تحقيق نفسها في الواقع. إن لغة هذا المشهد هي لغة عالم المحارم عندما يعاد إنتاجه عبر وعي الطفل الذي لا يفهمه تماماً. ولكن حساً فجائعياً يتسرب فيصبح حاضنة للمشهد.

ثم سحر خليفة وهي تتحدث. التعبير المدهش لليدين الكبيرتين، ليدي أم تنبعث منهما لمسات مكهربة، لدنة تبعث السكينة في نفس طفل قلق، خائف. أشعر كأن يديها امتداد، بدرجة أدنى، لحديثها. الحديث متردد يقتصر على حيوية اليدين. عندما تصمت اليدان، يصبح وجهها مستعداً للإجابة. وجه متحفز للقول، يصغي بعينين واسعتين ـ لونهما يغيب عني الآن ـ ولكن الكتفين ومنبت الرقبة يوحيان، يهددان، بالاقتراب من محدثها. حركة تحفز.

إنها جيل آخر. لا يوحي بالمحارم. توحي بالضيفات القادمات من المدينة، تلك العذوبة المحصّنة بأسرار عالم آخر، تخفي قوة مجللة بنعومة مراوغة. ماذا كانت تقول؟.

لا أتذكر. شاهدت الفيلم منذ ثماني سنوات. حديث لا يستقر في العمق لأنه لا يتصل بالمحارم، ولا بالأرض. الأغلب أنه حديث سياسي يُغلّب الطابع العقلي. حديث مثقفين، له إيقاع حديث الرجال، يميزه فقط يدا أم، وعذوبة مدينية.

أذكر لقاء واحداً وقصيراً مع سحر في بيروت عام ١٩٨١. وكان في بيت ماجد أبو شرار قبل أن يستشهد. كانت تتحدث عن قمع المرأة إذا مارست أدنى قدر من حريتها، بطريقتها المحايدة. قالت إن المرأة موضوعة دائماً في دائرة الإتهام. قلت:

– لماذا المرأة وحدها؟

وعندما طلبتْ إيضاحاً قلت:

– كلنا ندفع ثمن الحرية التي نمارسها.

قالت شيئاً كهذا: هنالك فارق. القمع ضد المرأة موجه ضد وجودها بالذات.

ثم انتقل الحديث إلى النقد المكتوب عن رواياتها. قالت إن النقد لم يضف إليها رؤية جديدة، أو معرفة. ولكنها عندما تجمع كل ما قيل تخرج برؤية ما. في عبارتها الأخيرة وسّعت ما بين كفيها المفتوحتين، وأخذت تحركهما وكأنها تقوم بجمع تلك المقالات

المتناثرة، وتضعها فوق المائدة الصغيرة التي أمامها، والتي كانت تستقر عليها فناجين القهوة التي انتهينا من شربها. ثم اقتربت الكفّان المفتوحتان، واتجه باطنهما نحو الأرض كأنها تسوي تلك الأوراق التي جمعتها دون ترتيب. الملاحظة نفسها التي رأيتها في الفيلم: حركة يديها أعلى من صوتها، وأكثر حماسة.

«عرس الجليل»، الفيلم الثاني لميشيل خليفي. وكما حدث مع الفيلم الأول «الذاكرة الخصبة» أصنع فيلمي الخاص عبر «عرس الجليل» إذ حرّض ذاكرتي. يتم ذلك من خلال عمليات إسقاط وتقمص.

الجدة الكبيرة الحجم، مصمتة، صامتة، في وجهها غياب الجنون الهادئ، لا ترى فيما يحدث أمامها سوى إعادة إنتاج لحياتها المديدة. أدركت بحدس أنثوي عريق أن الشاب - نسيت اسمه - قد حط عينه على حفيدتها. هي أيضاً، وهي في مثل سن حفيدتها، حط أحدهم عينه عليها، ولكن الجد، زوجها الحالي، تزوجها. الجد من أصل تركي، لا يزال يحمل احتقار التركي للفلاحين.

طفلات بأسنان مفقودة - هن في سن تغيير أسنان الحليب - يضحكن لأنهن عاجزات عن الغوص في عمق ذاكرة الجدة، يشعرن ببذاءة الجدة. المرأة الكبيرة تستعيد ذكرى ومجموعة قيم أنثوية. عندما يحط الرجل عينه على فتاة فهو يعبر عن رغبة عميقة، ملتاثة، ورغبة الرجل تتجاوز، تهبط عليه من منظومة القدر، فهي لهذا رغبة مقدسة. تلمسها هذه الرغبة كروح شرير وكقدر إلهي، عليها أن تخضع له.

الذاكرة، هنا، مجانية. الحفيدات يضحكن منها. والدين يقول إن هذه المرأة قد خرفت. تتواصل مع الحفيدة الملتاثة بالرغبة، ولكن لا أحد يفهم الاثنتين. تجلس مع زوجها في شبه خلوة. هنا يبدو العالم مفهوماً وراسخاً. لذا تقوم بطرد الأطفال بعيداً عنهما.

الذاكرة تصبح حياة. من الخارج تبدو مجموعة طقوس فارغة. ولكنها تتكشف عن خصوصية تتجاوز منجزات التكنولوجيا. من هنا نلمس المضمون السياسي للفيلمين: الذاكرة قادرة على هزيمة المحتل المدجج بأكثر منجزات التكنولوجيا تقدماً. إن مشهد المهرة وهي تدخل حقل الألغام قد كشف عن رؤيتين للعالم: واحدة تتعامل مع الكائن العضوي كما تتعامل مع آلة، وأخرى تراه عضوية ودودة، يتم التعامل معها بالحب.

هذا المشهد يكشف مضمون علاقتين مع الأرض: علاقة ابنها بها، وعلاقة الغازي بأرض غريبة.

وأعود إلى ذاكرتي، إلى حوار الإنسان مع الفرس الأصيل:

«ومهيرتك يا فلان تومي بيدها

مكسور خاطرها وميّت سيدها»

بكائية اردنية

الفرس مربوطة في الجهة الشرقية من الحوش، تقف رافعة الرأس كأنها تصغي لحديث يدور خلفها. ثم تحني رأسها كأن ما سمعته قد أسلمها إلى حالة من الموافقة الحزينة. ترتفع قدمها اليمنى، تثنيها عند المفصل الأول القصير، وتدق الأرض دقات متتالية، عصبية. وجه المرأة - إمرأة غير محددة - يرتفع من الذاكرة، مغسولاً، رائقاً، قطرات الماء لاصقة بإطار الشعر المحيط بالوجه. الوجه فجائعي، فإيماء الفرس بيدها نذير بالموت. تقول: «الفرس».لمن؟ لا أدري.ولكن صوتاً خشناً يقول: إنه المطر، الفرس تخبرنا بقدوم المطر.

تلك الاستعدادات العصبية: نقل الخراف إلى الرواق المسقوف، إدخال الأبسطة إلى الدار، تنظيف المكان المحيط بالبئر، وجرف الحجارة والتراب من القناة المؤدية إليه... الخ. تلك الاستعدادات هل حدثت فعلاً، أم أنني أصطنعها؟ لست متأكداً. ما أنا متأكد منه أن الفرس الأصيل لا تكذب، عندما تقول شيئاً فعلينا أن نأخذ ما تقوله بجدية.

قرأت مقالاً، لا أذكر أين، يقول إنه قبل سقوط المطر بساعات طويلة يحتشد الجو بشحنات كهربائية تثير الخيول الأصيلة وتوترها. المعلومة باهتة. تصبح الفرس فأر تجارب، وتلغي تراثاً عريقاً من التواصل - من الشعر والحكايات ومن البطولة والحب والمغامرات... الخ - بينها وبين الإنسان . تحيلها إلى شيء ، وتخرجها من ذلك الإنخراط الجميل والودود في الحياة الإجتماعية للبشر.

ولكن هل تعرف الفرس صاحبها وترتبط به بتلك الصلة الشبيهة بالعشق الذي يجعلها تومئ إليه خلف قبره، داعية إياه للعودة ؟

الفارس البدوي الذي دخل من بوابة الحوش الكبيرة، راكباً فرسه، وهبط من فوقها أمام باب الدار ثبت في مخيلتي. كان كثيفاً، جهماً، كان طويلاً عريضاً، له وجه ثقيل قاتم. أستعيد بريق الثوب الأبيض تحت عباءته. يسير بخطوات الفارس، تلك التي شاهدت (أنتوني كوين) يسير بها في فيلم «الرسالة»: قدمان متباعدتان تدبان ببطء دون أن تقترب

المسافة بينهما، وجسد متصلب كأن أعضاءه كلها مصابة بالروماتيزم، يستعيد سيطرته على جسده عندما يكون فوق فرسه.

سحرتني الفرس، كانت ذات كبرياء قلت :

عموه، أسقيها ميّه ؟

انحنى من تعامده المتجبر ليراني. تأملني كما يتأمل عالم يضع نظارة طبية على عينيه حشرة ملصقة بدبوس على لوحة، وقال:

- إيه، إسقيها.

ثم رفع سبابته محذراً وقال:

- إحرص تركبها.

- طيب.

أمسكت بالرسن، وأخرجتها من الحوش. قدتها إلى جوار دكة حجرية ملتصقة بدكاننا، صعدت إلى الدكة، ووضعت قدمي في الركاب واستقررت فوقها. لا أدري ماذا حدث بعد ذلك. سارت الفرس خطوات قليلة، ثم لقيت نفسي على الأرض. لم أشعر بأي ألم، فلقد أوقعتني الفرس بحنو، ودون أن تسبب لي أذى. كان مجرد درس تلقنني إياه: إن راكبها فارس وليس طفلاً يغافل صاحبها ويركبها.

أم العريس تتخلى عن دور المرأة التقليدي، لتكتسب مهابة عبر الملابس الفلسطينية والطقوس. ملابس مصاغة بتراث فني عريق، زخرفها ممتد الجذور إلى زخارف عصر هرم سقارة، ملابس مسحورة. عبر الملابس والطقوس تعيد صياغة العالم الذي حولها بلمسات أصابعها الطويلة، اللدنة. لا تفقد تلك الصلة بين حركة اليدين والصوت، كما حدث مع سحر. يكفي أن تشير حتى يستجيب العالم المرهون بإيماءة من إصبعها، بحركة مقتصدة للغاية من تلك الأصابع يتراجع المجند الصهيوني من باب الحجرة التي تستلقي فيها المجندة الصهيونية التي غابت عن وعيها بفعل السكر. الأم تعيد المجندة إلى الوعي بالثوب الفلسطيني وبلمسات خفيفة من الأصابع على جسدها. وهي، كالجدة، تعرف أن العلاقة بين النساء والرجال منغمسة في سياق التاريخ. إن افتضاض البكارة ليس متعة يباشرها مكبوت، بل هي ممارسة تغوص في عمق ذلك التعاقد الذي يقيم علاقة ثابتة بين الرجل والمرأة. إنها كرامة الرجل وشرف البنت. من يغيب عنه هذا العمق في الموقف، سيبدو قلق

الأم، لأن الشرشف الدامي لم يخرج من حجرة العروسين، كوميدياً.

أما ما كان يتم في الحجرة بين العروسين، فقد بدا لي مفتقداً للروح التي كانت تسود المشاهد الأخرى. كانت الرموز شديدة الوضوح، إلى حد أنه لم يوجد غيرها. كانت كل عبارة تقال، وكل إيماءة تحمل دلالتها وتكشفها على الفور، حتى تحوّل المشهد إلى صياغة ذهنية. لقد توقفت، في هذا المشهد، الذاكرة عن العمل، وأصبحنا أمام حاضر مبتور الجذور، نقاش عن الدلالة حيث الفعل لا يكتفي بذاته، بل يكشف دلالته المباشرة ليكتمل.

ولكن الذاكرة، هنا، في مواجهة ماذا؟

إن تكشُّف الذاكرة يتم أمام شاهد إسرائيلي. الإسرائيلي جاء ليراقب أولاً، ليتأكد أن العرس لن يتحول إلى عمل جماعي ضد سلطة الإحتلال. وجاء، ثانياً، ليراقب طقوس تخلف. جاء محتمياً بتكنولوجيا متقدمة وأدوات حرب فعالة، ولكن الذاكرة الفلسطينية احتوته، حاصرته، ثم أخرجته مطروداً من القرية. إن مشهد طرد الإسرائيليين من القرية بدا ملتبساً. القوات العسكرية الإسرائيلية تبتعد عن الإضاءة القوية المسلطة على القرويين، وتدخل في عتمة شفافة وكأنها تتجه إلى الفضاء الخارجي.

(٥)

«أطفال الندى» رواية غير منشورة لحمد الأسعد يسميها، لسبب غير مفهوم، نصاً، أي لا شيء على التحديد. رواية ذات فرادة في لغتنا العربية، لأن موضوعها الذاكرة الفلسطينية فقط، تكشف محتوياتها وتقنياتها باعتبارها ما يميز الفلسطيني ويحدد هويته. وهي تفعل ذلك على نحو مميز.

بعد أن تحدد الرواية موقع القرية التي عاش فيها الراوي طفولته «أم الزينات» والأماكن والقرى المحيطة بها، ومختلف الطرق المؤدية إليها والخارجة منها... بعد هذا يقول إن المكان يوجد لأن له ذاكرة مديدة محتشدة:

«وكل هذه الطرق والأماكن يرتبط بالأحداث. فليس هناك مكان لا يرتبط بالذاكرة بحدث ما... ولو أتيح لنا أن نرصد تفاصيل الأحداث والأماكن عبر زمن يمتد إلى أبعد من جيل أو جيلين... إلى مئات الأجيال لكانت من كل هذا ملحمة تشهد بأن التاريخ الإنساني موجز إلى حد كبير في كتب المعلومات والموسوعات».

وطبقاً لقرار هيئة الأمم الخاص بتقسيم فلسطين أضيفت هذه القرية إلى إسرائيل، وقد

«جاء القرار ليطمس كل تفصيل وكل ملمح إنساني خاص بهذه البقعة الصغيرة». هنا تأتي الذاكرة لتعيد للمكان ـ الذي تم مسح تاريخه، كما يتم إزالة عقبة من الطريق ـ حياته المهددة بالاستلاب:

«جاء القرار ليطمس التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل. أي حتى تلك التي التقطتها، أنا الصغير، كما يلتقط الإنسان حلماً، فلا يجد في يده إلا صوراً... ولا حركة. صورة من هنا، وصورة من هناك. ولكنني أستيقظ بعد كل هذه السنوات وتتحرك فيّ قرية كاملة بكل طرقها»..

هنا يمسك الكاتب بإحدى أهم تقنيات ذاكرة الصور. صور الذاكرة ثابتة، لا تتحرك، كل شيء يستعاد كمشهد سينمائي توقفت فيه آلة العرض عن العمل، أو كصورة فوتوغرافية. إنها ذاكرة أخرى، لا تملك دقة الذاكرة الأولى، هي التي تحرك الصور وتحكي ما حدث.

الصور تثبت أيضاً في الزمان:

«وأكذب تخيلاتي عن الذين سكنوا فجأة وكأنما قيدهم سحر ساحر، في مدينة مسحورة، فتحول بعضهم إلى تماثيل والبعض إلى أسماك ملونة».

هؤلاء هم سكان الغابة الحجرية، يبدون وكأنهم قد ثبتوا عند هذه الصورة إلى الأبد، دون أن يحدث جديد في حياتهم، أو في هيئاتهم، أو مصائرهم:

«لا أحد ينمو حتى الآن من سكان الغابة الحجرية، أو أنني لم أجد الوقت الكافي لأجعلهم ينطلقون باتجاه المستقبل، أو الجهات الأربع، باتجاه مصائر لم تتحقق، لقد توقفوا عند اللحظة التي كانت الأشد تأثيراً».

أعرف تلك الصور الثابتة في الذاكرة. يبدو لي ثباتها منفصلاً عني، متجاهلاً حضوري. وجوه شاخصة العيون، تستقل عن سياق الزمان والمكان، أو وجوه مقنعة العيون، لها صمت وسكون التماثيل. أقترب منها فلا تتعرف عليّ. كيف أحركها، أعيدها إلى دينامية الحياة البشرية حين أكتب أو أتحدث؟ كيف أزيل بعدها المرعب الذي يجعلني أشعر أنني كنت مرفوضاً دائماً؟

ما أستعيده هو ما يستعيده أهل قريتي من ذكرى الأموات الأموات،حتى الأحياء الأحياء يزاولون موتهم بصمت الغابة الحجرية، لذا يظهرون للأحياء محاطين بهالة من العنف الصامت المنذر.إنهم يقفون معلقين بين العدم والتجسد مخلدين صور لحظتهم الأخيرة،أو

موتهم الأول.

وكصورة زيتية مفعمة بالحياة يبدون مهددين بحركة عنف لا تأتي ولا تنتهي، محكوم عليهم بالحركة الأبدية عبر صمتهم وسكون حركتهم.

ولكننا نحرّك هذه الصور، كيف ؟

نفعل ذلك عبر المخيّلة.

أستعيد صورة تلك المرأة. كانت قصيرة نحيلة، وكانت تعتقد أنها أكثر النساء عقلاً وحكمة. كانت شديدة التفاهة، وجادة في تفاهتها إلى الحد الأقصى. أستعيد صورتها وجسدها مائل إلى الأمام، ووجهها أكثر ميلاً، ساقها اليمنى ترتفع في الهواء لتكمل خطوتها، ولكنها - في ذاكرتي - لا تصل أبداً إلى الأرض.

كيف أحركها؟.

أستعيد صوتها المتعجل، المختنق قليلاً، أحاول أن أعيد بناء كلماتها حتى تصبح جُمَلاً. ثم أتذكر حكاية روتها إمرأة أخرى. قالت: إن سبب موت ابنها البكر، أنها في ليلة مامارست الجنس مع زوجها طويلاً جداً، فانزاح الغطاء عن ابنها وأصيب بالبرد، ثم أصيب بالإسهال الذي لم يشف منه أبداً.

أستعيد مفهوماً. عندما تستمتع الأم، فإنها تخون الأبناء. وأتذكر أنني كنت أقف بجوار هذه المرأة، وهي تحمل الفرشات والألحفة وتضعها فوق مخازن القمح. قلت لنفسي: ها هي امرأة ضاجعت رجلاً. لم أكن أعرف بعد أن ذلك يتم بين الزوجين، ثم ركضت مسرعاً، وخرجت من الدار خوفاً من أن تقرأ أفكاري.

ثم أتذكرها، وهي تتحدث إلى أخيها الذي قضى معظم حياته في مدن فلسطين وفي عمان. كان ينام في دارنا، وجاءت إليه وهو ما يزال في فراشه يشرب قهوة الصباح. أخذت تحكي بصوت فجائعي مختنق، وكنت أتوقع أن تموت مختنقة. عندما كانت تتحدث كنت أشعر باختناق، ثم قالت لها أمي شيئاً كهذا: إنك تملأينه بالألم بدون فائدة. حياتك هي حياتك ولن يستطيع أحد أن يغير منها شيئاً. ولكن الأخ أخرج جنيهاً وأعطاه لأخته، فقبلته وصمتت. قالت أمي:

- مش ناوي على الجواز؟

قال شيئاً كهذا: إنه عزم على الزواج بالفعل وخطب فتاة، وكاد كل شيء أن يتم لولا أن

أهلها اشترطوا عليه أن يتكلل في كنيسة الكاثوليك. قال: أغيّر ديني منشان مره (امرأة) شخّاخة؟

كنا أرثوذكساً .وهذه كانت أرضية ملائمة لأن تبوح الأخت بأعمق أفكارها حول مسألة تغيير الدين. كانت لها جولات مشهودة ضد الكاثوليك، ودفاعاً عن الأرثوذكس.

ها هي عناصر الذاكرة تتجمع وتنتظر دفعة واحدة ليعاد بناء الصورة كجزء من حياة دينامية، متصلة ومتغيرة، وكذلك ليعاد بناء الموقف والإنسان. إنها عملية صهر وولادة جديدة غير مفهومة، نطلق عليها أسماء اعتباطية. قد ننسبها إلى دينامية اللاوعي الذي لا نعرف عنه شيئاً، أو إلى ما يمكن أن نسميه الموهبة الروائية لدى الإنسان، والتي تتمايز لدى الروائي، ولكن ذلك كله غير واضح وغير مفهوم.

تقنية أخرى من تقنيات الذاكرة في هذه الرواية. عندما نسمع أخباراً كثيرة ومثيرة عن إنسان ما، فإننا نتصور أنه سيطلق تاريخه وتفرده كله بمجرد أن نراه. لهذا يحدث أننا عندما نرى إنساناً سمعنا عنه كثيراً أو أعجبنا به كثيراً، فإننا نصاب بخيبة الأمل، أو بالنفور. هنالك سلسلة تداعيات في جهازنا العصبي، تجعلنا نتوقع الخطوة التالية، وعندما لا تجيء نصاب بالضيق. للمرأة التي تبحث عن قاتل حبيبها أو أخيها سلسلة تداعيات، قد تكون بدايتها أسطورة «إيزيس وجليلة». ولكننا، هنا، نواجه بصدمة: الباحثة عن الثأر ليست رجلاً ولا أنثى .

«كانت زائرة ذات أهمية غير عادية قد جاءت من بعيد... طويلة بحجم يكاد يكون هائلاً ترتدي ملابس ثقيلة... وتشد على يدي... أشعر معها وكأن حجراً أطبق على يدي. كانت مثل خيمة تسير... بعينين قويتين... وحواجب كثيفة» ...

«وتسألني الزائرة كيف فكرت ببلاطات (الشقاق)... فأقول: راحت على الذين راحت عليهم»...

«ربما كان امتحاناً... ذلك أنها أطلقت إشارة... وتلقفتها فوراً... ولكن جوابي لم يكن صادقاً، ولا نابعاً مما أريده أو أعتقده.»

«وعادت تقول «يعني... راحت»،

وأصر على القول «نعم».

«وينقطع الحديث... وتتحول الزائرة عني... ولكن بعد أن انتصبت في ذاكرتي بهذا

الاقتضاب الموجز الذي اختصرت فيه سؤالها عما فعلته. وعما أفعله... وعما أفكر فيه... وما هو أنا تحديداً. وأشعر أني لمحت في عينيها نظرة ساخرة وهي تستدير عني.»

«قالت أمي عنها، هي ليست رجلاً ولا أنثى... إنها كما يسمونها «رجالية كانت تخرج مع الحراثين»... وتذكرت الحجر الذي أطبق على يدي... وأسألها... ماذا تفعل هنا؟ فتقول إنها تبحث عن شخص قتل أخاها منذ أيام البلاد. وكلما سمعت أنه في بلد سافرت بحثاً عنه! ويضاف إلى الدهشة شيء من الرعب الهادئ. وأسأل أمي، إذا وجدته ماذا ستفعل؟»

«لا تتعب أمي... وهي تعيد رواية القتل... كما سمعتها ... ولا تجيب على سؤالي»

«ها هو حزن هائل تختزنه هذه المرأة ـ الرجل... لم يعد حزناً بل رغبة صامتة في العثور على قاتل أخيها... وهي تلتف بعباءة سوداء وتشد رأسها بما يشبه العمامة التي لا يظهر تحتها شعرها الأشيب. هي في الخمسينات من العمر، وربما تجاوزتها قليلاً... أما الآن... فأين تكون؟ وماذا فعلت؟ وهل وجدت ما تبحث عنه؟ إنها تضيع في تضاريس أيامي مثل بذرة صلبة لا تنمو. ويطالبني الخيال أن أطلقها من التربة وأنميها... لتستوي شجرة... أو شيئاً مفهوماً... ولكنني أفضل معها، شأني مع الكثيرين، أن أبقيها بذرة غامضة وصلبة».

ما هي الرافعة التي تقيم هذه الرواية وتوحد سياقها؟

إنها رافعة ظاهراتية: يوجد المكان والتاريخ عندما نكون شهوداً عليهما. إذا ابتعد الشاهد، أو أدار ظهره، اختفى المكان والتاريخ. الذاكرة هي التي تحافظ على المكان والتاريخ، وبالتالي على الوطن: افتقاد الذاكرة يعني افتقاد الهوية، وبالتالي الانتماء.. هنالك غزاة قد جاءوا غير منتسبين إلى الأرض، لم يعيشوا تاريخ هذه الأرض إلا كجزء من التاريخ العام، المكتوب عبر عموميات كتب المؤرخين: هذه الأرض ليست جزءاً من ذاكرة الغزاة، فلن يكونوا أصحابها.

ولكن الذاكرة في خطر:

«سنحول العالم إلى قصة، إذاً، لاحتمال ألم لا يخفف من حدته إلا الشعور بأنه عابر... ولكن مثل هذا الأمر بحاجة إلى ذهول عن ملمس الحجارة الغريبة... والمياه التي تجمعت حولها خيم القرويين، ذهول عن ملمس العالم الذي يطل من بيوت أصحاب الأرض الذين لم تبتلعهم الهوة التي أخذت معها قرانا وحواكيرنا... ولن يدرك هؤلاء الذين أطلوا خلال وجوهنا على اتساع الهوة المظلمة، أنها من النوع الذي يتمدد ويتسع ويتآكل، وتنهار

الحواف التي تشبثوا بها».

الغربة هي الخطر على الذاكرة. وما يتبع الغربة من اندماج، ومن مشاريع للتوطين. ها هو الراوي يشعر بالنذر، فقد أخذت الأماكن والأزمنة تختلط في ذهنه، وبهذا تفقد ذاكرة الصور وثوقيتها. لن يستطيع الفلسطيني أن يحتفظ بذاكرته إلا إذا تحولت «إلى قصة». الفن وحده هو القادر على المحافظة على الأرض والتراث. أما كتب التاريخ فهي تنسى التفاصيل وتفاصيل التفاصيل. ولهذا فهي عاجزة أن تكون غذاء للذاكرة.

تتطابق هذه الرؤية مع وظيفة الفن ـ بما فيه الأدب ـ كما يحددها علم الجمال: الفن، والأدب خاصة، يعيد لنا لحظات حياتنا، يستنقذها من العدم ويثبتها. إن تجاربنا وتاريخنا معرضان للضياع، ولا نستعيدهما إلا عندما نضعهما في سياق الشكل، سياق تغريب التجربة، وإعادة تمثلها عبر التقمص.

نقول عندما نقرأ الأدب المتمين، نقول بدهشة: هذا صحيح. ونعني بذلك أن ما تم في العمل الأدبي قد حدث لنا، ولكننا نسيناه. الآن نفهمه ونستنقذه من النسيان.

مجلة الكاتب الفلسطيني العدد (١٥) ربيع ١٩٨٩

الفصل الثاني

المخيم الفلسطيني

المخيم الفلسطيني لم يجد من يدرسه دراسة وافية كظاهرة إجتماعية، من حيث بنيته الداخلية وتكوينه الروحي ودوره السياسي. من المعروف أن هذه المخيمات تشكلت من جماعات اندفعت عبر الحدود الفلسطينية باستعجال، معتقدة أنها ستعود إلى وطنها خلال أيام قليلة، أو أسابيع على الأكثر ولكنها استقرت نصف استقرار. اقتلعت هذه الجماهير من جذورها، وعندما استقرت في المخيمات ظلت بلا جذور، تعيش حياتها انتظاراً للعودة.

والأسئلة التي تفرض نفسها هي: لماذا لم يتحول المخيم الفلسطيني إلى وسيطة لذوبان سكانه في المجتمعات التي استقر بها الفلسطينيون؟ لماذا احتفظ المخيم الفلسطيني بسمات ثابتة على مدى يزيد على الثلاثين عاماً؟ ما الذي جعل المخيم الفلسطيني القلب الحقيقي والثابت للثورة؟

لا أطمح أن أقدم دراسة شاملة لظاهرة المخيم الفلسطيني، كل ما استطيعه هو تقديم أفكار أولية، وذلك لأنني لا أملك المعلومات المطلوبة عن المخيمات الفلسطينية. وحتى لو توفرت هذه المعلومات، فليس لي خبرة بمناهج البحث للعلوم الإجتماعية، لذلك سوف تكون إجاباتي على هذه الأسئلة هي نتاج انطباعات تكونت من خلال معايشة محدودة، وملاحظات تشكلت عبر سنين طويلة.

(١)

أتيح لي أن أشهد، عن قرب، الغزو الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢. وفيما يختص بالمخيمات الفلسطينية يمكننا أن نلاحظ عدة أمور هامة ومثيرة للتأمل.

لقد اتضح أن التكوين العسكري الكلاسيكي لا يمتلك أية كفاءة في مواجهة الجيش

الإسرائيلي الذي اندفع عبر التشكيلات العسكرية الكلاسيكيّة، كاندفاع السكين في قالب الزبدة الطري.

واتضح أن الجيش الإسرائيلي لا يمتلك الكفاءة المطلوبة في مواجهة المخيمات الفلسطينية. لقد أصبح هذا الجيش مهدداً بالذوبان في هذه المخيمات كما تذوب قطعة الزبدة في الماء الساخن. وبهذا أصبح المخيم الفلسطيني مدرسة للثورة.

أعني بهذا أنه عندما قام الشعب اللبناني (بدعم ومشاركة الفلسطينيين) بمقاومة الغزو، اعتمد في نضاله أسلوب المخيم، فتحولت القرية اللبنانية - بشكل مؤقت - إلى مخيم فلسطيني، أعني بذلك انغماس جميع سكان القرية في المقاومة، مع إعطاء كل فئة من السكان، الشكل المناسب للنضال. وبهذا، لم يكن الجيش الإسرائيلي يواجه مجموعة محددة ومتمايزة من المقاتلين، بل جميع السكان.

إن عدم الكفاءة الإسرائيلية في مواجهة المخيم الفلسطيني لم تكن عسكرية فقط، بل أصبحت تدميراً معنوياً للمقاتل الإسرائيلي، وهزيمة سياسية ومعنوية على المستوى الدولي، ومستوى الرأي العام العالمي .

وأود أن أؤكد، هنا، أن قتال المخيم الفلسطيني ليس شكلاً جديداً من أشكال حرب الشعب، بل صورة لأمة يقاوم كل فرد فيها الغزو الأجنبي، ولهذا فإن نتائج قتاله ليست نصراً أو هزيمة عسكرية، بل ضربة تصيب العدو مؤدية إلى انهيار شامل، مثال ذلك حرب (فيتنام)، فعندما سقطت (سايغون) استسلم حوالي نصف مليون أسير، مع أن الدبابات التي دخلت المدينة كانت ثماني دبابات فقط.

بهذا نستطيع القول إن المخيم الفلسطيني، كقاعدة مقاتلة،، يشكل تحدياً لكل المفاهيم العسكرية السائدة.

(٢)

أذكر أنني كتبت مقالاً في مجلة الآداب البيروتية، ضمن عدد خاص أصدرته عن الأدب الفلسطيني، في عام ١٩٦١ قلت فيه إننا نشاهد ظاهرة الفلسطيني التائه، أعني به ذلك الذي قطع صلته بالمخيمات، وأخذ يندمج في المؤسسات المالية العربية.وقلت إن المخيم الفلسطيني يعيش تحت مستوى الطبقات، لهذا قد تنهض طبقات وطنية في المنطقة العربية، تلعب دورها، ثم تنتهي وتخون. وقد تنهض طبقات ثورية تندمج في تحالف واسع يفقدها سماتها الجذرية. المخيم الفلسطيني وحده، الذي يعيش تحت مستوى الطبقات،

والذي يرتبط وجوده بوجود إسرائيل، ونهايته بنهايتها، هو الذي سوف يستمر، حتى التحرير الشامل، قاعدة للثورة الجذرية، ليس له أفق اقتصادي حتى ينمو في اتجاه الإندماج في الطبقات البرجوازية، وليس له أفق اجتماعي حيث يستطيع تغيير وضعه من خلال تغيير العلاقات الطبقية. أفقه الوحيد ثورة جذرية عربية قادرة على تحرير الوطن العربي وإزالة إسرائيل.

وقلت إن إلغاء دور المخيم الفلسطيني كقاعدة ثابتة للثورة العربية الجذرية هي سياسة ثابتة للأنظمة العربية (المقال مكتوب في عام ١٩٦١، فعندما يقال للفلسطينيين أن قضيتهم هي قضية العرب كلهم، فإن ما تعنيه الأنظمة العربية بقولها هذا إن على الفلسطينيين أن يتخلوا عن قضيتهم، أو يجعلوها جزءاً من قضايا الطبقات الحاكمة العربية. وهذا يعني، بالتحديد، استعمال القضية الفلسطينية والخطر الإسرائيلي كوسيلة لتبرير القمع الداخلي، ومصادرة الحريات العامة، والنهب الذي تقوم به الطبقات العليا.

عندما استعيد ما كتبته في عام ١٩٦١ لا أرى أنني بحاجة إلى تغيير كلمة واحدة. هنالك الكثير، بالطبع، الذي يمكنني إضافته، خاصة فيما يتعلق بالمخيم الفلسطيني.

(٣)

نعود الآن إلى الأسئلة التي طرحناها حول المخيم الفلسطيني في البداية. وأؤكد أن الهدف وراء طرح هذه الأسئلة ليس أكاديمياً خالصاً، بل يتصل بمحاولات حثيثة قامت بها قوى عديدة لتصفية المخيم الفلسطيني، واقتلاعه. والمسألة ليست مجرد تغيير ديموغرافي، وليست مجرد القيام بجرائم إبادة الجنس، أي إفناء سكان المخيمات.

هذا لا يعني بأية حال التقليل من هاتين الجريمتين البشعتين، التغيير الديموغرافي وإبادة الجنس، ولا من الدوافع العنصرية والطائفية الكامنة وراءهما. فجرائم (هتلر) لا تتجاوز هاتين الجريمتين، ودوافعه لا تختلف جوهرياً عن دوافع الجرائم التي ارتكبت وترتكب ضد المخيمات الفلسطينية.

رغم هذا، فإن هذا كله ليس أهم ما في الأمر. لقد أثبت المخيم الفلسطيني أنه قادر أن يكون القلب والمركز الثابت والمستمر للثورة العربية. إن مجموعة من السمات والعوامل والظروف التي تحيط بالمخيم الفلسطيني جعلته مستعصياً على الحلول الوسيطة. إنه، حتى وإن انخرط في الصراعات الإجتماعية العربية، سيظل القوة الساعية إلى تصفية

إسرائيل نهائياً. فكل انتصار لقوى الثورة العربية سيظل، بالنسبة للمخيم الفلسطيني، مجرد خطوة نحو تصفية إسرائيل.

وقد ثبت، الآن، أن تصفية إسرائيل تعني الوحدة العربية، تحت قيادة أكثر القوى ثورية في المنطقة العربية.

لهذا السبب، سوف يظل المخيم الفلسطيني معياراً ثابتاً للحكم على مدى جدية وثورية كل قوة سياسية عربية. إن كل قوة سياسية تسعى لفرض تغيير ديموغرافي لإلغاء المخيم الفلسطيني كقوة ثورية مسلحة، تشكل قلب الثورة العربية، أو تسعى لإلغاء هذا المخيم من خلال إبادة الجنس... لن تفعل ذلك إلا بتوافق مع المخططات الأمريكية والإسرائيلية الهادفة إلى تثبيت وضع يجعل وجود إسرائيل مقبولاً في المنطقة العربية.

تظل هنالك مسألة تحتاج إلى إيضاح، وهي تحديد صفة الثورة الفلسطينية. إن الذهن ينصرف دائماً، عند الحديث عن الثورة الفلسطينية، إلى أجهزة ومؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية بالإضافة إلى القوات المسلحة، بمعنى أن المخيم الفلسطيني يجري التعامل معه باعتباره جزءاً ساكناً. يقال إن علينا باستمرار حمايته فيبدو وكأنه نقطة الضعف في الساحة الفلسطينية .

هذه رؤية متولدة من الرؤية العربية الرسمية للقضية الفلسطينية. فكما أن السلطة العربية هي مجموعة من المؤسسات والقوات المسلحة والأمن، رأت منظمة التحرير الفلسطينية نفسها هي الثورة، ونظاماً عربياً له كل شارات النظام، رأت نفسها هي القوة الفاعلة ورأت المخيم القوة المنفعلة. وكأي نظام عربي تجاهلت م.ت.ف الواقع الذي يثبت عكس مقولاتها. ففي الوقت الذي انهارت فيه القوات المسلحة الفلسطينية في مدينة صيدا في يوم واحد، صمد مخيم عين الحلوة ثلاث سنوات، وما زال صامداً.

يقودنا هذا إلى السؤال: لماذا؟

المخيم الفلسطيني : معطيات أولية

المخيم الفلسطيني أصبح يمتلك سمات ثابتة عصية على التغيير، لن يفقدها إلا في حالتين : أن يزال عبر عملية إبادة شاملة تشمل كل المخيمات الفلسطينية ، أو تستعاد فلسطين كاملة لشعبها. وهذا يعني أن المخيم يختلف عن كل البنى السياسية والعسكرية الفلسطينية، ابتداء من حكومة عموم فلسطين وانتهاء بمنظمة التحرير الفلسطينية.

هذه المؤسسات يمكنها أن تجد حلاً للحالة التي تخلقها عبر تحولها إلى نظام عربي، أو عبر قيام دولة فلسطينية صغيرة مجردة من السلاح، أو من خلال مشروع ريغان أو الحكم الذاتي الخ ... ولكن المخيم لن ينحل كحالة إلا باستعادة فلسطين كاملة.

(١)

ماذا تعني استعادة فلسطين كاملة على المستوى العربي (القومي)؟ تعني مواجهة مع إسرائيل وأمريكا (خاصة بعد الاتفاق الاستراتيجي بين الدولتين)، وتعني تحقيق انتصار حاسم وشامل على الدولتين، بالأسلوب الفيتنامي. لقد برهنت الأنظمة العربية أنها، بوضعها الحالي، عاجزة عن تحقيق مثل هذا الهدف لضعف بنيتها وتفككها، ولأن مصالح غالبيتها متشابكة بكثافة وتنوع وعمق مع مصالح أمريكا.

إنها - أي الأنظمة العربية - مجتمعات إستهلاكية، طابعها الأساسي تجاري، وما زالت - على نحو ما - تعيش صراع المدن التجارية العربية القديمة. إن تجاوز هذا الوضع يستلزم تحويل المجتمعات العربية من مجتمعات استهلاكية إلى مجتمعات إنتاجية. وهذا يقتضي تحويلاً في البنى الإجتماعية وفي التنظيم الإقتصادي، وفي خلق وحدة قومية تساعد وتدعم هذه التحولات.

وهذا يعني تحويلاً جذرياً في العلاقات الطبقية. إن سيطرة الفئات الكومبرادورية هي التي تدعم التجزئة، وتخلق تشابك المصالح مع الإمبريالية الأمريكية. فالقضاء على هذه الطبقات يعني:

١ - فصم عرى التحالف مع الإمبريالية الأمريكية.

٢ - توجيه التراكم الرأسمالي نحو الصناعة ومكننة الزراعة وتلبية الحاجات الحقيقية للإنسان.

٣ - المواجهة الحتمية مع أمريكا وإسرائيل.

٤ - إعادة التنظيم الإجتماعي بما يكفل استمرار هذه المواجهة حتى تحقيق النصر.

(٢)

قلنا إن المخيم الفلسطيني - والثورة الفلسطينية في مرحلة ما، باعتبارها واحدة من تعبيرات المخيم الفلسطيني - هو قلب الثورة العربية المسلح والدائم .

ولم أكن أعني فقط أن المخيم الفلسطيني قادر على ممارسة الكفاح المسلح بشكل ثابت

ومتصل، ولا باعتباره حاضنة جاهزة على الدوام لاستقطاب كل القوى الثورية العربية بل أساساً كونه حالة دائمة من المقاومة للإمبريالية الأمريكية وإسرائيل، حالة لن تنتهي إلا باستعادة فلسطين كاملة لشعبها.

وقد ذكرنا منذ قليل أن تحقيق هذا الهدف على المستوى القومي يعني تغييراً جذرياً في المنطقة العربية. والمخيم الفلسطيني هو أكثر العناصر ديناميةً في هذا التغيير. لأنه هو وحده الذي لن يحقق أهدافه كاملة إلا حين تحقق الأمة العربية أهدافها بالكامل.

من هنا ينبغي لنا أن نعيد النظر في ذلك المفهوم السائد، وهو أن وظيفة المخيم الفلسطيني هي العمل على استعادة بعض فلسطين، أو إقامة دولة على جزء منها، أو حتى عليها كلها، بمعزل عن الظرف العربي. إن ثبات هذا المفهوم أصبح مأزقاً حقيقياً للثورة الفلسطينية، وللثورة العربية. فاستعادة فلسطين ليست حلاً لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، وليست قضية فلسطينية خالصة، بل هي مواجهة شاملة للمشروع الإمبريالي. فالكفاح المسلح للمخيم الفلسطيني هو بشكل أساسي الفعل الأكثر جدية وفاعلية لتحقيق الوحدة العربية، والمجتمع الثوري والتحرر من السيطرة الإمبريالية.

لهذا السبب بالذات يصبح المخيم الفلسطيني المسلح والمنتج لأكثر الثورات جذرية واستمرارية هو العدو الدائم والثابت لكل القوى المرتبطة بالمشروع الأمريكي، سواء أكانت من القوى الطائفية، أو ممثلة للكومبرادور الفلسطيني الذي يلهث وراء المشاريع الأمريكية، ويتحالف مع محور أمريكا.

دعونا نتأمل دلالة مشروعين متجسدين في شعارين يتصلان بالدور العربي للمخيم الفلسطيني. المشروع الأول الذي يجسده شعار الوفاق الوطني اللبناني. ومن المعروف أن أمام لبنان مشروعين لحل أزمته. الأول : المشروع العلماني الديموقراطي الذي سبق وأن طرحه الشهيد كمال جنبلاط، ونجد تجسيده في القوى الوطنية اللبنانية ذات الإتجاه العلماني . هذا المشروع يريد خلق دولة ديموقراطية ذات انتماء عربي، ترى أن تحرير لبنان الحقيقي مرتبط بتحرير القدس. وهو لهذا يجد في المخيم الفلسطيني حليفاً استراتيجياً.

والمشروع الآخر هو مشروع الوفاق الطائفي الذي يرى في لبنان مجرد مجموعة من الطوائف بعضها ذات انتماء عربي وأخرى متحالفة مع إسرائيل، وبعضها لا يريد من لبنان إلا دولة تحكمها مجموعة البورجوازيات الطائفية. يسعى أصحاب هذا المشروع إلى إقامة توازن مصالح يعادل الأحقاد الطائفية الراسخة، ويسعى إلى صداقة الجميع بمن

فيهم إسرائيل. فسياسة المواجهة مع إسرائيل، كما يرى دعاة هذا المشروع، هي سبب كل مصائب لبنان، ومن حق لبنان أن يرتاح.

لهذا السبب يصبح المخيم الفلسطيني، باعتباره قلب الثورة العربية، هو الخصم الذي يجب إزالته من الوجود.

(٣)

وهذا يؤدي بنا إلى حقيقة أخرى وهي أن المخيم الفلسطيني هو قلب الحركة العلمانية الديمقراطية العربية. وليس هذا نتيجة للمستوى الثقافي أو المنطلقات الإيديولوجية للمخيم، بل يعود إلى طبيعة معركته العسكرية والسياسية. إن (هانوي) ثانية، بالنسبة للثورة الفلسطينية، لن تكون إلا عاصمة لدولة ثورية، دولة علمانية، ديموقراطية.

وأنا هنا لا أتحدث عن حلفاء مؤقتين قد يحملون السلاح ويقاتلون إلى جانب الفلسطينيين، بل أتحدث عن الحلفاء الإستراتيجيين في كل المراحل والظروف. ومثل هؤلاء الحلفاء لن يكونوا إلا قوى جذرية، قوى ديموقراطية علمانية.

وحتى نزيد المسألة إيضاحاً نطرح مقارنة بين المخيم الفلسطيني وبين العمال والفلاحين. فالعمال والفلاحون ليسو أكثر الطبقات وعياً. ولكنهم بطبيعة وضعهم الإجتماعي واتجاه نضالهم يجدون أخلص حلفائهم بين أكثر القوى علمانية وديموقراطية. فهم لم ينضووا تحت لواء الكنيسة والقوى الإقطاعية والرأسمالية الروسية، أي تلك القوى التي تحمل الإيديولوجية المسيطرة على عقل الشعب، بل انضووا تحت لواء حزب (لينين) أكثر الأحزاب الروسية جذرية وعلمانية وديموقراطية.

إن كثيراً من القوى العلمانية والديموقراطية العربية حاولت أن تتخذ موقفاً محايداً، أو موقفاً ذا وجهين من المخيم الفلسطيني، معه وضده. ولكنها كانت تعلم أن هزيمة المخيم الفلسطيني كانت تعني نهايتها. كانت تنافق عدواً يريد سحقها آملة أن يرأف بها، عندما تصورت أنه منتصر دون شك. ولكن موقفها الإنتهازي هذا جعلها قوة هامشية لا يحسب لها حساب.

وهنالك العديد من الأمثلة على ذلك التناقض بين القوى التي تستعمل سلاح الطائفية وبين المخيم الفلسطيني، فحتى يمهد أنور السادات للصلح مع إسرائيل شن حملة على اليسار المصري بواسطة المجموعات الدينية المسلحة. وحتى يمزق قوى الشعب المعارضة لسياسته أثار، إلى أقصى حد، الخلافات الدموية بين المسيحيين والمسلمين في مصر. كما

أن مسيرة النميري التي انتهت بتهريب يهود الفلاشا مهدتْ لها موجة دينية معادية للعلمانية ولأهل جنوب السودان المسيحيين.

السادات والنميري وقفا مع أعداء المخيم الفلسطيني، وكان لا بد لهما أن يعملا على تقوية الاتجاهات الطائفية ومحاربة الإتجاهات العلمانية والديموقراطية. وكان هنالك ارتباط عملي وعضوي بين محاربة المخيم الفلسطيني وبين الإنحياز إلى الطائفية.

يتأكد هذا التوجه للمخيم الفلسطيني بتلك العلاقة بين المخيم وبين قياداته العسكرية والسياسية. ففي حين نجد أن جماهير الطوائف، وخاصة الجماعات الفقيرة والمحرومة منها،كما جرى ويجري في لبنان، تتخلى عن اتجاهاتها العلمانية والديموقراطية، وتلتف حول العناصر القيادية ذات التوجه الطائفي، نجد المخيم يتبنى قياداته لطابعها الثوري والعلماني.

لقد كانت غالبية قيادة فتح من الإخوان المسلمين، ورغم هذا فإن الاتجاهات الدينية لم تسيطر في المخيم.

المخيم الفلسطيني: العلمانية

قلنا إنه رغم أن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كانت في غالبيتها من جماعة الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي، فإن الإتجاهات الرئيسية داخل الثورة الفلسطينية (والمخيم الفلسطيني بشكل خاص) ذات طابع علماني. وهي ظاهرة ملفتة من عدة وجوه:

- لماذا قبلت قيادة ذات طابع ديني بالاستمرار في قيادة شعب علماني، ولم تحاول أن توجد في صفوفه حركة دينية؟
- كيف قبل شعب كهذا أن تقوده مثل هذه القيادة؟
- لماذا عملت هذه القيادة على تغذية وتمويل وتشجيع الحركات الدينية في الكثير من البلدان العربية، وخاصة لبنان، ولم تنجح في ذلك داخل المخيم الفلسطيني؟.

(١)

نود، فقط، أن نؤكد الطابع العلماني للمخيم الفلسطيني. فكل الفصائل الفلسطينية بعيدة عن التيارات الدينية، كماأن التحالفات الفلسطينية الاستراتيجية هي، في الأساس، مع القوى العلمانية، ومع الأهداف العلمانية. بل إن المخيم الفلسطيني كوجود يستفز القوى

ذات الطابع الديني والطائفي. فلو أخذنا لبنان كمثال نجد أنه منذ البداية وحتى الآن يصبح المخيم الفلسطيني هدفاً لعدوان القوى ذات المشروع الطائفي، المرشح للنجاح، أو الذي يتوهم ذلك. وفي الوقت ذاته أصبح المخيم الفلسطيني حليفاً لكل مشروع علماني ابتداء من مشروع (كمال جنبلاط) وانتهاء بمشروع الأحزاب اللبنانية العلمانية.

كيف نفسر هذه الظاهرة؟

لقد أثبتت الحركات الدينية - جماعة الإخوان المسلمين خاصة - أنها حليفة أكثر القوى رجعية. في مصر تحالفت مع السادات، وفي السودان تحالفت مع النميري. والمملكة العربية السعودية هي راعية الحركة، والتي تبنتها في اليمن ودول الخليج.

وحين نستعيد تاريخها نجد براهين كثيرة على ذلك. يكفي أن نتذكر تأييد هذه الجماعة لمعاهدة صدقي - بيفن.

من هنا نستطيع أن نلمس التناقض بين المشروع الفلسطيني، الذي يرى أن الطريق إلى فلسطين يمر عبر تغييرات جذرية عربية، وبين مشروع الإخوان المسلمين الذين يعتقدون أن تحرير فلسطين يتم عبر انتصار أشد القوى رجعية.

(٢)

من الواضح أننا قدمنا إجابة سهلة. ولكن السؤال ما زال يلح علينا. كيف حدث مثل هذا التحول داخل شعب قادت المؤسسة الدينية كل ثوراته السابقة؟ كيف تم هذا التحول داخل الشعب فاتجه إلى العلمانية وأدار ظهره للمؤسسة الدينية؟

قمة المؤسسة الدينية وأعني المملكة العربية السعودية، تملك النقود، ولكن نقودها تصل إلى الثورة الفلسطينية حتى تنهيها كثورة. خلقت من خلالها فئة بيروقراطية داخل الثورة، انتقلت إلى مستوى الكومبرادور الفلسطيني وتحالفت معه، ومزقت الثورة من الداخل. كان الهدف واضحاً من وراء ذلك. وهو ضرب أية إمكانية لسيطرة قوى جذرية على الثورة.

إن الجماعات الدينية (مصر والسودان كمثال) كانت تسير على نفس النهج: ضرب قوى اليسار من خلال وضع تعارض بين الدين واليسار، لا يمكن تجاوزه. تستثير الشعب المؤمن لتأمين سيطرة السلطة على الشعب. لهذا كانت تضع الخلاف مثلاً بين النميري واليسار باعتباره صراعاً بين الدين والالحاد؟

من الناحية الأخرى نجد أن هذا التيار لا يستطيع أن يقدم لثورة شعبية شيئاً غير المال

المفسد. فهو لا يستطيع تقديم التقنية القتالية التي تحتاجها الثورة، ولا يستطيع، على المستوى العالمي، أن يقدم مفاهيم صائبة لكسب الحلفاء والمؤيدين. كما أن الثورة الشعبية بحاجة لثقافة وفهم لقضايا الصراع، ولإبداع روحي يجعل المقاتل يستمر في القتال، ولفكر يضع نظرية لإستراتيجية الثورة. كما أنها بحاجة إلى المثال الثوري الذي تحتذيه.

فماذا بإمكان التيار الديني أن يقدم في هذا المجال؟

لا شيء على الإطلاق.

إن الثورات العلمانية هي وحدها التي قدمت الأنموذج الثوري المنتصر، والصالح للاقتداء: الصين وكوبا، وفييتنام، ولاووس، وموزمبيق الخ... وهي التي تملك الفكر والتقنية اللذين تحتاجهما الثورة، وتمتلك أيضاً الرصيد الثقافي والروحي الذي يشحن الكوادر المقاتلة بروح القتال والثورة.

الفصل الثالث

بيروت ١٩٨٢ :
واقع التجربة وأبعاد الطموح

ما قبل الحرب

كلنا قرأ في الصحف أو سمع تصريحات القادة عن حتمية وقوع الحرب. أبو إياد مثلاً قال في خطاب له في قطر، وكنت هناك، إن الحرب قد تنشب خلال أيام. كان هنالك نوع من اليقين اللفظي إن الحرب لا بد واقعة، دون أن ينعكس هذا اليقين للحظة واحدة على سلوك أي منا. وكانت المشاكل اليومية تستغرق كل واحد فينا. أذكر على سبيل المثال أنه في اليوم الأول للاجتياح الإسرائيلي، يوم الأحد، نشر لي في صحيفة «السفير» مقال أرد فيه على أدونيس. كنا مشغولين بقضايا الأدب والفن ومسائل أخرى من هذا القبيل. ولو كنت شخصياً على يقين أن الحرب واقعة بلا ريب، لحاولت على الأقل التفكير بها والعمل على اللقاء بالناس والتحدث إليهم حول قضايا الساعة. أقول رغم توقعات الكثيرين للحرب، إلا أننا لم نأخذ احتمال الحرب على محمل الجد فعلاً. في يوم الأحد إياه «السادس من حزيران ١٩٨٢)، كنت في مقهى «الإكسبرس»، جاء أحد الأصدقاء، بلال الحسن على ما أعتقد، وقال إن الاسرائيليين بدأوا اجتياحهم للأراضي اللبنانية. أيضاً تصورنا أن المسألة لن تتعدى حدود الليطاني وتكرار عملية العام ١٩٧٨.

في البحث عن دور

لم يكن في داخلي أي توقُّع أن الحرب سوف تأخذ أبعادها التي اخذتها لاحقاً. وبالتالي لم أكن أتصور أنني مطالب بالقيام بدور ما فيها. فهنالك قوات عسكرية، تنظير وتكتيك سياسي وأجهزة أمن، جميعها يتعامل مع ظاهرة الحرب. أما أنا فلم أكن أعتقد أن

للمثقف دوراً في حرب كهذه. وعندما ابتدأت الحرب وأخذت القوات الإسرائيلية تتقدم في الجنوب بسرعة، ثم واصلت التقدم إلى ما بعد الزهراني، شعرت أن هذه الحرب شاملة، وأنه يمكن أن يكون فيها دور لكل واحد منا. مطلوب منا نحن أن نبحث عن دورنا فيها. ذهبت بداية إلى وكالة الأنباء الفلسطينية «وفا» لأستطلع آخر الأخبار. على الباب التقيت أحد العاملين في الوكالة، لا أتذكر اسمه في هذه اللحظات. قال لي: «تأتون إلى هنا فقط لتسمعوا آخر الأخبار. ولا تأتون إلا ليلا لأنكم تخافون الغارات في النهار». كان ما سمعته مؤلماً حقاً. قلت لنفسي، حسناً، أين أذهب؟ في اليوم الرابع أو الخامس للحرب، «استهديت» على «إذاعة الثورة الفلسطينية»، ووجدت أن بإمكاني الإسهام في كتابة كلمات تخاطب المقاتلين والناس. وصار برنامجي اليومي يتراوح ما بين الإذاعة وصحيفة «العودة»، التي كنت أكتب فيها مقالات يومية أبث عبرها آرائي فيما يجري، على اعتبار أن الحرب الشعبية طويلة الأمد هي فرصتنا. كان هذا اعتقادي في الأسبوع الأول للحرب، إذ تصورت أن بامكاننا تحويل هذه الحرب إلى حرب شعبية تُحدث تغييراً جوهرياً ليس في لبنان والثورة الفلسطينية فحسب، بل في عموم المنطقة العربية. والحقيقة، كان هذا كله يتم في جو نصف جدي، نصف توقّع ونصف حلم. ثم فوجئنا بالإسرائيليين يجتاحون الشوف ومن ثم بعبدا. لكن قبل وصول الإسرائيليين إلى بعبدا حدث شيء لم نفهم دلالته إلا فيما بعد، كان ذلك هو أسطورة الصمود في خلدة، التي لا وجود فيها لقوات كثيفة، ولا وجود فيها لمقومات تَعدُ بالصمود. غير أن البطولة صنعت كل هذا. منطقة خلدة هذه، جنوبي بيروت، كانت نقطة تحول في تاريخ الحرب، خاصة وأن المقاتلين العاديين بدأوا يحسون بإمكانية صد الجيش الإسرائيلي، الذي يبدو وكأنه قوة لا تقهر. مع وصول تباشير خلدة إلى بيروت بدأ الناس يستفيقون، ليس معنوياً فحسب، بل إن هذه الاستفاقة أخذت مداها الفعلي في ورشة تحصين بيروت التي لم تكن قد حصّنت بعد، رغم مضي أكثر من أسبوعين على بداية الحرب.

في بداية الحرب، أمضيت وقتاً طويلاً في الإذاعة. لكن فيما بعد أصبحت أشعر بضرورة أن أفهم ما يجري عن قرب وعلى الأرض. ومع بداية شهر رمضان قمت بإعداد برنامج إذاعي يومي بعنوان «سلْ صيامك»، وكان هذا البرنامج عبارة عن تمثيلية قصيرة تتألف من زوج فلسطيني وزوجة لبنانية جنوبية، في هذه التمثيلية يتحاور الزوجان حول ما يجري في بيروت وبأسلوب فكاهي. كنت أقوم بإعداد برنامجي هذا ليلاً، وفي الصباح أتوجه إلى الضاحية الجنوبية. عشت في الضاحية بين المقاتلين وقمت بجولات في المناطق وعلى

خطوط التماس. اكتشفت هناك شيئاً وهو أن المقاتلين اكتشفوا بأنفسهم حقيقةً، يبدو أنها كانت تخصهم وحدهم، وأعني بذلك حقيقة قدرة المقاتل من القوات المشتركة على مواجهة الدبابة الإسرائيلية والمشاة الإسرائيليين. ففي حين كان الجيش الإسرائيلي يتبع باستمرار تكتيك عدم تحريك قطاعاته العسكرية إفرادياً، إذ تتحرك الدبابة، فيتحرك الطيران والبحرية والمدفعية الثقيلة، فإن تداخل مواقعه مع القوات المشتركة في بيروت أفشل كل هذه الفعاليات ولم يبق سوى الدبابة والمشاة.

بيروت الداخلية وبيروت التماس

وضعان فرضا نفسيهما على بيروت خلال القتال: مقاتل غير مقتنع بأن الإسرائيليين قادرون على التقدم، بل على العكس يمكن دحرهم وهزيمتهم. وبيروت أخرى في غير خطوط التماس ترى غير ما يراه المقاتل. بيروت الأخرى كانت، في بعض قطاعاتها، ترى أن الوضع شبه ميئوس منه وتتحدث عن «الصمود». وأما المقاتلون في خطوط التماس فكانوا يتحدثون عن النصر. تجربة المقاتلين في المواقع تبرر التفاؤل لديهم، فلقد أصبح من تقليدهم اليومي أن تتصدى حفنة من المقاتلين لجحافل الإسرائيليين وهي تحاول التقدم بكل وسائط الدمار. يتصدى المقاتلون فيهرب الإسرائيليون مخلفين وراءهم دباباتهم. والمسألة الوحيدة التي هزّت المقاتلين في أواخر أيام الحرب كانت فكرة المغادرة والرحيل التي بدأت تتسرب إليهم من بيروت الداخلية. في الوقت الذي بدأت فيه أخبار الخروج تتسرب إلى المقاتلين، حصلت انهيارات رهيبة كان من نتاجها مثلاً تقدم الإسرائيليين على حي السلّم والأوزاعي . معركة المتحف كانت هي الاستثناء. فقد تمكن الشباب من صد الهجوم الإسرائيلي المتقدم على المتحف رغم الإحساس بعدم جدوى القتال، ما دام الرحيل على الأبواب. في منطقة البربير، حيث كانت المعركة الأخيرة، أتى المقاتلون إلينا من مواقعهم يطلبون الطعام. سألت أحدهم : «ألا يوجد لديكم القليل منه في الموقع؟»، قال: «لا، كانت الوجبات تأتينا إلى المواقع ساخنة، أما الآن فلا أحد يأتي إلينا بالطعام».. يومها شعرت أن المعارك لم تعد تُؤخذ بنفس القدر من الجديّة الذي كانت عليه الأمور في السابق، وأن الإحساس المسيطر الآن هو الإحساس بالرحيل.

لم يكن موقف بعض الوجوه من «البيروتيين» هو الوحيد المقرر في نتيجة الحرب في بيروت. فالقوى الرجعية العربية وأمريكا كانت تسعى إلى عدم تكريس هذا الذي يحدث في بيروت كنموذج للمنطقة وللعالم بأسره. فما حدث في بيروت فريد من نوعه ولا يمكن مقارنته

بنموذج فيتنام. ففي فيتنام كان جيش الشمال والجنرال (جياب) والدعم السوفياتي غير المحدود والحدود الفيتنامية المفتوحة على مداها مع الصين. أما في بيروت فالحقيقة الحاصلة لا مثيل لها. المسألة هنا يتم تجريدها ببساطة كالآتي: الإنسان في مقابل الآلة وينتصر الإنسان. هذه الحقيقة كانت بالأمس مجرد فكرة نقولها في خطبنا الحماسية. وعندما أصبحت حقيقة واقعة، صار من الواضح والمؤكد أن نوعاً من التآمر الشرس لا بد حاصل، لمنع نموذج بيروت من أن يأخذ مداه. فهذا الوضع لم يعد بالنسبة للمقاتل مجرّد مفهوم أو اكتشاف، بل أصبح برنامج حياته اليومي والإعتيادي.

صور من بيروت في ظل المعارك

التفاعل الحاصل بين الأهالي والمقاتلين في مناطق التماس كان من أبرز الصور التي سكنت ذاكرتي. أهالي مناطق التماس كانوا يعرفون بكل صغيرة وكبيرة تجري في المواقع وفي عموم المنطقة. في أحد الأيام نزل جندي صهيوني من دبابته ليستلقي تحت أشعة الشمس، فبادره شاب في قاعدة للحزب الشيوعي اللبناني بطلقة أردته قتيلاً. كل الناس في المنطقة تحدثوا عن هذه الحكاية في اليوم التالي. الرسالة التي بعث بها جنود اسرائيليون لموقع مجاور من مواقع «القوات المشتركة»، وتعهدوا فيها بعدم الرمي على المقاتلين مقابل ألا يطلق المقاتلون نيرانهم باتجاه أولئك الجنود.. هذه الرسالة وصلت أخبارها إلى كل بيت وشارع. في إحدى المرات كنت على سطح بناية مع أحد قادة المدفعية من «القوات المشتركة» وكان هذا القائد يعطي زاوية ضرب ليحدد إحداثية، رأينا الدبابات الإسرائيلية وهي تتقدم من عرمون باتجاه المطار. أطلقت مدفعية «القوات المشتركة» نيرانها باتجاه الرتل المتقدم، وكنا نرقب النتيجة من خلال منظار عسكري. رأينا عبر المنظار أربع دبابات تحترق. وبعد وقت وجيز شاهدنا الجنود الإسرائيليين يسيرون ومن خلفهم سيارات «جيب» عسكرية، رُكبت عليها الرشاشات، وكانت مهمتها على ما يبدو إعادة الجنود الفارين من الدبابات إلى مواقعهم. أخبار كهذه كانت تنتشر بين الناس بشكل واسع وبسرعة. وكان الناس يدركون دلالتها أيضاً. ففي حين يهرب الإسرائيليون من دباباتهم ومواقعهم، يثبت مقاتل «القوات المشتركة» في موقعه بالتزام ذاتي وخيار طوعي.

الناس في الحرب

للقاعدة التي كنت أذهب لزيارتها باستمرار حكاية. فهي تتألف من عائلة بكاملها، الزوجة

والأولاد، الأخوة والأخوات، جميعهم في القاعدة. كان من بينهم صبي في عامه الثالث عشر، اسمه وفيق. وفيق هذا كان باستمرار يأخذ قذيفة الهاون ويكتب عليها «من وفيق إلى شارون». ثم يحمل وفيق هداياه ليرسلها عبر المدفع إلى «شارون». أصبحت حكاية وفيق مشهورة في المنطقة كلها. وهو ولد عفريت. حتى في الحفلات الغنائية التي كان المقاتلون يحيونها في مواقعهم كنا نسمع «هيصة» وأصواتاً تنادي: أسكت يا وفيق. كان من الصعب إقناع وفيق بالسكوت، فهو مقتنع تماماً أن «شارون» مهتم جداً بالقذائف التي يرسلها له يومياً عبر المدفع. وهو يعتقد أن «شارون» يأخذ القذيفة بعد وصولها ويقرأ ما كتبه عليها وفيق ويعلق قائلاً: « هذا وفيق لسه زعلان مني». والطريف في الأمر أن وفيق لم يكن يتصور للحظة ماذا يحصل بالقذيفة والكلمات التي كُتبت عليها، عندما تنفجر القذيفة.

تجربة بيروت في الحرب فتحت عيني على جانب آخر في الناس، هو ذلك الجانب البطولي المخفي في كل إنسان. وهنا أتذكر زيارة قمت بها للدامور قبل هذه الحرب حيث التقيت هناك بالعديد من أهالي مخيم تل الزعتر. وما أذهلني حقاً أن الجميع كان لديهم شوق غير عادي لأيام حصار تل الزعتر، رغم الذكريات الأليمة التي رافقت تلك الأيام. في الحقيقة أن كل ما في الإنسان من بطولة وعظمة يتكشف في لحظات كتلك التي عاشها الناس في حصار تل الزعتر وفي حصار بيروت مؤخراً. أذكر أنني كنت مرة في زيارة لعائلة من الشياح، وكان ذلك في أوج الحصار. في تلك الزيارة اكتشفت تغييراً في مقاييس المفاخرة والاعتزاز لدى الناس. أحدهم قال :«والله بنايتنا أكثر بناية صمدت في الحي. من اثنتي عشرة شقة، ثماني شقق صمدت حتى الآن». سيدة عجوز كانت موجودة هناك في تلك اللحظات احتجت غاضبة لاعتقادها بأنها لم تُحسب ضمن الصامدين وقالت: «لماذا لم تحسبوني»... وأخذت تسرد وقائع صمودها.

لاحظت أن مسألة الصمود أصبحت مقياساً يقيِّم المرء على أساسه. ابتدأت تولد لدى الناس معايير ومفاهيم جديدة. قابلت أحدهم في الشياح وكان بائع بندورة، وهو رجل خفيف الظل يتمتع بحيوية هائلة، قال لي: إسأل هؤلاء الأخوة أين أكون في الليل؟ قال الحضور إنه يسهر ليلياً في المحور حتى السادسة صباحاً، ثم يذهب للدامور ليحضر البندورة التي يبيعها للناس. يقول الرجل: «طبعاً، الناس بحاجة هذه الأيام لفيتامين سي، ولازم يأكلوا. في النهار أمدّهم بالغذاء وفي الليل أحمل السلاح وأقاتل».

في مكان ما من الضاحية الجنوبية أيضاً، قمت بزيارة لعائلة لبنانية. رب العائلة صاحب

فرن وله سبعة أولاد. لاحظت أن هذا الرجل يجاهد بكل قوته ليستمر فرنه في العطاء. يؤمن الطحين من منطقة، والمازوت من منطقة أخرى، ويقول: «هذا واجبي. أولادي والحمد لله، كل في موقعه. أحدهم في الشعبية، والثاني في الديمقراطية، والثالث في فتح أو الحزب الشيوعي أو أمل... سيان عندي لأي تنظيم ينتمون، ما دام هذا التنظيم يحمل السلاح ليقاتل الغزاة». إثنان من أولاده كانا موجودين في الجلسة. حوالي عشرين عاملاً يشتغلون معه في الفرن كانوا أيضاً موجودين. بعضهم مصري والبعض الآخر إما لبناني أو فلسطيني. يعملون صباحاً في الفرن وينامون ظهراً ويعودون إلى مواقعهم العسكرية في الليل.

لمست في تجربة بيروت بطولات تحتاج إلى تفسير لماذا هي بطولات؟ هي فعلاً بطولات رغم أنها، مع الوقت، أصبحت البرنامج الاعتيادي لحياة الناس اليومي ولم تعد شيئاً استثنائياً. لاحظت أن الناس بدأوا يناقشون وعيهم الديني، أعني فكرة العدالة، فكرة الصح والخطأ الخ... أذكر في هذا الصدد حكاية رجل مجنون رأيته في منطقة البرج. سمعت الرجل يقول: «والله لأكلمه أكثر مما كلمه موسى». سألته: من هو الذي تريد أن تكلمه؟ قال: «ربنا فوق»... أريد أن أسأله: هل قتل الأطفال حلال أم حرام؟... الخمسة الاف ليرة التي أحرقت في بيتي، هل حرقها حلال أم حرام؟». وأشار المجنون إلى أنه ذهب إلى الطبيب في مستشفى الجامعة وأن الطبيب قال له : « إنت مالك؟... ما تتعلم الصبر من أيوب». وأضاف الرجل قائلاً: «قلت له؟ يا دكتور هل أيوب اشتهر لأنه صبر»؟ قال: نعم ، قلت: «لا، أنت لا تعرف يا دكتور. أيوب اشتهر لأنه اشتكى».

أود هنا أن أشير إلى فكرة أن نعطي لأطفال خطوط التماس أوراقاً ليرسموا عليها. قمنا بتوزيع حوالي ألفي ورقة، جمعنا منها لاحقاً خمسمائة سجل عليها الأطفال تجربتهم في رسومات كانت لها دلالتها القيمة. تذكرت رسومات الأطفال البولنديين في الحرب العالمية الثانية والتي عبرت عن رعب هؤلاء الأطفال من النازيين. أطفالنا في مواقع التماس رسمواخطوطاً مرحة وحية. وتمحورت رسوماتهم حول صورة الطيار الإسرائيلي الذي يقصف ويغير، والدبابة الإسرائيلية التي تضرب، فيبادرها المقاتل-الفدائي بضربة مفاجئة، تكون القاضية. المقاتل الفدائي في رسومات الأطفال كان مقتحماً باستمرار. المسألة الأخرى التي لاحظتها هي التحول الغريب في طفولة الفلسطيني. فالشيء الذي يملأ خيال المراهق عادة هو المرأة. والفتاة أيضاً يسيطر على خيالها الشاب. رأيت من نسميهم بالأشبال يركزون كل انفعالاتهم نحو الدبابة. وهنالك أمثلة عديدة تشير إلى هذا التحول

الحاصل في مراهقة الفلسطيني. وتحضرني في هذا المجال، ملاحظة (جان جنيه) عن تجربته مع الفلسطينيين في حرب أيلول في الأردن عندما قال بأن الواعدين في هذا الشعب هم النساء والأطفال. أعتقد أن الناس في هذه الحرب اكتشفوا أنفسهم واكتشفوا طاقاتهم. ومن الممكن أن هذا الاكتشاف أعطاهم الفرصة وأعطاهم القدرة على القيام بأعمال غير عادية تبدو في الظرف العادي مبالغاً فيها.

المثقفون داخل بيروت المحاصرة

نحن، المثقفين الذين كنا في بيروت التي تحاصرها اعداد هائلة من القوات الاسرائيلية والكتائبية، تعودنا ان نفتخر بصمودنا، بتعرضنا للموت بشكل يومي دون ان يوهن ذلك من عزيمتنا... امتدحنا انفسنا، وامتدحنا الآخرون. قبلنا ذلك كحق لنا، وأضفنا اليه التباهي – بل التعالي – على كل مثقف لم يتح له ان يكون في بيروت في تلك الفترة.

ولعل بعض الحق كان معنا:ان نعيش مواجهةً، احتمالات الموت فيها أكثر من احتمالات الحياة، وأن نصر على الاستمرار في زمن عربي حافل بالهزائم والنكسات،وبخيانة المثقف في أحيان كثيرة لدوره وضميره..كان معنا بعض الحق ان نفتخر ونتقبل المدائح من الآخرين.

ولكن ما لم يقله الاخرون – بسبب الشعور بالذنب، وربما بسبب المجاملة – وما لم نقله نحن حتى نظهر في أحسن صورة ممكنة أن دورنا كان سلبياً. صمودنا كان سلبيا. إرتضينا بدور ذيلي، ولم نحاسب أنفسنا، ولا الآخرين على ما لم نقم به، وما لم يقوموا به: كنا نعلم أن الاجتياح الاسرائيلي قادم، بل قرأنا خطة الغزو التي تم تنفيذها بدقة. فماذا فعلنا كمثقفين؟

هل حاولنا ان نقول ان القوات المتواجدة في الجنوب لم تكن مهيأة لمواجهة الغزو؟ لقد قال لنا أحد القادة العسكريين انه لو كان في الجنوب مائتا قاذف آر.بي.جي. لتحول مجرى الحرب. وأنا أثق فيما قاله هذا القائد. فهل حاولنا، كمثقفين، ان نرفع صوتنا داعين إلى استعداد حقيقي لمواجهة الغزو؟

وعندما حاصر العدو بيروت كانت ـ بيروت ـ مدينة بلا استعداد قتالي، وبلا تحصينات. بعد شهر من الغزو بدأ اعداد التحصينات. لم نقل شيئاً عن هذا.

بدونا، قادة ومثقفين، وكأننا فوجئنا بالاجتياح. ياسر عرفات كان في بداية الاجتياح في

المملكة العربية السعودية. وبقي هناك اربعة ايام يطمئن من حوله ان القوات الاسرائيلية - رغم خطة الغزو المعلنة - سوف تصل إلى الزهراني فقط، ثم تتراجع بعد ان تؤمن حدودها الشمالية.

لماذا صمتنا؟

وفي داخل الحصار. اكتشفنا عجز القوات الاسرائيلية عن مواجهة حرب شعبية حقيقية، كان خيار استمرار هذه الحرب وايقاع هزيمة بالقوات الغازية قائما. وكان هم القيادة ان تتصل وتوالي الاتصال بالملك خالد.ثم فهد، لينقذ بيروت المحاصرة. لم نرجح الاحتمال الثوري، بل ذهبنا إلى المقاتلين نقنعهم بايقاف القتال والانسحاب بالسفن التي تقف منتظرة لنقلهم إلى ابعد الاماكن عن حدود وطنهم.

أعلم ان هناك جوابا جاهزا على كل تساؤلاتي: اننا مثقفون ولسنا عسكريين حتى نفتي في المسائل العسكرية. هناك اخطاء دون شك، ولكنها كانت اخطاء العسكريين وليست اخطاءنا.

ولكن المثقف الذي ينتمي إلى ثورة تمارس الكفاح المسلح، عليه - كمثقف - ان يجيد استعمال السلاح ويتقن الفن العسكري. في عام ١٩٥٦ عندما جرى العدوان الثلاثي على مصر، تم نقلنا إلى قواعد قرب قناة السويس، وتدربنا في فترة القتال ذاتها. وفي لبنان - قبل الاجتياح - طالبنا بالتدريب، فقيل لنا انهم يبحثون عن مدربين مهذبين يستطيعون ان يدربوا الأدباء، دون ان يجرحوا مشاعرهم الرقيقة. ثم نسيت او تنوسيت هذه المسألة.

الثورة تفترض فيمن ينضم اليها التنوع في الوظائف، في العمل على جبهات متعددة. وبالنسبة للمثقف عليه دائما ان يقوم بدوره كقائد، لا ان يكون مجرد رجل اعلام سلبي. كنا نمارس ثقافة مجتمع مستقر، ولم نلتفت لدورنا في توجيه الثورة.

لم نكن مثقفين عضويين في الثورة. كنا مجرد جوقة مسكينة لها مطالب نقابية.

مجلة «الطريق» العدد (٢) حزيران ١٩٨٣

القسم الثاني

المشروع الثقافي الفلسطيني

الفصل الرابع

أزمة المشروع الفلسطيني

حول مفهوم البورجوازية الوطنية

بين الموتى لا يوجد خلاف ولا حوار لسبب بسيط: لأنهم موتى.

والذين يرفضون الحوار المفتوح - الحوار الديمقراطي - هم موتى لم يدفنوا بعد. وأنا هنا لا أتحدث بأسلوب الإستعارة والمجاز، بل أتحدث عن ظاهرة نفسية - عصبية يطلق عليها علماء النفس إسم :النيكروفيليا، أو عشق الموتى. وهي في مظهرها النفسي العصبي الحاد تتمثل في الرغبة التي لا تقاوم لإقامة علاقات جسدية مع الموتى، وفي منحاها العام، تعبر عن نفسها في مجموعات سلوكية، تهدف إلى تحويل المادة الحية، المادة العضوية، إلى مادة غير حيّة، إلى جماد.

كان لينين أول من استعمل المصطلح للدلالة على ظاهرة إجتماعية، تجعل من الإنسان شيئاً. ومَنْ يلغي الحوار، ولا يطيق الإختلاف، يعمل ضمن هذه الآلية: آلية تحويل البشر الأحياء إلى أشياء لا حياة فيها. والرفيق نايف حواتمة محاور متمرس، وداع إلى إقامة الحوار الديمقراطي، ومن هذا المنطلق أحاوره.

موضوع الحوار هو محاضرته في (إتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين) ضمن ندوة مغلقة، أقامها الاتحاد تحت عنوان (أزمة الثورة الفلسطينية: الجذور والحلول) يساهم فيها قادة الثورة الفلسطينية.

والمسائل التي سوف يدور حولها الحوار هي: مفهوم البورجوازية الوطنية الفلسطينية كما طرحه المحاضر ، اليسار والعنف، مفهوم المحاضر للوحدة الوطنية، وأفكاره حول معنى الخيانة الوطنية.

وهناك مسألة أخرى، ليست في صلب الموضوع، ولكنها هامة، وهي ما تحدث به المحاضر عن ركود الفكر الفلسفي المشرقي على مدى التاريخ العربي، وحيوية الفكر المغربي، خاصة عند ابن رشد وابن خلدون، لأنني أرى رأياً مخالفاً لما قاله المحاضر.

نناقش، في البداية، تعريف المحاضر للمصطلح: البورجوازية الوطنية. واستفاضتي في مناقشة مفهوم المحاضر لهذا المصطلح مبررة، بسبب أن المحاضر جعل من تعريفه هذا نقطة انطلاق لبناء نظرية متكاملة.

قال المحاضر أن البورجوازية الوطنية الفلسطينية لا يصح تسميتها باليمين الفلسطيني، وأنها سميت بالوطنية لأن لها موقفاً وطنياً وأكد ذلك أكثر من مرة.

أبرز من استعمل هذا المصطلح بهذا المعنى هو ميثاق العمل الوطني المصري، الذي كرس صيغة تحالف قوى الشعب العامل المعروفة. ومصدر هذا التعريف – كما نعرف ضمناً – هو لينين.

ما هي حقيقة تعريف لينين ؟

لا أود أن أملأ هذا المقال بالاقتباسات، ولكن المعنى اللغوي لهذا المصطلح، بناء على النص الإنجليزي، هو البورجوازية المحلية تمييزاً لها عن بورجوازية رأس المال المالي والبورجوازية المرتبطة بالخارج.

هذه مسألة، والمسألة الأخرى أن سياق حديث لينين عن الطبقات لا يوحي بالمعنى الذي أشار إليه المحاضر والميثاق المصري. فهو يستعمل صفات وضعية في تحديد وتعريف الطبقات، وليس من المعقول أن ينتقل من لغة كهذه إلى الغزل بطبقة لم يكن يحمل لها أي قدر من العشق. إنه من المستغرب بالفعل أن يقصر لينين صفة حب الوطن على طبقة واحدة، هي البورجوازية المحلية. إن ذلك يشبه أن نجد في جواز السفر، بدلاً من تحديد الطول، ولون الشعر والعينين، والعلامات الفارقة، عبارة تقول: إنسان جميل ورائع.

نخلص من هذا إلى أن استعمال المحاضر للمصطلح يقتبس من مصدر ناصري، وليس من مصدر لينيني.

إن هذا الافتراق مهم للغاية؛ لأن مفهوم الوحدة الوطنية، كما طرحه المحاضر، يحمل جذوراً ناصرية، كما سوف نبين في مقبل الحديث.

نأتي الآن إلى مدلول المصطلح في الواقع الفلسطيني. الرفيق المحاضر تحدث عن قيادة

منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها ممثلة ـ بشكل كامل ـ للبورجوازية الفلسطينية الوطنية. وأن الطلاق مع هذه القيادة هو إلغاء لتواجد البورجوازية الفلسطينية داخل الثورة الفلسطينية، وضربة قاصمة لمفهوم الوحدة الوطنية.

إن هذا يفترض وجود بورجوازية فلسطينية منسجمة، أولاً. ويعني هذا أيضاً، أن هذه البورجوازية قد اختارت ممثليها السياسيين مرة واحدة، وإلى الأبد. إن هذا يعني أنه يكفي أن تختفي بعض القيادات الفلسطينية عن موضع القيادة حتى تحول البورجوازية (الوطنية) بنادقها عن صدور الأعداء، وتوجهها إلى صدور أبناء الثورة.

علينا أن نتساءل، في البداية، هل توجد بورجوازية فلسطينية بالمعنى الكلاسيكي، أو بمعنى البورجوازية المحلية في دول العالم الثالث؟ هل نتوقع أن يخرج من بين صفوفها روبسبير آخر؟ أو صن يات صن آخر ؟.

إذا تأملنا عناصر البرجوازية التي تمارس التأثير والفعل الأكبر في داخل منظمة التحرير الفلسطينية، نجد أنها تنتمي إلى شرائح يصعب إطلاق صفة البورجوازية المحلية (الوطنية) عليها. هنالك وكلاء شركات أمريكية في دول الخليج والسعودية. وهناك عناصر من أصل فلسطيني اندمجت في أنظمة أخرى وأصبح ولاؤها لتلك الأنظمة. إن الأمريكيين الذين هم من أصل فلسطيني، ويعملون في مؤسسات أمريكية، ينطلقون في نشاطهم الفلسطيني من وجهة نظر ومصلحة المؤسسات التي انصهروا في داخلها.

بالنسبة للبورجوازية الفلسطينية الموجودة في الأردن، يصعب أن نطلق عليها اسم البورجوازية المحلية. فهي تتوزع، في نشاطاتها الاقتصادية، بين الأنشطة الكمبرادورية (وكالة الشركات الأجنبية) والأنشطة العقدّية ـ أنشطة المقاولات ـ وهي كلها مندمجة، بصورة أو بأخرى، داخل الهيكل السياسي والاقتصادي الأردني. إنها ليست بورجوازية تسعى إلى توحيد السوق القومي. ولا يوجد مظهر واحد من مظاهر الصراع على السوق بينها وبين الاستعمار الجديد. وبكلمة أخرى إنها ليست بورجوازية صناعية، تتناقض مصالحها مع مصالح الفئات الطفيلية، أو مع رأس المال الغربي. ولا نعلم أنها طالبت بالحماية الجمركية لمنتجاتها، أو أنها قاومت إغراق السوق المحلي بالسلع الأجنبية. إن التركيب الطبقي في المجتمع الأردني لا يسمح بوجود هذه الطبقة.وهذه الطبقة تتمايز من خلال نوعية نشاطها الاقتصادي، ومن خلال صراعاتها أو تحالفاتها داخل المجتمع. إنها بورجوازية تقف على قمة مجتمع استهلاكي غير منتج.

في المناطق ذات الكثافة العربية داخل الأرض المحتلة فقط، يمكننا أن نتحدث عن بورجوازية مهددة بالسجن من قبل استعمار استيطاني، خاصة وأنه يسد الطريق أمام نموها وتحولها إلى بورجوازية طفيلية. ومثل هذه البورجوازية تتردد في اختياراتها بين ثلاثة مواقف: الموقف الوطني المعادي للاحتلال، وخلال هذا الموقف تعمل لتنفي دور الطبقات الشعبية، موقف مرتبط بالرجعية العربية، وبالتالي بمشروعات التسوية الامبريالية ، وموقف متحالف مع السلطة الصهيونية. وهذه المواقف كلها، ولأسباب متعددة، لا تؤهلها لقيادة الثورة الفلسطينية.

نخرج من هذا بنتيجتين:

الأولى : أن إطلاق صفة البورجوازية الوطنية على بعض فئات الشعب الفلسطيني هو تسمية غير دقيقة ويترتب على هذا وجوب إعادة النظر في دورها داخل نطاق الثورة الفلسطينية.

الثانية : أن هذه البورجوازية لا تشكل كياناً متماسكاً، منسجماً، قادراً على إفراز رموزه السياسية. يضاف إلى هذا أن الحديث عن كيان سياسي متماسك هو حديث عن غائب. ناهيك عن الحديث عن ممثلين دائمين لها في إطار الثورة.

البورجوازية .. أين تقف..؟

كم كان بودي لو أنه قبل أن يرتفع شعار «الحوار الديمقراطي بدلاً من الاقتتال» أن يرتفع قبل ذلك، وفوق ذلك، شعار : الحوار المبدئي والجاد بين الفصائل الماركسية، وأن يتم ذلك بعد الخروج من بيروت مباشرة، فقد كان من المتوقع -وقد حدث بالفعل - طرح حلول سياسية جديدة، واتخاذ خطوات تنظيمية ذات طابع هيكلي عميق، تترتب عليها نتائج بعيدة المدى... وكان هذا وغيره من المسائل يحتاج من الفصائل الماركسية وضع تحليل نظري، تصاغ على أساسه المواقف السياسية والتنظيمية والتحالفات.

لم يكن ذلك ضرورياً لمجرد أنه طقس لا بد من تأديته، أو لأن العادة جرت هكذا، بل لأن هذه الفصائل وجدت نفسها أمام معضلات كان لا بد لها أن تحدد موقفاً من كل معضلة منها، إنطلاقاً من فكرها الفلسفي والسياسي... ولكن تطور الصراع داخل حركة فتح فاجأها فاتخذت ـ أو معظمها على الأقل ـ مواقف يصعب علينا أن نصفها بالانسجام.

هنا وقعت المشكلة الحقيقية، حين أصبح التحليل النظري وسيلة للتبرير، تبرير المواقف

غير المنسجمة. لقد سادت بين هذه الفصائل نبرة ميلودرامية، ذات طابع وعظي وأخلاقي، وتم إلحاق التحليل النظري بها .هذا التحليل الذي امتلأ هو الآخر بنتف ميلودرامية، بدلاً من الوصول بالتحليل المنهجي إلى غاياته، نجده يتوقف عند هذه الشكوى: « الاقتتال بين الأخوة». وبدلاً من الخروج بالنتائج المطلوبة من صراع سياسي نجد شعار: المحافظة على وحدة منظمة التحرير... وكأننا نشهد خلافاً عائلياً . ودورنا هو مجرد دور من يلم الشمل. ومثل هذا المنطق في العمل السياسي هو منطق من يرش على الموت سكراً.

الأسلوب والمنهج اللذان نطرح بهما ظاهرة ما، يصبحان بعد حين جزءاً من الظاهرة، وقد ينشئان هذه الظاهرة. والظاهرة التي طرحها الرفيق نايف حواتمة في محاضرته، في ندوة (إتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين)، هي قيادة فتح التي فجرت الثورة، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من هذه الإنجازات. من هذا انطلق المحاضر في تبرير وجودها، وفي تمثيلها للبورجوازية الوطنية، وفي ضرورة التحالف معها، واستمرار قيادتها للثورة.

ولقد كان عرض الرفيق مدعماً بخلفية نظرية كثيفة من الإستشهادات والأمثلة. وليس هذا مجال خلافنا. مجال الاختلاف، وبالتالي الحوار، هو دقة التوصيف للوقائع على الأرض.

بدون شك أن قيادة حركة فتح هي التي أطلقت الرصاصة الأولى. ولكن هل كانت تنطلق في ذلك باعتبارها ممثلة للبورجوازية الوطنية؟

من المعلوم أن إشعال ثورة، ووضعها في حالة مواجهة مفتوحة مع إسرائيل، كان يحتاج إلى تسليح وتكلفة عالية. فمليارات الدولارات التي أنفقتها الثورة، وعشرات المليارات التي تضعها في البنوك، لم يكن مصدرها البورجوازية الفلسطينية، بل كان مصدرها البترودولار، وخاصة المال السعودي.

هل دفعت السعودية هذه الأموال للثورة حباً بها، وتأييداً لأهدافها؟ إن حدوث مثل هذا مستحيل. فلا يوجد دولة واحدة في العالم تدفع بمثل هذا السخاء، إنطلاقاً من الإلتزام بالمثل العليا. فالمال المدفوع لا بد أن يخدم مصالح الدولة التي تدفع، على نحو من الأنحاء.

وأثر البترودولار في السياسة العربية، وفي التكوين الإجتماعي العربي يحتاج - على الأقل - إلى نظرة سريعة، تنطبق على المنطقة العربية بشكل عام، ويمكن تطبيق بعض نتائجها على الثورة الفلسطينية.

لنحاول أن نتذكر جيداً: هل ساهم البترودولار في إقامة صناعة عربية؟ نحن نعلم أن مصر قد نفذت مشروعات صناعية هامة، ولكن الذي نفذها هو المال والخبراء السوفييت بشكل

أساسي، أما الأموال النفطية العربية فقد اتخذت مساراً آخر، دعمت وجود طبقة طفيلية، استلمت السلطة في مصر، وأوقفت خطة التنمية.

في عام ١٩٦٦ كانت مصر على مفترق الطرق: هل تنفذ خطة التنمية الثانية أم لا؟ وهل تتحول الأراضي التي تم استصلاحها بواسطة السد العالي إلى مزارع دولة أم يتم تقسيمها وتفتيتها؟

ارتفع في مصر تلك الفترة وساد شعار «المشي على القدمين» الذي رافق مجيء زكريا محيي الدين إلى رئاسة الوزراء، ومعنى الشعار أن مصر قد ذهبت بعيداً في الاعتماد على الصناعة وعلى القطاع العام، وعلى الإجراءات (الاشتراكية)، وأنه لا بد من إعطاء البورجوازية الوطنية دورها، ضمن التوجه الإشتراكي، وهكذا توقف تنفيذ خطة التنمية الثانية، وجرى تفتيت الأراضي المستصلحة، كما حاولت الحكومة تكثيف الاستيراد من الغرب، خاصة البضائع الإستهلاكية، تحت إسم المناطق المفتوحة. ولعبت البورجوازية (الوطنية) دورها كاملاً،(وضمن التوجه الإشتراكي) فجاءت بالسادات والانفتاح وكامب ديفيد.

ومَنْ يدرس الإتفاقيات الاقتصادية التي تم إبرامها وتنفيذها في فترة السادات يجد أنها تهدف إلى إلغاء إمكانية قيام بورجوازية وطنية حقيقية واستبدالها ببورجوازية طُفيلية.

حدث هذا داخل البورجوازية الفلسطينية. إن تركيبها العضوي الضعيف، وتهديد أرباحها بواسطة الإحتلال الإسرائيلي المباشر، جعل بنيتها تتحول وترتبط بطوفان الأموال النفطية.

لم يحدث هذا في بنية البورجوازية الفلسطينية وحسب، بل حدث في منظمة التحرير ذاتها التي نشأت فيها طبقة ترتبط عضوياً بمصادر التمويل النفطية.

ولا أعتقد أننا بحاجة إلى البحث عن الإرتباط بين ممثلي هذه الطبقة وبين المشاريع الأمريكية. ولهذا حين يقال: هل خان اليمين الفلسطيني؟ فإننا بالفعل نرش على الموت سكراً. فما الذي أقام مصطلحاً أخلاقياً وملتبساً ليحل محل حقيقة موضوعية، أعني، إرتباط الطبقات الطُفيلية بالرأسمال النفطي - السعودي بشكل أساسي ، بالمشاريع الأمريكية؟ الخيانة فعل ذاتي ولا يصح أن يوصف بها مسار طبقة. فإذا قيل: إنها خانت فسوف نسأل: خانت مَنْ؟ هل خانت مصالحها؟ بالطبع لا. هل خانت الشعب؟ إن مجرد وجود هذه الطبقة هو خيانة لمصالح الجماهير الشعبية بمعنى من المعاني.

أين تبدأ الخيانة في هذه الحالة؟ هل أصبح السادات خائناً حين وقع إتفاقيات كامب ديفيد أم قبل ذلك؟

إن وضع معيار ملتبس كهذا ، والإنطلاق منه لتحديد المواقف يشي بعدم الجدية.

ولكن هل يعني هذا طرد هذه الطبقة من ساحة الثورة؟

مرة أخرى نقول، إن المسألة ليست ذاتية.أعني ليست قراراً ذاتياً.إن المطروح في الظرف الحالي هو البديل الثوري.والمطلوب الإمساك به حين يتوفر.إن البورجوازية الفلسطينية قد كشفت أوراقها حين دعت في ـ ندوة تونس الإستراتيجية ـ إلى الاستعاضة عن منظمة التحرير بدولة المنفى، وهو أمر كان يعني الاستعاضة عن الكفاح المسلح بمؤسسة مقبولة أمريكياً.وحين نقول إنه يمكن إيقاف مساعي هذه البورجوازية عند حدها بواسطة العمل الدؤوب على فضحها، فإننا لا نفعل شيئاً سوى تأجيل قيام البديل الثوري إلى أمد غير منظور.

البديل الثوري

كنت أود أن أطرح موضوع البديل الثوري من خلال سياق حواري مع الرفيق نايف حواتمة. ولكنني حتى الآن، وبعد ما يزيد عن شهر على إلقاء تلك المداخلة، لم أستطع الحصول على النص الكامل لها، ونظراً لأهمية الموضوعات المطروحة يصبح من المجازفة مناقشة موضوعات بهذه الدقة، بدون الاستعانة بالنص الأصلي والكامل. ولذا، ومع كل أسف، سأطرح هذا الموضوع على شكل مقالة، باعتباره يمثل وجهة نظر أخرى، لا تتوافق مع طرح الرفيق نايف.

المشروع الثقافي

لكل ثورة كبرى ـ وكبرى هنا تعني جذرية ـ مشروعها الثقافي ـ الحضاري. وهذا المشروع يتضمن الأفكار والقيم المعلنة أو تلك التي تتضمنها الممارسات والتجارب التي خاضتها تلك الثورة.وهو ما يمكن أن نطلق عليه، مع كثير من التجاوز، مصطلح الفلسفة. وهذا يعني أن هذا المشروع يحمل، في عمقه، معطيات هذه الثورة كمشروع عالمي، كفعل تجاوز.

وما دام موضوعنا هو البديل الثوري، نقول إن المشروع الثقافي هو مبرر وجود (Raison d'etre) الثورة كبديل ثوري. وعبر الثورات الكبرى نستطيع أن نحدد ملامح

عامة، أو قواسم مشتركة، لهذا المشروع:

أولاً : أن هذا المشروع موجه إلى العالم كله، فلا يستطيع الفكر الفلسفي إلا أن يكون عالمياً. ولا يعني ذلك ارتباط أحداث العالم في سياق واحد، بل يعني أن طبيعة الفكر الفلسفي، والقضايا التي يطرحها، ذات طابع كوني، فنظرية المعرفة ومقولة الجدل والتناقض وطرح مشكلة الإنسان في العالم وغيرها لا يمكن أن تقتصر على بلد واحد.

ثانياً: أن جدية هذا المشروع تقاس بمدى طرحه لمشكلات إنسانية كمشاكل تخص كل الناس، وهو يقاس بمدى استجابة الناس له. بمعنى آخر إن هذا المشروع هو مشروع عملي، يراد تطبيقه، ومن الممكن تطبيقه.

ثالثاً: بعد فترة صعوده وتألقه، يحتاج المشروع الثقافي ـ الحضاري إلى مراجعة، وذلك يعود إلى أكثر من سبب: إن تغيُّر الظروف، ونشوء أوضاع جديدة يطرحان عدداً من الأسئلة لا يستطيع المشروع الأصلي أن يجيب عليها. إن هذه المراجعة لا تكون موحدة، بل تنقسم وتتعارض بقدر تعارض المصالح الإجتماعية والإقتصادية.

رابعاً: وسط هذه التعارضات نستطيع أن نميز اتجاهين : إتجاه قدري لاهوتي ، واتجاه ديناميكي. في الحضارة العربية نجد الفكر الجبري الذي يرى أن كل ما يتم إنما يتم بإرادة الله، ويحجب عن الإنسان قدرته على الإختيار الحر، ويضع قدسية النص مقابل العقل. في حين نجد ابن المقفع يجعل من الإنسان مشرعاً لذاته. وبالنسبة للماركسية نجد الاتجاهات التي تلقي كل شيء على حركة التاريخ والظروف الموضوعية، ونجد لينين الذي يجعل من العنصر الذاتي –الحزب– عنصراً حاسماً(في كتابه : ما العمل؟).

خامساً : المشروع الثقافي ـ الحضاري يطرح، بشكل أساسي، فكرة كونه بديلاً جذرياً عما هو قائم. ففي حين يكرس (برنشتاين) فكرة الحركة كهدف بذاته، كان لينين لا يرى للحركة الثورية مسعى أهم ولا هدفاً أكثر إلحاحاً من قضية السلطة.

هذه بعض ملامح المشروع الثقافي الحضاري، ولا أدعي أنهاتشمل الموضوع، ولكنها ملامح أساسية. وتذكّرها الآن يساعد على بلورة الكثير من المفاهيم، ومراجعة الكثير من المواقف.ولعل أهم ما ينبغي علينا مراجعته هو أثر الفكر المضاد والمعترض على أطروحة

البديل الثوري على الإنسان ذاته. فعندما يعجز تفسير ما أن يقنع أنصاره أنهم يملكون إمكانية التغيير الثوري، وأن دورهم هو مجرد دور إصلاحي كما هو قائم، فإننا بذلك نلغي العنصر الذاتي ونجعل الفعل معتمداً على حسن نية حركة التاريخ. وبكلمة أخرى، فإننا نلغي لينين.

هنالك فارق بين أن نقول للإنسان: أنت قادر على التغيير عبر الوعي، وأن نقول له إنه مجرد ترس في آلة قد تحدث بعض التغييرات الطفيفة في الهيكل الإجتماعي. النمط الأول ينتسب إلى الإنسان الكلي، المتجاوز للاغتراب والتذرير. والثاني ينتسب إلى الإنسان المحدد بوجوده الوظيفي، أي بأن تصبح المرأة مجرد وظيفة لزوجها وأولادها، والرجل مجرد ترس في آلة بيروقراطية، ووظيفة لزوجته وأطفاله. هذا، بالطبع، يلغي مفهوم الإنسان كتجاوز.

إمكانيات المشروع الثقافي

لكل ثورة كبرى مشروعها الثقافي، ابتداء من الثورة الإسلامية وحتى الأمريكية والفرنسية، وثورة أكتوبر وكوبا الخ... وسنحاول هنا، وبإيجاز شديد، أن نعرض لمشروع الثورة البلشفية، في مرحلتها اللينينية، لنبرهن أن المشروع الثقافي -الحضاري يستطيع أن يكون أكثر فعالية وأثراً، حتى في المجال العسكري، من القوات المسلحة.

عندما قامت ثورة أكتوبر الإشتراكية، كانت روسيا بلداً مدمراً إقتصادياً وعمرانياً بسبب سلطة غير كفؤة، وأربع سنين من الحرب الطاحنة. كما أن الإطاحة بحكومة البورجوازية أبعدت عن الثورة حلفاء لهم وزنهم، نذكر منهم ، على سبيل المثال، حزب الإشتراكيين الثوريين، الذي حصل على ٧٦٪ من الأصوات في أول مجلس تأسيسي بعد ثورة أكتوبر.

وغزت الاتحاد السوفييتي سبعة عشر جيشاً أجنبياً، متحالفةً مع عشرات الجيوش الداخلية المعادية. أما الجيش الأحمر فقد كان يعتمد على متطوعين لا خبرة لهم بالحرب، واضطر أن يعتمد على ضباط معادين لتدريب وقيادة الجيش. وقد حاولت السلطة السوفياتية أن تحد من أثرهم الضار بتعيين مستشارين سياسيين يعاونونهم ويراقبونهم.

نستطيع القول إنه من بين أكثر من ثلاثين جيشاً تحاربت داخل روسيا، كان الجيش الأحمر واحداً من أضعفها.

بالنسبة للوضع الاقتصادي،فقد كانت روسيا تعيش مجاعة حقيقية، كما كانت عاجزة عن

وضع أية خطة حقيقية للتنمية، إذ لم يكن ذلك بإمكانها ومعظم أراضيها واقعة تحت الإحتلال.

الوضع، فيما بدا، ميئوس منه تماماً. ولكن ماذا حدث بالفعل؟

لقد انتصر الجيش الأحمر على جميع هذه الجيوش مجتمعة. وفي ألمانيا قامت ثورة شيوعية، وكذلك في المجر، وفي أمريكا كان هنالك تهديد جدي بإستيلاء الطبقة العاملة على السلطة، وفي الصين تكونت بدايات لثورة شيوعية اكتسحت الصين كلها فيما بعد.

كيف حدث هذا؟ ولماذ انقلبت الموازين بهذه الصورة غير المتوقعة؟

نستطيع القول - وبدون أية مبالغة - إن ذلك يعود بشكل أساسي إلى القوة الهائلة التي انبعثت من النموذج الإشتراكي، من البديل الثوري. يكفي أن نعلم أن الجيشين الفرنسي والبريطاني عجزا عن القيام بأي عمل ضد السلطة السوفياتية، لأنهما انقسما بين مؤيد ومعادٍ لها، ووقف الجيش الأمريكي على الحياد، وانسحب الجيش الألماني.. وهكذا.

وفي داخل أوروبا تكونت حركة احتجاج هائلة ضد الغزو، وتأييداً لدولة العمال والفلاحين.

أين كانت تكمن قوة النموذج اللينيني؟

لكونه، بالطبع وبشكل أساسي، قد وضع أمام العالم كله الأسس النظرية والعملية لحكم دولة الكادحين. ها هي الدولة قد قامت. ولكن ذلك لم يكن كل شيء. فرغم البؤس الاقتصادي والدمار الهائل الذي عم البلاد ،فلقد أذهلت إنجازاتها، خاصة في الميدان الثقافي، العالم. ففي هذه الفترة القصيرة المليئة بالمصاعب والمحن تم إبداع أهم منجزات القرن العشرين في السينما والموسيقى والمسرح والباليه، كما أصبح الاتحاد السوفييتي مختبراً للتجارب الجديدة في السينما والباليه والفن التشكيلي. لقد أخذ أعظم كتاب ذلك العصر يحجون إلى الإتحاد السوفياتي ليشاركوا عمال سيبريا في فتح الطرقات وحفر المناجم. ولا يتسع المجال، هنا، لشرح كل الأمثلة البارزة التي جعلت من دولة لينين ذلك النموذج الثقافي - الحضاري القادر على التأثير بشكل أكثر فعالية من الجيوش الجرارة.

المشروع الثقافي الفلسطيني

هل نستطيع الحديث عن مشروع ثقافي –حضاري فلسطيني؟ وعندما أقول (فلسطيني) فأنا أعني، بالطبع، الثورة الفلسطينية.

لكل مجموعة من الناس، بينها من الروابط ما بين المشاركين في الثورة الفلسطينية، مشروعها الثقافي و (برنامجها السياسي)، إذن، فالسؤال لا مكان له.إن علينا أن نطرح سؤالاً آخر: هل يحمل المشروع الثقافي الفلسطيني قسمات مشروع ثورة كبرى؟ لا أعتقد ذلك.

ينطلق المشروع الثقافي الفلسطيني من مرتكزات: استعادة الأرض الفلسطينية ـ كلها أو بعضها ـ وما هو معروف عن حق تقرير المصير، وإقامة الدولة المستقلة الخ... وبعث ثم تأكيد الهوية الفلسطينية، من حيث تأكيد تمايزها عن محيطها العربي حتى لا تذوب فيه.

ويكتسب هذا المشروع قسماته من سعي قيادة الثورة الفلسطينية للاستفادة من كل الظروف لتحقيق أهدافها. وهذا السعي يحتاج إلى وقفة، إذ به يتحدد أبرز ملمح من ملامح المشروع الثقافي لقيادة الثورة الفلسطينية ـ أعني به الذرائعية.

والذرائعية، كما هو معروف، مذهب فلسفي أسسه (جون ديوي). وهو يرى أن الحقيقة هي ما يحقق الكسب أو النجاح في موقع ما، أو بكلام أوضح إن كل ما هو مفيد صحيح، بل الحقيقة الوحيدة. وبهذا تصبح الذرائعية إحدى اشتقاقات البراغماتية.

وحتى يتضح مدلول هذه الفلسفة فسوف نقارنها بالماركسية. فالماركسية ترى أن الحقيقة واقعة موضوعية. وبهذا تتحدد، لا بما تحققه من نفع مباشر. كما ترى الماركسية أن النجاح الذاتي ليس معياراً للحكم على الحقيقة، فكثيراً ما تتعارض الحقيقة مع السعي للمنفعة الذاتية، وأن السلوك الصحيح يتحدد بالأهداف التي تنبع من دراسة علمية للواقع وتغيير ثوري له.

من هنا نستطيع أن نلمس التعارض الجذري بين الفكرين الذرائعي والثوري. الفكر الثوري يدرس الواقع ويحدد الأهداف إنطلاقاً من هذه الدراسة ويعمل على تطبيقها في الواقع، أما الفكر الذرائعي فيبحث عن تحقق المنافع السريعة.

من هذا التعارض بين الفكر الماركسي والمذهب الذرائعي، نستطيع أن نصل إلى جذر أزمة الثورة الفلسطينية. كما نستطيع أن نضع الخطوط العريضة للمشروع الثقافي ـ الحضاري الفلسطيني، كمشروع ثورة كبرى.

ولكن علينا في البداية أن نتساءل: لماذا ساد الفكر الذرائعي المشروع الثقافي للثورة الفلسطينية ؟؟

إن علينا أن نبحث، أولاً: عن الأصول الطبقية لقادتها، وعن نوعية الفكر الذي كانوا يتبنونه. وعلينا، بعد ذلك، أن نتعرف على مفهومهم للقضية الفلسطينية، ثم الظروف والتحالفات التي عدلت رؤيتهم وصاغتها حتى وصلت بها إلى المرحلة الحالية.

لا أملك المجال ولا المعرفة الوافية للإجابة على هذه الأسئلة بشكل مرضٍ، ولكنني أستطيع القول: أن غالبية القادة كانوا من أوساط البورجوازية الصغيرة، وأنهم كانوا يحملون إيديولوجية أو إيديولوجيات هذه الطبقة. ولا تختلف هذه الإيديولوجية عن مثيلتها في الأنظمة العربية من حيث اعتمادها على الأفكار الكنسية الغربية، التي كانت سائدة في أواخر القرن التاسع عشر، أعني: تحديد الهوية القومية عبر تمايز عدواني مع القوميات الأخرى، إتخاذ موقف ذرائعي في السياسة كالتحالف مع إنجلترا ضد تركيا، أو مع تركيا ضد إنجلترا، واعتبار الحاضر بعثاً للماضي الذي لم يتم تحديده أبداً، وغير ذلك مما هو معروف.

ولكن علينا أن نلحظ تمايزاً في فهم هذه القيادة حين اعتبرت القضية الفلسطينية شأناً فلسطينياً بشكل فعلي وأنها أعلنت ثورة الشعب الفلسطيني المسلحة ضد الإحتلال .ولا شك أن هذا الظرف قد فرض تعديلات كثيرة على منهجها ورؤيتها.

هذا عن المنشأ، أما ما حدث بعد ذلك فقد انخرطت الثورة الفلسطينية في صراعات متعددة داخل الأنظمة العربية ومعها، خاصة الأردن، مصر، لبنان، سوريا، العراق إلخ .. وهكذا وجدت هذه القيادة نفسها في سياق الوضع العربي، وخلال ذلك نلاحظ بعض الإتجاهات التي برزت بوضوح: إن قيادة الثورة لم تحاول الالتحام بالحركات الوطنية والثورية داخل البلدان التي تواجدت فيها بكثافة. أعني الأردن وسوريا ولبنان، لقد أكدت الهوية الفلسطينية عبر إحساس عدائي، أو شبه عدائي، نحو شعوب هذه البلدان.

هنا، نلاحظ :

- محاولات هذه القيادة أن تستقطب الإتجاهات الدينية المتعصبة أو أن تخلقها كبديل للأحزاب الثورية والعلمانية.
- أن تهديدها للأنظمة العربية أصبح تهديداً من الجانب اليميني.
- أن أقوى تحالفات هذه القيادة وأكثرها ثباتاً ودواماً كان مع المملكة العربية السعودية.
- أنها أقامت علاقات مع دول العالم الإشتراكية والرأسمالية بأقصى توسع ممكن.

كيف نفسر نشوء هذه الإتجاهات؟

إن علينا أن نعود إلى الفكر الذرائعي ومسيرته التي انتهت بالقيادة الفلسطينية إلى أن تنتسب إلى قمة الرجعية العربية، وإلى أكثر المشاريع الاستعمارية تطرفاً في حل المشكلة الفلسطينية. إن الفكر الذرائعي وجد مناخاً يتوالد فيه ويتوسع حتى كاد أن يصبح ملمحاً فلسطينياً.

في البداية انساقت قيادة الثورة إلى أكثر الأساليب سهولة للحصول على المال الذي هي في أشد الحاجة إليه، انساقت إلى المال السعودي والخليجي، وإلى الطبقة الكومبرادورية الفلسطينية. لقد جعلها فكرها الذرائعي لا ترى النتائج المترتبة على هذا الإنسياق، وقد أدى هذا إلى عدد من النتائج، التي يبدو أنه لم يكن منها بد:

الأولى : أن العلاقة بمصادر التمويل تحولت إلى علاقة عضوية، أو شبه عضوية.

الثانية : لقد أغدقت بعض الدول العربية ـ النفطية بشكل عام والسعودية بشكل خاص ـ أكثر مما تحتاجه الثورة من أموال. يؤكد ذلك تلك الهبات التي لا نهاية لها، والتي أنفقتها على مؤسسات ومنظمات وصحافة ليس لها دور فاعل في الثورة. كما يؤكد ذلك المشاريع الاقتصادية الكبيرة والكثيرة التي تتولاها قيادة الثورة، ومليارات الدولارات المودعة في البنوك الأجنبية.

إن كثافة هذه الأموال قد خلقت مجموعة من الظواهر والآليات، فقد أوجدت مجالاً للممارسة الذرائعية على أوسع نطاق. أصبحت الكثير من المواقف تتحدد عبر المال. كما أصبحت الثورة، في أحد وجوهها، مشروعاً مالياً ذا طبيعة خاصة. أعني أن المال لا يوظف في الإنتاج والكسب، بل في خلق ما يسميه بريجنسكي بالسياق (The Process). وما يعنيه بريجنسكي بالسياق هو خلق آليات إقتصادية وبالتالي إجتماعية، تؤدي إلى الوصول بالمجتمع إلى نقطة الإلتقاء مع أهداف واضع السياق.

ولإيضاح ذلك سوف أضرب مثالاً تطبيقياً من الواقع. لنفترض أن شركة لإنتاج أو استيراد الأدوات الكهربائية قد نشأت، وأنها تريد من المجتمع الذي لم يعتد استعمال الكهرباء أن يستهلك أدواتها بوفرة. إنها تدخل الكهرباء إلى المجتمع وتدخلها إلى البيوت كخدمة عامة، وبأسعار زهيدة، ولكنها تدخل معها الغسالة والثلاجة والتليفون والراديو والتلفزيون والسخان إلخ... من خلال ذلك يدخل

المجتمع في سياق عصر الكهرباء، فلا يستطيع الاستغناء عنها أبداً، أي أن الشركة خلقت آليات تجعل المجتمع يتمسك حتى الموت بالأهداف التي وضعتها الشركة. إن مدينة عصرية بلا كهرباء هي مدينة مهددة بالفناء، وهذا ما فعله المال بالثورة، إذ أصبحت مصدر رزق، ثم نشأت في أحضانها بورجوازية بيروقراطية ترتبط بشكل عضوي بالسلطة السعودية والطبقة الكومبرادورية الفلسطينية. وهذه الطبقة أصبحت ذات مصالح تنتهي إلى المشروعات الأمريكية الصهيونية.

في مقالاته الست التي نشرها في (هعولام هزي) عن عصام السرطاوي بعد مقتله كتب يوري إفنيري يقول :

«إن عرفات والسرطاوي كانا متفقين على كل شيء. ولكن السرطاوي كان النبي وعرفات كان الزعيم السياسي.والنبي يسير في المقدمة. وهو يفتح طرقاً جديدة في الحياة.. أما الزعيم السياسي فإنه يعمل ضمن الواقع، ومهنته هي فن الممكن. ولكن ما كان يمنع عرفات من تتبع خطى النبي السرطاوي أن هناك، من وجهة نظره، أهمية حاسمة لوحدة الحركة، وهو على استعداد لمصالحات كثيرة للحفاظ عليها، ومن المحتمل أنه يعرف بأن الإنقسام سيكون حتمياً في وقت من الأوقات مستقبلاً...»

ومهما كان مدى دقة إفنيري، فإننا لا نستطيع أن نضع جانباً هذه الإشارة إلى أن اليمين الفلسطيني يسعى إلى تسوية مباشرة حتى ولو أدى ذلك إلى الإنقسام الحتمي داخل منظمة التحرير. وهذا يشير إلى أين تقف البورجوازية البيروقراطية الفلسطينية داخل الثورة. الآلية الأخرى التي خلقها إغداق المال هي أن اليمين الذي يملك المال أصبح يملك القرار الحاسم.

الثالثة : أن الثورة قد أخذت تتحول إلى دولة، لها مؤسساتها ومقدساتها وتابوهاتها. والمسألة محتملة لو أنها توقفت عند هذا الحد. ولكنها تجاوزت ذلك فحلت الدولة مكان الثورة. لنأخذ مثلاً على ذلك مما يحدث الآن. يطرح الآن على الساحة الفلسطينية هذا الخيار: العمل المسلح أم وحدة منظمة التحرير الفلسطينية بشكلها الحالي، أي تحت زعامة ديكتاتور يسعى إلى جرها إلى المشاريع الأمريكية؟ ولكن الذين يطرحون هذا الخيار يضعون المسألة على نحو آخر: الإنقسام والاقتتال بين الأخوة أو الحوار الديمقراطي. وبهذا يضعون جانباً السبب الذي يدعو إلى الاقتتال، أو إلى الحوار الديمقراطي؟

الإجابة جاهزة عند أصحاب الفكر الذرائعي: وحدة منظمة التحرير قبل وفوق كل شيء.. وإذا استمرت هذه الوحدة فكل الأمور سوف تكون على ما يرام.

تنسى هذه الأطروحة العلاقة الوثيقة بين منظمة التحرير وبين الثورة، وبين الثورة والكفاح المسلح. إن المسألة توضع واقفة على رأسها: منظمة التحرير مقدس لا يمس، أما الكفاح المسلح فخاضع للنقاش، وكأن منظمة التحرير وجدت قبل الشعب الذي يمارس الكفاح المسلح ويجب أن تبقى بعده، وبهذا تصبح منظمة التحرير هي العنصر الثابت والشعب هو العنصر المتغير الذي يمكن التضحية به.

الرابعة : نستطيع أن نتلمس ملامح اتجاه يتبلور داخل منظمة التحرير، بدون أن أملك المعلومات الكافية عن ذلك، وهو تحويلها إلى منظمة إقتصادية هائلة، ذات امتدادات دولية ومحلية، تجعلها شبيهة بالمنظمة الصهيونية، وهذا يتلاءم مع وضع الطبقة البورجوازية الفلسطينية، التي لا تملك الأرض.

والآن، وقد طال الحديث، علينا أن نجيب على إمكانية نشوء مشروع ثقافي -حضاري للثورة الفلسطينية باعتبارها ثورة كبرى.

مشروع الدولة ومشروع الثورة

إذا أردنا تحديد المشروع الثقافي لثورة من الثورات الكبرى، علينا في البداية أن نحدد الحلقة الأساسية للمشروع الثوري. الحلقة الأساسية تضع إطار التحالفات والأهداف القريبة والبعيدة، كما تقيم طبيعة القوى الرئيسية للثورة والقوى الثانوية.

ومنذ أبعد العهود والمشروع الثوري، كلما امتد في العمق، امتد أفقياً في الوقت ذاته. وبكلام أكثر تحديداً، فإن لكل ثورة جذرية أفقاً عالمياً، أو على الأقل، أفقاً يتجاوز حدودها. لم يكن بإمكان الثورة الفرنسية أن تكون مجرد مشروع إقتصادي، فتحولت إلى مشروع ثقافي. وعندها تحولت أوروبا الإقطاعية كلها ضدها. ولكن الحلقة الأساسية للثورة الفرنسية، والتي تفرعت عنها كل الحلقات، ظلت هي المشروع البورجوازي الفرنسي.لهذا السبب بالذات فشل اليعاقبة.

بالنسبة للثورة الفلسطينية، ما هي الحلقة الأساسية في مشروعها؟ لم تخف قيادة الثورة الفلسطينية - خاصة الآن - أنها حركة تسعى أساساً بالأساليب الدبلوماسية، وقد تستعين بالكفاح المسلح بين آن وآخر كعامل مساعد للجهد الدبلوماسي، لإقامة دولة فلسطينية

على ١٧٪ من أرض فلسطين (الضفة والقطاع). من هنا تصبح علاقاتها أكثر متانة مع الدول القادرة على المساعدة في المجال الدبلوماسي أكثر من غيرها. وبسبب الظروف العربية والمحلية تكون هذه الدول هي : المملكة العربية السعودية، الأردن، مصر، والمغرب.

ولهذا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية - أو تسعى لأن تصير- بديلاً للثورة المسلحة، مهمتها الأساسية العمل الدبلوماسي ونيل الإعتراف العالمي.وهناك مشروع،كما هو معلوم، لدى قيادة الثورة أن تتحول إلى حكومة في المنفى،حتى تصبح منظمة للعمل الدبلوماسي الخالص، وتتخلص من إحراج الكفاح المسلح الذي يقف في سبيل الجهد الدبلوماسي. لهذا السبب أخذت منظمة التحرير تتحول إلى نظام عربي يميني محافظ. وقد سبق أن أشرنا بسرعة إلى الدواعي الإيديولوجية والإقتصادية التي أدت إلى هذه النتيجة.

ولكن علينا أن نلاحظ، هنا، أنه رغم التوسع الهائل في الاعتراف بمنظمة التحرير، والدعم العالمي لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، فعلينا أن نعترف أن وضع القضية الفلسطينية هو الآن أبعد من أي وقت مضى عن الوصول إلى حل حدّ أدنى معقول من أي نوع. يقال إن ذلك يعود إلى تردي الوضع العربي، وكأن هذا التردي قد تم بمعزل عن القضية الفلسطينية، وعن السياسة التي تتبعها منظمة التحرير، أعني أن جزءاً من الأسباب التي أدت إلى انتصار اليمين العربي يعود إلى دعم القيادة الفلسطينية للاتجاهات المحافظة داخل الوطن العربي.

هل هنالك إمكانية لمشروع بديل؟

يقال دائماً أن الوضع العربي المتردي، أو الزمن العربي الرديء، يجعل إمكانية قيام هذا المشروع معدومة. والتردي والرداءة صفتان للحكومات العربية. ولكن، ألا يوجد محكومون تحكمهم هذه الحكومات؟ ألا يمكن إدخالهم في الحساب؟

نستطيع أن نقول إن هنالك تحركاً جماهيرياً عربياً واسعا.وإذا حسبنا على أصابعنا نجد أن هذا التحرك اتخذ ويتخذ شكلاً مسلحاً في تسعة أقطار عربية على الأقل. وأن الحركة الجماهيرية في بلد كمصر تبلغ من السعة والعمق والاستمرارية ما يجعلها تصبح الاحتمال المؤكد لوضع اجتماعي وسياسي متقدم.

هذا يعني أننا نستطيع الحديث، دون أن نغالي، عن وجود ثورة عربية ذات طابع جذري،

وإلى هذا القدر أو ذلك، نقول أيضاً إنها مترابطة. ومن ناحية أخرى نستطيع أن نحدد أن قمة الصدام مع الرجعية العربية والصهيونية والاستعمار الإمبريالي العالمي تقع على أرض لبنان وفي مواجهة ساخنة.

وإذا كان لبنان هو قمة المواجهة وأسخن نقاط المواجهة العربية، فما هي أكثر النقاط التهابا، وديمومة في المواجهة المسلحة؟

إنها دون شك المقاومة الفلسطينية، أو هذا ما يجب أن يحدث.

إن تركيز الحديث على القرار الوطني الفلسطيني المستقل، وتأكيد الهوية الفلسطينية، وما تعلنه بعض أطراف المقاومة الفلسطينية أنها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية، ولذا لا تريد لأحد أن يتدخل في شؤونها، يوحي برؤية ترى المقاومة الفلسطينية منفصلة عن قضايا الثورة العربية الأخرى، وأن أهدافها ونضالها يملكان القدر نفسه من الاستقلالية. بالطبع هذا لا يعني أن هذه المبادئ مرفوضة على الإطلاق، ولكن هل تستطيع الثورة أن تملك إستقلالية عن بلاد وشعوب ارتبطت بها، وخاضت حروباً إلى جانبها؟ وكيف لا تتدخل في شؤون بلدان هي - أي الثورة - جزء من شؤونها الداخلية؟ وهل تتأكد الهوية الفلسطينية بتمايزها المطلق عن الهوية العربية؟.

إن هذه الأسئلة لم تجد حتى الآن إجابات كافية. وهي تنبع من تحول الثورة إلى شكل من أشكال الدولة القطرية.

الواقع أن علينا أن نعيد طرح مجموعة من القضايا تتعلق بطبيعة الثورة الفلسطينية وأهدافها حتى تتسنى لنا معالجة هذه الأسئلة وعدد آخر من المسائل الملحة:

أ - سواء أنظرنا إلى تركيب المقاومة ذاتها، أو إلى القوى التي تلتحم معها في صراعها مع إسرائيل، فإننا نجدها تحتوي على أعداد هائلة من غير الفلسطينيين، ينتمون إلى معظم الأقطار العربية ؛

ب - إن المخطط الإسرائيلي قد اتسع،كما عبر عنه شارون في إحدى محاضراته، ليشمل الشرق الأوسط كله وإفريقيا وباكستان، فلم تعد مقاومة هذا المخطط شأنا فلسطينياً خالصاً؛

جـ - من الواضح أنه لا يمكن هزيمة إسرائيل واستعادة الضفة والقطاع. إن إسرائيل إذا انهزمت، فسوف تنتهي. فيجب تعديل الهدف الاستراتيجي وجعله: تحرير كامل التراب الفلسطيني. إن السير وراء سراب الأحلام الجزئية لن يؤدي إلى

شيء، أو على الأصح سوف يؤدي إلى الإنجرار في تيار الرجعية العربية؛

د ـ لقد اتضح أن العلاقة مع الرجعية العربية، رغم وفرة المال الذي تقدمه، بل بسبب وفرة هذا المال، لا تخدم قضية الثورة، بل سوف تؤدي إلى إنتهائها كثورة.

إن هذا يتطلب إعادة النظر في مجموعة من المسلمات، ومنها الكفاح المسلح. لقد كانت الأفكار السائدة حول الكفاح المسلح تدور في الغالب، حول المحاور التالية:

- الكفاح المسلح من أجل تحرير الأرض التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ وكأن ذلك ممكن؛
- الكفاح المسلح من أجل تحرير كافة التراب الفلسطيني، بدون إيضاح الكيفية التي يمكن أن يحدث بها ذلك، وهل هو ممكن أم لا.
- الكفاح المسلح كإحدى وسائل المواجهة مع إسرائيل، بجانب وسائل أخرى.
- إلغاء الكفاح المسلح حتى تعترف أمريكا بمنظمة التحرير الفلسطينية ومن ثم تزول العقبة.التي تقف في وجه منح الفلسطينيين الحق في تقرير المصير وإنشاء دولتهم المستقلة.

أعتقد أن جميع أشكال هذا الطرح لمسألة الكفاح المسلح تعاني نقصاً خطيراً، أعني أنها جميعها غير عملية. فكيف يمكن أن نتصور تحرير فلسطين من الخارج دون جيش متفوق القوة، قادر على تدمير الآلة العسكرية الإسرائيلية، بل المسألة، في المرحلة السابقة للغزو الإسرائيلي للبنان، بدت كاملة الاستحالة، وذلك حين عقدت المعاهدة التي تمنع المقاومة من محاربة إسرائيل انطلاقاً من لبنان.

والسؤال : إذا تم ذلك فأي معنى لوجود المقاومة؟ وإذا لم تتم محاربة إسرائيل من لبنان، فمن أين تتم إذن؟

إن وضعاً كهذا طرح علة وجود المقاومة الفلسطينية ذاتها.

ما الحل إذن ؟

الحل، كما أراه، هو أن تصبح المقاومة الفلسطينية هي القلب المسلح للثورة العربية. وهذا ما يطرح العديد من المسائل على ضوء جديد:

- الوحدة الوطنية.
- اليسار واستخدام العنف.

- طبيعة التحالفات المترتبة على ذلك.

- طبيعة منظمة التحرير ذاتها.

القلب المسلح للثورة العربية

قبل أن أبدأ الحديث عن الجوانب النظرية سوف أعرض، هنا، مثالاً محدداً. كان حديثنا في الموضوع السابق يدور حول الافتراض التالي: إن المشروع الثقافي - الحضاري الحقيقي للثورة الفلسطينية هو أن تنطلق من كونها القلب المسلح للثورة العربية.

أما المثال التطبيقي، فأذكر ما يلي: في أوائل السبعينيات كنت في القاهرة، والتقيت بالصديق ناجي علوش. كان آنذاك أميناً عاماً لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، أذكر أنه سألني عن السبب الذي يمنعني من الإنضمام لفرع الإتحاد الموجود في القاهرة، وكانت دهشتي بالغة، فبالرغم من أنني أستطيع الزعم بمعرفة دقائق حياة القاهرة الثقافية، فأنا لم أسمع شيئاً عن هذا الفرع.

وعندما بحثت عنه ووجدته، اكتشفت أنه حجرة في إتحاد الأدباء العرب، يزورها، بين الحين والآخر، بعض عجائز الكتاب، والقليل من الشبان. كانت البداية اتفاقاً على خطة العمل بيني وبين الأستاذ عبد القادر ياسين. أخذنا نسعى لتنشيط الفرع ثقافياً، كما أصبحت مندوب الفرع في إتحاد الطلاب الفلسطينيين في القاهرة.

سعيت بكل طاقتي لإقامة الجسور بين الحركة الوطنية المصرية وبين الفلسطينيين في القاهرة، وكان النجاح مذهلاً. فلأول مرة يلتقي مئات الفلسطينيين، في ندوات أسبوعية، بالشيخ إمام، وأحمد فؤاد نجم، وعدلي فخري، ولطفي الخولي، ومحمد عودة، وصلاح عيسى، ورفعت السعيد، وفؤاد مرسي وعشرات غيرهم.

كما ساهمنا بندوات فلسطينية - مصرية منها (ندوة التضامن مع الشعب اللبناني) التي أقيمت في جامعة القاهرة واستمرت أحد عشر يوماً؛ وعشرات الندوات التي ساهمت أنا فيها في اتيلييه القاهرة، دير الملاك، منطقة (عين الصيرة) وغيرها.

وبمشاركة نشطة من الاستاذ عبد القادر ياسين، أخذنا نعد لمؤتمرات نوعية لتكوين لجان للدفاع عن الثورة الفلسطينية. كانت مثل هذه اللجان قد تكونت بالفعل بين الطلبة. وقمنا، بمشاركة المناضلين المصريين، بعقد مؤتمر للمثقفين المصريين في قاعة مسرح السامر، وشارك فيه حوالي ألف وخمسمائة مثقف مصري، كانوا يضمون أبرز الوجوه الثقافية في مصر. وأقام المؤتمر لجنة تحضيرية لتكوين لجان للدفاع عن الثورة الفلسطينية.

كما أقيمت نواة لعقد مؤتمر للفلاحين شارك فيه فلاحو كمشيش والقرى المحيطة، بقيادة المناضلة المعروفة السيدة شاهنده مقلد.

ثم أقيمت ندوة عن «المخطط الأمريكي في المنطقة العربية» في تشرين ثاني، عام ١٩٧٦. وقد كان لي شرف رئاسة هذه الندوة. وقد استمرت أسبوعاً كاملاً، وشارك فيها ما يزيد على ستين مفكراً مصرياً وفلسطينياً ولبنانياً. وقد واجهتني مشكلة حقيقية، فمصاريف الندوة كانت تزيد على ألف جنيه مصري، لم أكن أملك منها مليماً.

لقد وعدتنا اللجنة التنفيذية لإتحاد الطلاب الفلسطينين ومكتب فتح في القاهرة، بدفع التكاليف، ولكنهما في اللحظة الأخيرة نكصا وتركاني أواجه المشكلة وحدي، ولكن المشكلة حلت بسهولة. لقد اقتطع المثقفون المصريون من دخولهم الضئيلة، وقام الطلاب والطالبات العرب - من غير الفلسطينيين - بجمع تبرعات، أذكر بشكل خاص الطالبات البحرانيات واللبنانيات، وجُمع المبلغ كاملاً خلال أيام قليلة.

وقد شارك في هذه الندوة تسعة عشر تنظيماً سياسياً وطلابياً.وكانت حية وخصبة تمتد أحياناً إلى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل.

وأذكر أنني عندما اختتمت الندوة، كنت أركب سيارة أحد الأصدقاء. كنا متجهين للمشاركة في إجتماع يضم حوالي مائة مثقف مصري لتكوين جبهة ثقافية تكون أحدى مهامها الدفاع عن الثورة الفلسطينية. وأنا في الطريق إلى هذا الإجتماع قامت مباحث أمن الدولة باعتقالي.

في اليوم التالي قام وفد من الكتاب المصريين وأساتذة الجامعة بالالتقاء مع وزير الثقافة المصري. كان الوزير في ذلك الوقت الدكتور جمال العطيفي. وطرح الوفد أمام الوزير احتجاجه على اعتقالي. اتصل الوزير بوزير الداخلية، وكان آنذاك سيد فهمي. قال وزير الداخلية:

- تقول إن الوفد الذي يحتج على اعتقال غالب هو من المصريين .فاسألهم لماذا لم يحتج الفلسطينيون على اعتقاله؟

فقال العطيفي:

- إنهم لا يعرفون السبب.

قال وزير الداخلية:

ـ أنا أقول لك السبب. إن مكتب فتح في القاهرة هو الذي طلب اعتقال غالب، لأنه يسيء للعلاقة بين مصر ومنظمة التحرير.

ذهب الوفد بعد ذلك وقابل معتمد فتح في القاهرة، وكانت المفاجأة المذهلة، قال لهم المعتمد «إنه ـ أي غالب هلسا ـ يسيء إلى العلاقات المصرية ـ الفلسطينية، لأنه يتدخل في الشؤون المصرية الداخلية» وهذا بالتحديد ما قاله لي ضباط مباحث أمن الدولة المصرية، إذ قالوا :

ـ إفعل مع الفلسطينيين كل ما يخطر ببالك. هاجم السادات كما تريد. لكن عليك ألا تتصل بالمصريين بأية حال.

وقال معتمد فتح للوفد أيضاً: إن غالباً من الضفة الشرقية، وليس فلسطينياً. هل تريدون مني أن أدافع عن أبناء الضفة الشرقية؟

وأترك للقارئ الذكي أن يتصور مدى الذهول والاشمئزاز والضيق الذي استولى على أعضاء الوفد، وهم من كبار الكتاب، ومن المناضلين البارزين.

والمفارقة المدهشة أن هذا المعتمد نفسه قامت حكومة السادات بطرده من مصر بعد فترة قصيرة، لأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تبارك زيارة السادات لإسرائيل. المهم أن المحافظة على العلاقات الودية بين النظام المصري ومنظمة التحرير، استلزمت توسيع نطاق الاعتقالات بين الفلسطينيين، مما جعل الطلبة الفلسطينيين يعلنون الاعتصام في مقر إتحادهم. فجاء معتمد فتح إليهم وأعلن أنه تم الإفراج عن جميع المعتقلين ، وأن الرئيس السادات فتح معسكرات تدريب تتسع لعشرات الآلاف، وسوف يتم فيها تدريب الفلسطينيين على القتال. انتهى الإعتصام. ولكن الطلبة علموا أن كل ما قاله معتمد فتح غير صحيح، فعاودوا الإعتصام، وكانت النتيجة إعتقال عشرات الطلاب وطردهم من مصر.

ذكرت كل هذه التفاصيل لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة للمقولة موضوع الحديث. أعني أن تكون الثورة الفلسطينية هي القلب المسلح للثورة العربية.

هنالك نقطة ما تزال بحاجة إلى إيضاح. قد يبدو من المثال السابق، وكأن جماهير الشعب المصري كانت في مزاج سلبي، ساكن، حتى جاء فرع إتحاد الكتاب وحركها في اتجاه القضية الفلسطينية، ولكن واقع الأمر كان عكس هذا تماماً.

لقد قامت في مصر ثورة حقيقية بعد هزيمة ١٩٦٧، وكان قلبها (لجان الدفاع عن الثورة

الفلسطينية)، ورُفعتْ شعارات: حرب الشعب، سقوط دولة المخابرات، تغيير الهياكل الإجتماعية والإقتصادية حتى تتسق مع فكرة حرب الشعب، وقد سعت هذه الحركة للإلتحام بالثورة الفلسطينية، ونجحت في إقامة علاقات تحالف مع بعض فصائل الثورة الفلسطينية، وفي بعض الأحيان كانت علاقات عضوية.

وهكذا، فحين سعينا للإلتقاء بالحركة الثورية المصرية، كنا نستجيب لأهداف هذه الحركة، ونحقق لها - ومعها - ما كانت تبذل أقصى الجهود لتحقيقه. وسواء أردنا أم لم نرد فقد أصبحنا في أعوام ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ طرفاً في الصراع الداخلي المصري. وأنا أحد الذين يعتقدون أنه كان بإمكان القوى الوطنية المصرية إستلام السلطة لو توفرت وتكاملت بعض العناصر الذاتية. ولو أن الثورة الفلسطينية وقفت بحسم وقوة إلى جانب الحركة الوطنية.

ولكن السياسة الرسمية لمنظمة التحرير، كانت التحالف مع السلطة ضد الحركة الوطنية المصرية، وضد من يناصرها من أجنحة الثورة الفلسطينية. وأعتقد أن هذا الموقف قد حسم الأمور لصالح الساداتية بشكل نهائي.

قد يبدو وضع المسألة على هذا النحو فيه تبسيط شديد للأمور. وهو كذلك بالفعل. فلم تكن المسألة أبداً مجرد قرار تتخذه قيادة منظمة التحرير فتنتهي الأمور إلى تغيير شامل في مصر. بل المسألة تتعلق بالمشروع الثقافي الفلسطيني، وبالطرح - الذي أعتقد أنه خاطئ - لفكرة البديل الثوري في مصر.

البديل الثوري .. والفكر الذرائعي

أصبح أمراً مألوفاً في وطننا العربي ألا يرى اليسار في نفسه بديلاً للسلطة القائمة، مهما كانت رجعية أو عميلة. وتحت شعار اللينينية، أُلغيت المقولة اللينينية التي تقول إن الحلقة الرئيسية التي ينبغي على الحزب الثوري أن يسعى للإمساك بها هي السلطة. استبدلت هذه المقولة بأخرى، ترى في الحزب الثوري شريكاً هامشياً في السلطة، أو سنداً لأحد أجنحة السلطة التي يفترض وجودها، بدون دليل مقنع. هذه الرؤية ترى للسلطة ثلاثة أجنحة: جناح وطني يجب دعمه بكل الوسائل، وجناح متذبذب يجب إيقاف تذبذبه وإلحاقه بالسلطة الوطنية، وجناح يميني يتوجب عزله والقضاء عليه.

وبؤس هذه الرؤية يتبدى، حين نعلم أنه، في فترة من الفترات، كان محمد أنور السادات هو ممثل الجناح الوطني. ومن المعلوم أن الدعم الذي أعطاه اليسار للسادات قد ساهم في دعمه وفي تسهيل سلوكه طريق الخيانة الوطنية. ولا أريد أن أناقش الزعم أن السادات كان

يمثل يسار الناصرية. فلقد أسقط الواقع هذا الزعم.

وعندما يقوم النظام بقمع اليسار، فإن هذا اليسار لا يدرك، إلا في وقت متأخر، أن ذلك تمهيد لطريق الخيانة، إذ كان يفسر ذلك بأنه نتيجة تذبذبات البورجوازية الصغيرة.

وهذا الدخول في لعبة السلطة يفقد اليسار الكثير من قدرته على التفاعل وفهم المزاج الجماهيري. إن انتفاضة ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ في مصر جعلت السلطة ملقاة على الرصيف. فقوى الأمن أصبحت عاجزة عن الفعل. وقيل إن السادات وحاشيته قد بدأوا بالفعل الخطوات الأولى لمغادرة البلاد. والجيش كان يقف على الحياد - على أقل تقدير. ولكن أحداً لم يتقدم لاستلام السلطة. فكل التحليلات كانت تتجه إلى تغييرات سوف تتم عبر السلطة، من خلال أجنحتها الثلاثة المزعومة.

إن هذا الوضع جعل اليسار المصري - وغالبية اليسار العربي - يدور في حلقة مفرغة. يبدأ لينتهي في نفس النقطة. إنه يضع نفسه خارج دائرة الفعل، عندما يلغي نفسه كبديل ثوري.

أشرنا في السابق، من واقع تجربة شخصية، إلى أن قيادة فتح اتخذت موقفاً مسانداً للسلطة الساداتية. وكان هذا يعني توجيه ضربة إلى التحالف الثوري المصري - الفلسطيني.

كيف نفسر موقف قيادة فتح هذا؟

أولاً : أنه في هذه الفترة - عام ١٩٧٦- كانت بعض المساعدات الغذائية والاسلحة تأتي إلى قوات المقاومة الفلسطينية بواسطة البواخر المصرية.

ثانياً : أن النظام المصري قد ساهم في الحملة الهادفة إلى الإعتراف العالمي بمنظمة التحرير الفلسطينية، وفي السماح لياسر عرفات بإلقاء خطابه المعروف في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

ثالثاً : العلاقة التي تربط النظام المصري ومنظمة التحرير - أعني قيادتها - بالمملكة العربية السعودية.

رابعاً : المصالح الإقتصادية لبعض مسؤولي فتح في القاهرة.

ويمكننا أن نذكر أسباباً أخرى، ولكن ذلك سوف يبعدنا عن موضوع البحث.

إذا تفحصنا هذه الأسباب، فسوف نجد فيها معطيات وافية للفكر الذرائعي السائد في

قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. وعندما نضعه في سياقه العام نجد فيه فكراً قصير النظر، معادياً للفكر الثوري. إن الإستجابة للمصالح الآنية، ساهمت في تدمير تحالف كان قادراً حتى على المدى القصير - إنتفاضة يناير ١٩٧٧- أن يضع البديل الثوري في السلطة.

لقد كان ذلك تكراراً، بشكل من الأشكال، لسياسة قيادة منظمة التحرير في الأردن ولبنان. حيث فرضت المصالح الآنية نفسها كبديل للسياسة الاستراتيجية. وأعني بالسياسة الاستراتيجية تحويل الدول المحيطة بإسرائيل إلى دول ثورية قادرة ليس فقط على التصدي لإسرائيل، بل على هزيمتها.

يندرج هذا الفكر الذرائعي في إطار آخر وهو عجز قيادة منظمة التحرير عن إدراك واستيعاب حقيقتها العميقة، وهو كونها القلب المسلح للثورة العربية. إن بعث وتسعير الخلافات الطائفية على حساب الأحزاب الثورية في لبنان، ساعد، بدون شك، على سيادة المنظمة على بعض أجزاء لبنان، وذلك تطبيقاً للسياسة المعروفة: فرِّقْ تَسُدْ. ولكنه يتضح الآن أن تلك السياسة هي التي أدت إلى إخراج المنظمة من لبنان.

وهكذا يتأكد، المرة بعد المرة، أن تغليب المصالح الآنية على الأهداف الاستراتيجية، وجعل الفكر الذرائعي دليلاً للنضال بدلاً من الفكر الثوري،سوف يؤدي إلى الهزيمة تلو الهزيمة.

يظل هنالك سؤال لم نجب عليه بعد: لقد ذكرنا ما نراه من قصور في فكر اليسار المصري الذي منعه من أن يكون بديلاً للسلطة الساداتية، فما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه الثورة الفلسطينية في هذا المجال؟

إن الإجابة على هذا السؤال تطرح أمامنا مأزق الثورة الفلسطينية الحقيقي، أعني مأزق المشروع الثقافي للثورة. إن مشروعاً ثقافياً ذا طابع ذرائعي، لم يكن بمستطاعه إلا أن يتحالف مع السادات ضد الحركة الثورية للجماهير المصرية، فبالنسبة للفكر الذرائعي يكون عطاء القوى الرجعية، مهما كان شحيحاً، أكثر إغراء وقبولاً من عطاء ثورة لم تتحقق بعد« عصفور باليد خير من عشرة على الشجرة!».

دعونا نتأمل جذر المسألة. الثورة الفلسطينية حركة مسلحة تهدف إلى استعادة أرض فلسطين (كلها أو بعضها) بواسطة العنف. هذا هو هدفها الأساسي والوحيد.

وهي لا تملك برنامجاً إجتماعياً حتى لا تفسح المجال أمام صراع طبقي يدمر الوحدة الوطنية، ويبعد أجزاء واسعة من الشعب الفلسطيني عن الثورة. لهذا يجب استغلال كل

الإمكانيات المتاحة فلسطينياً وعربياً لتحقيق هدف الثورة الرئيسي.

هذا ما تراه قيادة الثورة الفلسطينية. وأعني بقيادة الثورة تلك المجموعة التي تقف في مركز إتخاذ القرار، بما فيها مؤسسات الثورة التي تكونت، بأسلوب الثورة نفسه، حيث القرار الحقيقي في يد الأقلية القائدة.

ومأزق الثورة الفلسطينية يتصل إتصالاً وثيقاً بهذه النظرية. فمن خلال مقولة الوحدة الوطنية، وعدم تمزيق قوى الثورة، أصبح اليمين الفلسطيني، المتحالف مع اليمين العربي، هو الذي يسيطر على الثورة الفلسطينية.

وتندرج في سياق هذه النظرية مقولة أخرى: تحرير فلسطين من خلال الثورة الفلسطينية. لقد صِيَغتْ التحالفات على هذه المقولة، وكذلك السياسة. ما دام الفعل الفلسطيني المسلح غير قادر على تحرير الأرض، فلا بد من استعماله كأسلوب مساومة. المساومة مع أمريكا وإسرائيل وعبر الأنظمة القادرة على المساومة.

المشروع الثقافي الفلسطيني المقترح هو الذي يرى الارتباط الوثيق بين إسرائيل والمشروع الأمريكي للمنطقة العربية. وإن هذا المشروع الأمريكي يستهدف الوطن العربي بكامله. وإنه لا يمكن الإنتصار عليه إلا من خلال تحالف القوى الجذرية العربية. إن مثل هذا التحالف لا يقوم على تراكمات كمية، بل على التفاعل بين مختلف القوى المكونة له.وهنا يأتي دور المشروع الثقافي الفلسطيني. حين تكون الثورة الفلسطينية هي القلب المسلح للثورة العربية، فعليها أن تسعى لجعل القوى الجذرية العربية هي البديل الثوري لأنظمتها الرجعية.

قد يقال إن هذا سوف يزيد الحصار الرجعي العربي حول الثورة الفلسطينية. وهذا صحيح. ولكن علينا أن نرى ما يقدمه الخيار الآخر. فإن إقامة التحالفات مع الأنظمة الرجعية العربية قد حاصرت الثورة الفلسطينية من الداخل. أعني أنها قد خلقت في داخلها طبقة بورجوازية بيروقراطية أخذت تدفع الثورة الفلسطينية إلى التبعية للأنظمة الرجعية العربية، وإلى الإلتقاء، بشكل أو بآخر، مع المشروع الامريكي الإسرائيلي.

إن مشروع الثورة الفلسطينية القائم حالياً، ليس مسؤولاً عما وصلت إليه حال الثورة الفلسطينية حالياً فحسب، بل هو مسؤول، بدرجة من الدرجات، عن الضعف الذاتي لقوى الثورة العربية. إن الثورة مسؤولة عن حلفائها، وعليها أن تتفاعل معهم إلى أقصى حد. وهذا يقودنا إلى العلاقة الجدلية بين العنف الثوري والبديل الثوري.

الاحتواء واستقلالية القرار

عند الحديث عن القرار الوطني الفلسطيني المستقل، وعن الخشية من الاحتواء، فإن العبارات تأخذ طابعاً شديد العمومية وملتبساً. وفي كثير من الأحيان يجري الحديث عن هاتين المسألتين بكثير من الإنفعال والميلودرامية، ما يجعل الحوار حولهما صعباً. ولكن أحداً لم يحاول أن يعطي تعريفاً وافياً لهذين المصطلحين.ولا أن يوضح مدلولهما الواقعي.

أعتذر للقارئ لأنني سوف أكرر نفسي، ولكنني سوف أضع ذلك في إطار موضوع جديد، أعني به الإحتواء.

في حديث سابق أشرت إلى ما يسميه (بريجنسكي) بالعملية (The Process) وما سميته بالسياق. والسياق يعني: أن تخلق مصالح واحتياجات وثقافة داخل مجموعة معينة من الناس، سواء أكانوا دولة أو طبقة، أو حتى ثورة.إن هذا سوف يؤدي - كما يرمي (بريجنسكي) - إلى الإلتقاء بالقوة التي وضعت هذا السياق.وبكلمة أخرى، فإن سيادة نمط الحياة الأمريكي بطابعها الاستهلاكي الكثيف سوف يقود إلى الإنضواء تحت جناح أمريكا.

وفي حديثنا عن الثورة الفلسطينية، قلنا إن الدول الرجعية العربية خلقت هذا السياق من خلال المساعدة على دعم نشوء طبقة بورجوازية بيروقراطية داخل منظمة التحرير الفلسطينية.

وهنالك، بالطبع، سياق آخر تنشئه المجموعة الإشتراكية الأوروبية، وخاصة الإتحاد السوفييتي، في داخل دول العالم الثالث، وهو إنشاء قطاع عام صناعي، وخلق طبقة من الفنيين والعمال المهرة. وقد هاجمت الأدبيات الصينية هذا الإتجاه، واصفة إياه بالإمبريالية الإشتراكية، وقدمت بدلاً منه مقولة «الاعتماد على الذات». ومن المعروف أنه شاع في فترة الستينات، بين بعض المنظرين السوفييت، أن هذا السياق الذي تخلقه الخبرة السوفييتية سوف يكون الطريق الثالث المؤدي إلى الإشتراكية.

يهمنا في هذا المجال أن نشير إلى أن إيجاد سياق جديد داخل بنية بشرية ما، يؤدي إلى نتائج يمكن التنبؤ بها. من هذه النتائج الإحتواء والسيطرة، كما حدث في علاقة الولايات المتحدة مع بعض دول أوروبا الغربية، والكثير من دول العالم الثالث. وأما بالنسبة لإنشاء الصناعات في دول العالم الثالث بواسطة الإتحاد السوفييتي ودول المنظومة الإشتراكية الأخرى،فإن مثال مصر ذو دلالة كبيرة.فرغم كثافة الوجود السوفييتي العسكري

والاقتصادي،فقد انتهى هذا الوجود تقريباً خلال ثلاثة أيام عندما طلب أنور السادات ذلك.

وبالنسبة للثورة الفلسطينية، فإن خطر الاحتواء بهذه الوسيلة ليس ماثلاً فحسب، بل تحقق بهذا القدر أو ذاك، ونتج عنه ما هو معروف من ميل القيادة اليمينية، في البداية، ثم سعيها الملح إلى الإنضواء تحت جناح الأنظمة العربية الرجعية. وهذا لا يتطلب فقط مقاومة الظواهر التي تنشئها الدول الرجعية العربية داخل الثورة الفلسطينية، بل خلق سياق آخر يصل بالثورة هذه إلى أن تكون القلب المسلح للثورة العربية.

إن النفوذ الهائل الذي كانت تتمتع به مصر الناصرية لم يكن سببه انتصارات عسكرية حققتها، فنحن نعلم حقيقة ما تم في حربي ١٩٥٦ ـ ١٩٦٧. لم يكن أي منهما نصراً عسكرياً بأية حال. كما نعرف الآن أن حرب اليمن، لم تملك لا الشعبية ولا التفوق العسكري المنتظر، فما الذي، إذاً، جعل مصر الناصرية تتمتع بكل هذا النفوذ؟ لم يكن السبب هو القوة المادية بأية حال.فبالنسبة لعدد السكان كانت مصر تعتبر من الدول الفقيرة.

رغم هذا، كانت مصر الناصرية قادرة على احتواء القوى الوطنية والثورية في المنطقة العربية كلها، سواء أكان ذلك بالتحالف مع الناصرية حسب شروطها، أو بالعزل الذي يفقدها ـ أعني القوى الثورية ـ شعبيتها. هنالك بعض الاستثناءات، ولكن ذلك لا يغير الحقيقة المعروفة جيداً من الجميع.

إن الإجابة على هذا السؤال تتلخص في أن (عبد الناصر) قام بخطوات تجاوز فيها الجميع. ابتداء من المشاركة في مؤتمر (باندونغ)، ثم عقد صفقة الأسلحة مع الإتحاد السوفييتي، فتأميم قناة السويس، ومواجهة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عسكرياً، ثم الوقوف في وجه مشروع (إيزنهاور) لملء الفراغ في الشرق الأوسط، والاتفاقيات مع الإتحاد السوفييتي لبناء السد العالي، ووضع أساس للصناعة الثقيلة في مصر ـ مجمع الحديد والصلب ثم مجمع الألمنيوم فيما بعد. هذه السياسة جعلت جميع القوى الثورية والوطنية في الظل، وذلك لسبب بسيط، لأن أياً من هذه القوى لم يستطع أن يتجاوز الناصرية على أرض الواقع.

نخرج من ذلك بالاستنتاج التالي: أن الإحتواء يصبح خطراً حقيقياً عندما تقوم قوة ما، على أرض الواقع، بتجاوز القوى الأخرى في مواجهة الإمبريالية وفي سلوك سبيل يؤدي

إلى تدعيم الاستقلال الوطني، وهذا لا يعني أن هذا الإحتواء أمر مرغوب فيه، أو يجب السعي لتحقيقه، كما شاع عند البعض في الفترة الناصرية.

لقد كانت سياسة عبد الناصر تقوم على تحويل مشروع (آيزنهاور) إلى مشروع ناصري. وذلك بتفريغ المنطقة العربية من كل القوى الثورية والوطنية، وخلق فراغ تملؤه انقلابات عسكرية موالية للناصرية. كان هذا هو المشروع الناصري للوحدة العربية: حل كل القوى السياسية. وقد أثبت هذا المشروع فشله الذريع في أكثر من مرة.

إن مقاومة مثل هذا الاحتواء لا تتم بالهرب من المواجهة، ولا بالتحالف مع القوى الرجعية العربية، ولا بالبحث عن قوة عربية كبيرة كمصر ومحاولة الانضواء تحت جناحها، بل بالفعل المتجاوز للدولة الراغبة في الإحتواء. هذا ما فعلته جمهورية اليمن الديموقراطية في مواجهة التسلط الناصري، الذي أراد أن يرغمها على أن تقبل جناحاً عميلاً في داخلها، ليصبح عبد الناصر حكماً بين الإثنين. كما أنه من المضحك الآن إرتداء قناع عبد الناصر. فمن أراد من التاريخ أن يكرر نفسه، فسوف يفعل ذلك على شكل مهزلة.

ومن الغريب أن مسألة الإحتواء لا يطرحها أحد إلا بالنسبة لسوريا. وأما احتواء دول كالسعودية ومصرفلا أحد يطرحه. ومهما كانت الدعاوى اليسارية للذين يطرحون خطر الإحتواء السوري، بدون غيره، فإن وراء ذلك مفهومين:

الأول: الرغبة في السير وراء المشاريع الإستعمارية.ومن الواضح أنها لا تمر عبر سوريا؛

الثاني: أن سوريا لا تملك الأموال الطائلة، فلهذا سوف يكون احتواؤها للثورة الفلسطينية غير مدفوع الثمن.وأهمية هذه المسألة أن الأجهزة التي خلقتها الثورة الفلسطينية باهظة التكاليف.

هنالك مسألة أخرى بالغة الأهمية، سوف نشير إليها بسرعة. عندما تجد قوة سياسية ما نفسها معزولة عن جماهيرها، ومواجهة برفض الجماهير لها، فإنها تلجأ إلى قوة أكبر تعوض بها عن هذا الضعف القاتل.

الإحتواء مرة أخرى: ديناميات استقلالية القرار

لا أحد من الذين يبثون في نفوسنا الفزع من الإحتواء، حاول أن يحدد ما يعنيه بالإحتواء. لا أحد قال لنا: لماذا سوريا بالذات، وفي هذه الفترة بالتحديد، تريد احتواء الثورة الفلسطينية. ولا يذكر أسماء دول أخرى، مثل أمريكا، إسرائيل، المملكة العربية السعودية،

مصر وغيرها؟؟.

أود أن أعترف، ابتداء، أنني أفترض سوء النية. إن استعمال مصطلح الاحتواء السوري كفزاعة لتخويف الجميع، والتهرب من تحديد المصطلح، ينسجم مع ثنائية أخرى: التحالف مع اليمين الفلسطيني بشكل فعلي، وإلى أقصى حد، والهجوم اللفظي عليه. فكم شاهدنا قادة «يساريينا» يهاجمون اليمين بكل عنف، بينما تسعى قواعدهم، وبأوامر سرية، إلى إثارة سكان المخيمات للدفاع عن زعامة اليمين!

إن لهذه الثنائية طابعاً مفزعاً بالفعل. وإذا استبعدنا المزاح فليس لنا إلا أن نفترض سوء النية. يقال لنا الآن إن الموقف الصحيح هو أن نهاجم اليمين والمعارضين له، وأن نهاجم دعاة الكفاح المسلح والمطالبين بتصفيته والاستعاضة عن منظمة التحرير بالدولة الفلسطينية في المنفى. والتبرير الذي يقال هو أن لليمين جماهيرية واسعة (يصلون بالأرقام إلى ٩٩٪ من سكان الأراضي المحتلة) ولذا يجب العمل ، لعشرات السنين، ليتم عزل اليمين الفلسطيني. هذا اليمين الذي خان طبقاً لكل برامج المجالس الوطنية، وكل ما هو إتفاق بين فلسطينيين مناضلين.

ليس لنا أن نناقش هذا المنطق، لأنه يفتقد أبسط معطيات المنطق. علينا، إذاً، أن نبحث عن النية، فوحدها هي التي تفسر لنا هذه المتناقضات.

من الواضح أن هذا الطرح، المتسم بالثنائية والتناقض، هو الحد الأعلى الممكن - في الظروف الحالية - للدفاع عن اليمين، واستمرار التحالف معه. اليمين يستطيع أن يستوعب الآن كل هجوم عليه، خاصة وأن الهجوم عليه يقابله شعار أنه «لم يخن بعد»، وهذا أقصى دفاع ممكن عن اليمين في الساحة الفلسطينية. إن اليمين نفسه يتردد في إطلاق شعار أن قيادة م.ت.ف : «لم تخن بعد» وعرفات نفسه يقول إنه ذهب إلى مصر لأنها دعمته بالسلاح وبالموقف لتنفيذ مذابح البداوي، وطرابلس، وزغرتا وغيرها.

كذلك، إن هذا الخط السياسي - والايديولوجي أيضاً - الذي يدعم اليمين والخطوط الأخرى الموازية، أو المتقاطعة معه لا يطرح مصطلح الإحتواء فيما يتصل بدول كأمريكا أو مصر أو السعودية أو حتى إسرائيل.

من هنا نتبين دلالة ومغزى التهرب من تحديد هذا المصطلح. فالمصطلحات التي تستعمل للحديث عن العلاقة مع هذه الدول هي المصطلحات نفسها التي تضمر العلاقة مع اليمين.. تحت ستار الهجوم عليه تمتد الأيدي لمصافحته.

هل هذا حديث في علم اللغة؟

ولم لا؟ فاللغة السياسية يجب أن تجرد من التلاعب اللفظي، لنكتشف الدلالة في العمق. يقال مثلاً عن العلاقة بأمريكا إن مشاريعها للمنطقة تهدف إلى السيطرة الكاملة على المنطقة. وهذه السيطرة تحمل تناقضاً إلى هذا الحد أو ذاك مع المشروع الإسرائيلي... ثم يحدث إنقطاع في التحليل، وقفزة إلى موضوع آخر: البورجوازية الوطنية يجب قبولها كقائد للثورة. لِمَ يتم الصمت عن علاقتها بالمشروع الأمريكي؟

إن التعمية على قبول المشروع الأمريكي، تتم تحت بريق المصطلحات الثورية.

إن الصمت يسود حول مسعى القيادة اليمينية لإرسال القوة الضاربة للثورة إلى العراق، واحتوائها داخل القوات المسلحة العراقية في حربها مع إيران. (الحديث، بالطبع، يتم عن لواء المدفعية الذي تقرر إرساله إلى العراق، قبل بدء الإنتفاضة). ويجري الحديث المثقل بالمصطلح الثوري، عن الإستفادة من التناقض السوري ـ العراقي للتوصل إلى القرار الوطني الفلسطيني المستقل.

هنا تختفي الجريمة (التضحية بالقوات الضاربة للثورة) تحت بريق إيهام مصطلح (القرار الوطني الفلسطيني المستقل).وهذا المصطلح فزاعة أخرى هدفها إسكات الأصوات التي تعترض على الإتجاه يميناً،والمغالاة في هذا الإتجاه حتى الإندراج في المشاريع الأمريكية الإسرائيلية.

في الوقت ذاته تنطمس الحقيقة تحت عبارة «استغلال التناقض السوري ـ العراقي». لا أحد يحدد معنى كلمة «إستغلال». هل تعني الاستفادة فقط؟ أم ذلك المدلول الشرير والمعروف للكلمة؟ كيف يتم الإستغلال؟ وما هي حقيقة التناقض السوري ـ العراقي؟ وهل تجري الإستفادة منه بشكل إيجابي؟؟ كلها أسئلة لا نجد الجواب عليها. من هنا تصبح اللغة ستاراً يغطي الحقيقة.

عندما حاول جمال الدين الأفغاني «إستغلال» التناقضات العثمانية – الأوروبية، انتهى به الأمر إلى أن يصبح سجيناً في قصر الخليفة. وعندما حاول العرب «استغلال» التناقضات الأوروبية ـ العثمانية، إنتهى بهم الأمر إلى أن يخضعوا للإحتلال الغربي الذي تم الإتفاق عليه في معاهدة سيكس ـ بيكو. وحكاية مصطفى كامل مع هذا النمط من الإستغلال، والذي بذل الكثير في سبيله، معروفة.

ليس هدفنا، هنا، أن نلغي هذه المقولة، بل أن نضعها في مكانها الصحيح. القرار الوطني

المستـقل لا ينشـأ من اللعب على الحـبال، ولا عن بهلوانيـة الاسـتفـادة من التناقـضـات، بل ينشأ عن القوى الذاتية للثورة. ولقد جرى الصمت عن هذه المسألة تماماً.

عندما حاولت القيادة اليمينية تمزيق القوة المسلحة إلى وحدات غير فاعلة، ووضـعها في (معازل) بحيث تفقد كل فعالية، ارتفع ـ ويا للعجب ـ شعار «القرار الفلسطيني المستقل»، وشعار «الحوار الديمقراطي بدلاً من الاقتتال»، للمحافظة على الدم الفلسطيني. لم يحاول «المتياسرون» أن يناقشوا عناصر القوة الذاتية الفلسطينية، ووسائل المحافظة عليها. وإذا تابعنا منطقهم، فـالقرار الوطني المستـقل يعني تطهير الشـعب الفلسطيني من قـواته المسلحة، والسماح للقيادة اليمينية أن تعمل بدون رقيب. إن معنى القرار الوطني المستقل، هو سحق وإنهاء كل عناصر الحوار مع الطاغية الفرد.

وإن اللعب بالمصطلحات يمضي بدون توقف. إن المسافة بين الإحتواء والقرار الوطني المستقل قد اجتيزت بقفزة بهلوانية.

هل نتوقف قليلاً عند مصطلح «المؤسسات الشرعية» الذي يُنتزع بفظاظة من سياق ثورة تغير نهجها وقيادتها، ليوضع في سياق الليبرالية البورجوازية؟ وحتى لو لم يكن لنا اعتراض على هذه الليبرالية، فهل تتوفر شروطها في مؤسسات الثورة الفلسطينية؟ ألم تتم صياغة هذه المؤسسات وفق منطق الحاكم الفرد حتى تنسجم مع سياسته وتنفذها؟

وقبل هذا كله، ألا يعني التمسك باستقلالية القرار الفلسطيني احترام العقل؟ لا نستطيع الزعم، ونحن نسخر من إنسان، ونخدعه، أننا نقف خاشعين أمام قراره. والمسألة، هنا، لا تقتصر على استخدام المصطلح بأسلوب مخادع، بل في تزييف الوقائع. فإن عناصر الإختيار الحر لا تهمل أبداً معرفة المسألة موضوع الاختيار. فحين نكذب على الشعب، ونضلله، ونعمي عينيه عن معرفة الحقائق، فإننا نلغي معطيات حرية الاختيار عند الشعب، ونجعل من القرار الوطني المستقل مجرد ستار لنجعل الجماهير تنقاد خلفنا وهي عمياء، عاجزة عن إصدار الحكم.

حول البورجوازية الوطنية مرة أخرى

في ندوة أخرى، أعيد طرح موضوع البورجوازية الفلسطينية: طبيعتها ودورها. شارك في الندوة الرفيق أبو ليلى، عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، والرفيق عبد الرحيم ملوح، عضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، كما شارك فيها أعضاء هيئة تحرير مجلتي (الحرية) و (الهدف)، وجمهور من المثقفين.

وقد ألقى كل من الرفيقين أبو ليلى وملوح، مداخلة، ثم تبع ذلك حوار حول ما جاء في المداخلتين. ولسوء حظي، لم أشارك في هذه الندوة، وما هو متوفر لديّ هو المداخلتان فقط. أما الحوار الذي تلا ذلك، فلم يتح لي الإطلاع عليه.لذا،فسوف نقصر حديثنا على المداخلتين.

نستطيع القول ابتداء، وقبل أن نتطرق إلى التفاصيل، إن الرفيقين حددا دور وطبيعة البورجوازية الفلسطينية باعتبارها ظاهرة نمطية تسود العالم الثالث. إن طبيعتها ودورها مستمدان من طراز كلاسيكي جرى الحديث عنه منذ بداية القرن الحالي. أما السمات الخاصة والمميزة للبورجوازية الفلسطينية، فقد جرى توصيفها، بدون الخروج بنتائج لهذا التمايز. لقد حدد الرفيق أبو ليلى، هذا التمايز بالتالي:

أ - الطابع الإستيطاني للعدو الصهيوني جعل فئات جديدة تنضم إلى الإصطفاف الوطني التقليدي الذي تتسم به حركات التحرر الوطني في البلدان النامية. فبالاضافة إلى البروليتاريا، والبورجوازية الصغيرة، والفلاحين، والبورجوازية الوطنية... تتسع الحركة الوطنية الفلسطينية، أيضاً، لفئات واسعة من البورجوازيين والملاك المتنورين، الذين يجدون مصلحتهم في استعادة حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير، أي حقه في أن يعيد تكوين نفسه، وفي أن يستعيد شخصيته الوطنية المستقلة، وأن يجسدها على أرضه.

ب - الدور الوطني للبورجوازية الفلسطينية ينبع من كونها في الشتات، إذ أنها « لا تجد مجالاً للتعبير عن طموحها السياسي في الإطارات الهيكلية للبلدان التي أقامت فيها».

ويوضح المحاضر ذلك: «وهذه الفئة أو الشريحة في بعض البلدان، كالأردن مثلاً، يندرج العديد من ممثليها السياسيين في إطار الطبقة الحاكمة الأردنية. لكنها في بلدان كالخليج على سبيل المثال، أو غيرها من بلدان المهجر، تجد تعبيرها السياسي في إطار منظمة التحرير الفلسطينية. وبالتالي،هي، بشكل أو بآخر،جزء من هذه الحركة الوطنية».

جـ - البورجوازية الفلسطينية في داخل الأرض المحتلة،تجد لنفسها مصلحة أساسية في أن تجابه الاحتلال، وأن تجابه مشاريع التوسع الصهيوني، وفي أن تفوز بحق تقرير المصير، والاستقلال الوطني».

د - كذلك البورجوازية الفلسطينية في البلدان التي تقودها البورجوازيات الوطنية

«وبالرغم من اندماجها في الحياة الاقتصادية لهذه البلدان، إلا أنها تجد تعبيراً عن مطامحها السياسية في إطار منظمة التحرير الفلسطينية. وتتمايز عن البورجوازيات الوطنية الحاكمة في كونها تلتف حول هدف الاستقلال الوطني، وإبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية المستقلة».

هـ - تدفق الأموال على منظمة التحرير الفلسطينية خلق «شريحة جديدة من البورجوازية البيروقراطية، التي تتصف إلى حد كبير، بالسمات نفسها التي تتصف بها البورجوازية البيروقراطية في البلدان العربية التي قطعت خطوات إلى الأمام على صعيد تحقيق مهمات ثورتها الوطنية الديمقراطية».

الواقع أننا لا نستطيع أن نتوسع في التعليق، بل سنحاول أن نركز على نقاط أساسية.

النقطة الأولى:هي هذا الربط القسري بين طرف البورجوازية الفلسطينية في الشتات وبين المشروع السياسي الذي يتجسد في منظمة التحرير الفلسطينية. أصف هذا الربط بالقسرية لأن المحاضر نفسه يرى في خطوة عرفات - زيارته للقاهرة - تعبيراً عن إنحياز شريحة معينة من البورجوازية الوطنية الفلسطينية،إلى معسكر البورجوازية الكبيرة الذي هو مستعد،وكان مستعداً منذ البداية، للتعاطي مع مشاريع الحلول الأمريكية التي تطرح حلاً لقضيتنا الوطنية، هو دون مستوى حق الشعب الفلسطيني بالاستقلال في دولة مستقلة».

هذا يعني أن الإرتباط بين البورجوازية الفلسطينية وبرنامج م.ت.ف لم يكن حتمياً ، بل يعني أكثر من ذلك: أن استعدادها «البورجوازية الفلسطينية» الدائم كما يقول المحاضر- للإنخراط في المشاريع الامريكية يعني أن برنامجها السياسي لم يكن مطابقاً لمشروع الثورة الفلسطينية، بل كان يسعى، منذ البداية، إلى نفي مشروع الثورة. هذا هو معنى التعاطي مع الحلول الامريكية.

المحاضر يناقض نفسه، حتى في سياق المنطق الصوري. وطبقاً لهذا المنطق، فالمحاضر يقدم أطروحته، حول الإرتباط بين مشروع البورجوازية السياسي وبين م.ت.ف. على شكل مصادرة على المطلوب. أي أنه يقفز إلى النتيجة قبل وضع معطياتها، أو مقدماتها. بل سوف تجد أن المصادرة تذهب إلى أبعد من ذلك؛ إذ هي تتناقض مع المقدمات.

إن البرنامج السياسي لطبقة من الطبقات لا يتحدد بالحاجة إلى هذا البرنامج فقط، بل

بموقعها من العملية الإنتاجية، ورغبتها في تثبيت هذا الوضع، أو تجاوزه. فما هو موقع البورجوازية الفلسطينية من عملية الإنتاج، في البلدان التي تتواجد فيها؟

الواقع، أن مجرد كونها في المهجر قد جعلها – البورجوازية الفلسطينية ـ بلا جذور. كما أن طبيعة التكوين الإقتصادي لبلدان الخليج، لا تتيح المجال إلا لنشوء طبقة كومبرادورية. إن الصناعة ـ إنْ وجدت في هذه البلدان ـ فهي تابعة للدولة. يعود ذلك إلى أن انفتاح أسواقها على البضائع الأجنبية، بالإضافة إلى تعقد التركيب العضوي للصناعة، يجعلان المشروع الصناعي فيها مشروعاً خاسراً. إن كونها بورجوازية كومبرادورية يعني ارتباطها بالاقتصاد الامبريالي، لكونها وسيطة له داخل البلدان التي تنشط فيها. ولكن هذا وجه واحد من وجوه هذه المسألة.

البورجوازية الفلسطينية لم تنشأ في إطار سوقها المحلي، بل خضعت لعملية فريدة، تجعلها متمايزة عن بورجوازيات الدول النامية، أو غالبيتها. نستطيع تلخيص هذه العملية بالقول:إن السلطة هي التي تخلق الطبقة. والأمر ذاته ينسحب على البورجوازية البيروقراطية داخل منظمة التحرير: القيادة السياسية هي التي خلقتها. إن فرادة هذه العملية ناتجة عن كونها تتبع خطاً عكسياً لمجرى التطور التاريخي، حيث تخلق الطبقات ممثليها السياسيين وأجهزتها التي تخدم مصالحها.

يصدق هذا على البلدان المنتجة للبترول، كما يصدق – ولكن بدرجة أقل – على دول القطاع العام. بالنسبة للدول المنتجة للبترول، فلقد جاء المال بدون جهد إجتماعي منتج، واستولت عليه الفئة الحاكمة. فالمصلحة الأساسية للحكومات المنتجة للبترول، حيث البترول هو المصدر الوحيد للثروة، تكمن في استمرار تدفق المال. وتدفق المال له شروط سياسية واقتصادية تربط هذه الحكومات بالمعسكر الإمبريالي. إذاً، هنالك سلسلة تبدأ بالدولة الإمبريالية التي تستغل البترول، وتمر بالطبقة الحاكمة التي تنال نصيبها من عائداته ، إلى خلق إقتصاد طُفيلي يقوم على الاستيراد، وخلق طبقة تقوم بذلك؛ وهي سلسلة تجعل الإرتباط الأساسي للبورجوازية الفلسطينية بالدول البترولية هو إرتباط بالسياسة الإمبريالية.

هل يمكن الحديث عن برنامج سياسي لهذه الطبقة خارج هذا السياق؟ بالطبع، هنالك البرنامج السياسي الذي يربطها بمنظمة التحرير الفلسطينية. ما هو هذا البرنامج؟

إن برنامجها يتلخص في كونها تلعب دور الوسيط السياسي بين المشاريع الأمريكية و

م.ت.ف. أي أنها كومبرادور على المستوى السياسي. وهي تستفيد من هذا الدور باكتساب قوة إضافية في المراكز التي تحتلها داخل الدول النفطية. إنها تسيطر على م.ت.ف. ويمكن أن تستعملها سلباً كأداة لتخويف الدول النفطية، وابتزاز تنازلات منها، كما أنها تسعى لمنع الثورة الفلسطينية من التحول إلى ثورة جذرية، ومن أن تتحول إلى القلب المسلح للثورة العربية. ولا أود أن استفيض في الحديث عن هذه الموضوعات، لأنني سبق وتحدثت عنها.

والآن، هل يمكن ان نصف بورجوازية من هذا النوع، وبهذه المواصفات، بالبورجوازية الوطنية، ذات الملامح المعروفة؟ هل يمكن أن نطلق عليها النعوت نفسها التي ميزت البورجوازية الصينية بقيادة «صن يات صن» ، أو البورجوازية المصرية بقيادة سعد زغلول؟

إن مصالح البورجوازيات التقليدية في المجتمعات النامية، كانت تضعها، بشكل أو بآخر، في مواجهة الإستعمار. وبالطبع كانت تضعها في مواجهة دائمة مع شعبها. أما البورجوازية الفلسطينية في المهجر، فإنها جزء عضوي من كيان تقف الإمبريالية الأمريكية على قمته.

الفصل الخامس

هوية الفلسطيني

جاء الوجه الرومانسي للهوية الفلسطينية تعبيراً عن رؤية وأفكار كبار الملاك الفلسطينيين. الفلسطيني هو عاشق بساتين البرتقال، يحمل ذكرى ضوء القمر والحبيبة وصوت البلبل معه، أينما ذهب. والسياسة ذاتها وضعت في هذا الإطار: اليهود جاءوا لينتهكوا عرض الفلسطيني، فهاجر هرباً بعرضه.وعندما صرخت الفاتنة الفلسطينية: «وامعتصماه!» لم يهب الفارس العربي لنجدتها بل تواطأ مع الوحش الذي انتهك عرض الفتاة.

كل مَنْ عنده صورة عن الشعر والأدب الفلسطيني -والعربي الذي يتحدث عن فلسطين- سوف يتبين له أنني، في الفقرة السابقة، أعدت صياغة بعض الأبيات الشعرية لشعراء فلسطينيين، وبعض الموضوعات التي تحولت إلى قصص.

بعد فترة من الشتات الفلسطيني تغيرت الصورة، وظلت الخلفية:صورة الفلسطيني البطل المأساوي، وخيانة العربي. (والعربي هنا، هو الطبقات العربية الحاكمة، أما النية الفلسطينية – للطبقة الكومبرادورية- فقد كانت تشمل العرب جميعاً)... وراحت هذه النية تتبلور في شكل مقولات إيديولوجية:

- الفلسطيني كنعاني ليس عربياً؛
- العرب جميعاً خانوا فلسطين ؛
- على العرب ألا يتدخلوا في القضية الفلسطينية، وألا يتدخل الفلسطينيون في الشؤون الداخلية العربية ؛

ولم يلتفت المنظرون إلى أن من يعطي للكنعاني حقاً للعودة إلى فلسطين، يعطي لليهودي

الحق نفسه.إن الاعتماد على الأصول الأسطورية هو الذي برر اعتبار الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي صراعاً بين حقين متساويين: حق الكنعاني وحق اليهودي.

أما الأنظمة الرجعية العربية، وخاصة نظام السادات، فقد طرحت أيديولوجيتهم أيضاً:

ـ لقد أرهقتنا قضية فلسطين بدون أن تكون قضيتنا.

ـ الفلسطينيون هم الذين خانوا قضيتهم ـ باعوا أرضهم ولم يحافظوا عليها.

والدعاية المصرية أشارت، من طرف خفي، إلى أن الفلسطينيين في المعارك، كانوا يتعاونون مع الإسرائيليين. وهم الذين أتاحوا للإسرائيليين النفاذ من ثغرة الدفر سوار.

– الحل الأمثل أن لا نتدخل في الشؤون الداخلية للفلسطينيين، وألاّ يتدخلوا هم في شئوننا الداخلية. منظمة التحرير هي التي تمثل الفلسطينيين،وعليها أن تسلك كدولة منفصلة عنا.

أذكر أنني واجهت هذين المنطقين في اكتوبر ١٩٧٦ في مصر. الأمن المصري استدعاني وقال لي:

– بإمكانكم أن تهاجموا مصر كما تشاءون ولكن بينكم كفلسطينيين، ابتعدوا عن المصريين، وإلا فسوف نعرف شغلنا معكم.

وعرفوا شغلهم معنا، لأننا رفضنا ذلك. ووضعونا في السجن، ثم في الطائرة المسافرة خارج مصر.

والغريب أن هذا المنطق نفسه واجهنا به المسؤولون الفلسطينيون في القاهرة: لماذا تتدخلون في الشؤون الداخلية المصرية؟وساندوا إجراء طردنا من مصر.

لماذ التقى اليمين الفلسطيني والرجعية العربية في منطق واحد؟

الإجابة لأن الفلسطيني خطر على الإثنين، والإثنان متفقان على إضفاء هوية على الفلسطيني تنزعه من سياق الثورة، وتضعه في خدمة الرجعية العربية كلها،بما فيها الفلسطينية. فالفلسطيني يجسد الثورة العربية كلها. هذه هي هويته.

من هو الفلسطيني

أعرف مثقفاً فلسطينياً يعلن باعتزاز أنه يكره الأردنيين جميعاً، ويكره المسيحيين جميعاً.

قلت (يعلن) لأنني لا أصدقه. فمن الصعب على مثقف يعيش في عصرنا أن يعيش إحساساً بالكراهية على هذا المستوى من التعميم والإطلاق. وهو يضيف إلى هذا أنه يكره العرب، كل العرب، لأن الفلسطيني ليس عربياً. إنه كنعاني.

إنه يعتقد أنه بهذا الإعلان يكشف عن تجاوزه للجميع. إنه يثبت هويته كفلسطيني. يفعل ذلك من خلال (تطهيرها) من كل ما يعلق بها من شوائب (كتوحيد موقف الشعبين الفلسطيني والأردني، أو الانتماء العربي. أما الشائبة المسيحية فهو تأكيد لموقفه المعادي لحزب الكتائب اللبناني).

إنه يؤكد هويته كفلسطيني من خلال السلب. وهو لا يكترث كثيراً أن تأكيد الهوية بالسلب (بالدم ونقاء العرق، والانتماء إلى ماض سحيق) يجعله يكرر المنطلقات نفسها للصهيونية، وحزب الكتائب، والفلسفة النازية.

مثل هذه الرؤية تشيع بين الأقسام المتخلفة من السكان، أو تلك الفئات التي يسميها (إنجلز) بالبروليتاريا الرثة. ويصفها بالحشرات المتكلسة، وهي تشكل دوماً رصيداً للثورة المضادة.

في رواية لي عنوانها (سلطانة) هذا المشهد :

أحست الخورية أنهم يهزأون بها، فحاولت تغيير الموضوع:

- والله البنت هذي أميرة غير ربنا يسخطها.

لم ينطل على أحد هذا التملص الساذج، فانطلقوا يضحكون. سألها صبح، بوقار مصطنع، عن السبب الذي يجعل الرب يسخط أميرة، فقالت الخورية بعصبية:

- بذختْ. الفلسطينيين لما بذخوا ربنا سخطهم.

وكانت هذه الفكرة شائعة بين المتقدمين في السن من أهل القرية. لاحقها صبح:

- وكيف بذخوا الفلسطينيين يا خورية؟

بدت المعاناة واضحة في وجهها المدور الصغير، صمتت وفمها الخالي من الأسنان يتحرك في محاولة فاشلة للكلام.كان الجميع يترقبون جملتها التالية لينطلقوا ضاحكين .قالت فجاة :

بذخوا. بشربوا سجاير.

لم يضحك أحد. كان الجميع ينظر إليها بعدم تصديق. كان أشدنا ذهولاً هو صبح. بلل

شفتيه وقال:

ـ لكن الأردنيين بشربوا سجاير.

أوضحت الخورية رأيها بزعيق: الأردنيون يشربون السجاير، أي نعم، بشربوا. ولكن بعد أن يلفوها بأصابعهم. أما الفلسطينيون فما زالوا حتى يومنا هذا يشترونها في علب جاهزة.

اعترض عودة الله، وأعلم أنه جاد في اعتراضه:

طيب، الموظفين في عمان بشربوا سكاير في علب.

ردت الخورية:

ـ مش كل الموظفين.

كان غباؤها يثير الضيق فعلاً. انصرف عنها الحاضرون، وسأل أحدهم عن موعد سفر أميرة، ولكن الخورية مضت تقول بعصبية وقد أخذ جبينها يمتلئ بالعرق:

ـ والموظفين إللي بشربوا سكاير هيك ـ وأشارت بكفها أنها تعني علب السجاير ـ كمان سخطهم ربنا. ماشيين في أسواق عمان مفاريع من غير حطة وعقال على روسهم، وراس الواحد مثل راس الحمار (ثم توجهت إلى صبح وقالت بانفعال شديد) والله كلامي، على أذنك يا جارة، هذاك اليوم شفتك وسكارتك طولها شبر.

في حديث هذه العجوز الخرفة، يتمايز الأردني عن الفلسطيني لأنه ـ أي الأردني ـ يستعمل الدخان المحلي ويلفه بيده. وهو تمايز يعود، في الغالب، إلى فقره. ولكنه تأكيد للهوية بالسلب. وهكذا يلتقي المثقف المتجاوز مع العجوز الخرفة.

ولكننا لم نجب على السؤال: من هو الفلسطيني؟

تحديد من هو الفلسطيني، هل هي مسألة أكاديمية؟

هي كذلك في بعض جوانبها. ولكن أي منهج أكاديمي نتبع؟

الذين يعتبرون الفلسطيني كنعانياً خالصاً، له خصائص نفسية وروحية وانحيازات ثابتة، لهم منهجهم الخاص. وهم كما قلنا يعتبرون الفلسطيني هو مَنْ يملك غريزة الكره المطلق لكل من:

أـ المسيحيين ب ـ الأردنيين جـ ـ العرب. حسب الترتيب.

وإذا كانوا لم يطلقوا عليها إسم الغريزة، فهم يرفعونها، على الأقل، إلى مستوى الخصيصة الموروثة.وإذا تذكرنا أن ظاهرة الأردني لم تستثر الا حديثاً، فهم يرفعون إلى مستوى الخصائص الموروثة موقفاً لم ينشأ إلا منذ جيلين تقريباً.

بالطبع، فالحديث عن أنماط حضارية وخصائص سلوكية موروثة، يتبع منهجاً بشّر به وإشاعه علماء الأحياء والإجتماع النازيون. وأشهر من بشّر به بين العرب، هم مفكرو حزب الكتائب اللبناني، ثم منظرو الكنعانية. ولكن علينا أن نلاحظ أن هذا المنهج تحلل على أيدي دعاة الكنعانية إلى أهبط مستوى عقلي يمكن أن يصل إليه فكر أو نظرية، إذ جعلوه يهبط إلى مستوى الهذيان.

الأيديولوجية النازية تملك تماسكاً ظاهريا. ولم يحدث قط أن فكرا جعل من الموقف تجاه ظاهرة عمرها أربعين سنة خصيصة فيزيولوجية.

كيف نفسر هذا الانهيار والتحلل العقليين؟

هذه الإيديولوجية الكنعانية هي الوجه السري للكومبرادور الفلسطيني،وهي تعبير عن موقف يتعلق بقيام واستمرار وجود هذه الطبقة.وذلك يعود إلى مجموعة من الأسباب،هي:

أ - أن البورجوازية الفلسطينية الضعيفة وجدت فرصتها في الشتات. إن الخروج من فلسطين قد أتاح لها فرصة نمو خرافية، لم تكن تتاح لها لو أنها بقيت في فلسطين. إن الاستمرار في وضع الشتات يخدم مصالحها، وقيام فلسطين متحررة يهدد بنهايتها. إذاً، فعليها أن تحافظ على وضع الشتات وجعله مستمرا؛

ب - أن وجودها في الشتات، ونموها السرطاني، ارتبطا بالقضية الفلسطينية، بقضية العودة. فعليها أن ترفع شعار القضية وتتظاهر بالعمل من أجلها. وعليها، في الوقت ذاته، أن تجعلها قضية شكلية، حتى لا تصل إلى نتائجها المنطقية، وهي - أي تلك النتائج - حالة ثورية تهددها كلياً؛

جـ - وانطلاقاً من مصالحها، كان على الطبقة الكومبرادورية الفلسطينية أن ترفع شعار «العروبة» بحيث يخدم - هذا الشعار - توسعها. وهو يعني في التطبيق العملي التحالف مع الأنظمة الرجعية العربية ضد القوى الثورية العربية. ولعل أوضح مثال على ذلك هو موقف الممثل السياسي لهذه الطبقة حين أعلنت م.ت.ف أن الثورة الفلسطينية تقف إلى جانب نظام النميري ضد ثورة الشعب السوداني.

من هنا نستطيع توضيح جوهر الإيديولوجية الكنعانية. إنها إيديولوجية سرية، وأتباعها لا

يذيعون جميع معطياتها. إنهم يلتزمون بتكتيكات المنظمة الصهيونية، التي جعلوها مثالهم الذي يحتذونه: أن يكون لهم موقف علني وآخر سري. العلني هنا هو إدعاء العروبة، والسري هو الوقوف في وجه القوى الثورية العربية.

إن انقسام عقل هذه الطبقة على ذاته، وعدم قدرتها على إنشاء نظرية متماسكة، يشير إلى أن بقاءها يرتبط بوضع عربي مترد، وأن نهوضاً ثورياً عربياً يعني اقتراب نهايتها.

الفصل السادس

الحوار ... وحرب القبائل

(١)

في فترات الازدهار العقلي والروحي ينتعش الحوار والجدل. ومن المعروف أن مصطلح الجدل ـ الديالكتيك ـ مأخوذ من أسلوب (سقراط) في الوصول إلى الحقيقة: لن تستطيع معرفة نفسك، أو معرفة العالم، إلا من خلال الجدل. كانت وسيلة (سقراط) للوصول إلى الحقيقة هي البدء بحوار يظهر فيه تناقض أفكار الطرف الآخر. وكشف التناقضات يؤدي – بالنسبة إلى (سقراط) ـ إلى نتيجتين:

الأولى : إلغاء المعرفة الزائفة.

الثاني : القلق العقلي الذي يجعل العقل يتوجه إلى البحث عن الحقيقة.

وأعترف أنني لو حاولت الوصول إلى جماليات الحوار فلن أزيد عن هاتين النتيجتين اللتين توصل إليهما (سقراط). الحوار وسيلة لأن يعيد الإنسان بناء أفكاره على نحو منسجم ومتماسك، ووسيلة، أيضاً، للقلق، تجعل الإنسان يسعى، بشكل جدي،للبحث عن الحقيقة.

ولعل هذا يفسر الأثر الكبير الذي تركه الحوار في الفكر. لعل من أبرز الأمثلة على ذلك: حوار ابن سينا مع (ارسطو) حيث نفى معظم مقولاته، وهو يتظاهر بتفسيره؛ وحوار الغزالي مع ابن سينا في (تهافت الفلاسفة) ورد ابن رشد عليه في (تهافت التهافت)، ثم تعقيبات ابن تيمية.

إن الازدهار الفكري العربي قد عبر عن نفسه بمجموعة من الحوارات. وكل من يقرأ موسوعات مثل (مقالات الإسلاميين) للأشعري، و (الملل والنحل) للشهرستاني، و (الفَرْق بين الفِرَق) يجد خصوبة وتنوعاً في الآراء في كل مسألة من مسائل الفكر. إن أنضج

مفهوم للجدل قدمه ابن رشد في (مناهج الأدلة) وهو يناقش مسألة حرية الاختيار عند المعتزلة والجبرية.

والحوارات التي كرس لها (ماركس) و(إنغلز) و(لينين) جزءاً كبيراً من جهودهم، إنْ لم يكن الجزء الأكبر منها ـ خاصة (لينين) ـ معروفة ولا تحتاج إلى تفصيل. وقد أصبح جزءاً أساسياً من كل مذهب فلسفي أن يضع نفسه في سياق الفكر الفلسفي. وذلك يعني بالطبع إجراء حوار وتحديد موقف من كل فكر فلسفي سابق.

إن هذا بالضبط هو ما كانت فصائل الثورة الفلسطينية تعمل على تجنبه. فهي تطرح اجتهاداتها باعتبارها منطلقة من فراغ، من منطقة الصفر.إن وضع الفكر. بالنسبة لهذه المنظمات ـ كان شيئاً أشبه بالفضيحة، التي ينبغي على العاقل الابتعاد عنها. وإذا ـ رغم هذا كله ـ اثار إنسان ساذج مثلي حواراً، فإن الرد الثابت:«ما كنا لنرد على هلسا لولا...».

ـ ماذا كانت نتيجة هذا كله؟

ـ لقد اختلط مفهوم الحوار بمفهوم الحملات الصحفية. أصبح لقاء قادة الفصائل يشبه إلى حد كبير اجتماع مشائخ العشائر، يضع في رأس مطالبه إيقاف الحوار تحت عنوان «إيقاف الحملات الصحفية». كيف يمكن أن نوحد جهودنا ضد الأعداء، ونحقق أهدافنا،مع وجود الحملات الصحفية؟!

ماذا يقابل هذا في علاقات التنظيم الداخلية؟ التحريض: نحن لا نخطيء والآخرون دائماً على خطأ. نحن المخلصون والآخرون ذوو نوايا سيئة. وهكذا يبنى جدار نفسي حول التنظيم يبعده عن الآخرين، ويخلق حائطاً إسمنتياً ضد كل تفاعل.ولا نبعد عن الحقيقة كثيراً حين نقول إنه في حين أن القبيلة أخذت تتحلل وتتفكك على أرض الواقع، فإنها تعيد إنتاج نفسها عبر التنظيم السياسي. بل إن المفهوم الذي أخذ يندثر للقبيلة، أخذ يستعيد نفسه عبر تشكيل مجموعات متماسكة تنتمي إلى العائلة أو القبيلة أو البلد – أهل غزة، أهل الخليل الخ...

كان لهذا كله آثار مدمرة على الثقافة.

ولكن، قبل ذلك كله: لماذا ألحت مؤسسة القبيلة في الوجود، رغم كل شيء؟

(٢)

عندما جئت إلى بيروت في عام ١٩٨٠، فاجأني الوضع الثقافي فيها. هنالك مواقف فكرية

وسياسية متعددة. وكل موقف منها له تطبيقاته اليومية وله إستراتيجيته وخطه السياسي. ورغم هذا فلا حوار بينها. كل طرف يكتب، أو يعبر عن وجهة نظره، وهو يفترض أن لا وجود لأحد غيره.

هنالك الأسلوب المعروف في طرح وجهة النظر أو إبداء الرأي. وذلك بوضعه في سياق وجهات النظر والآراء المطروحة حول الموضوع، موضع النقاش. بمعنى آخر إن وجهة النظر تكتسب بعدها الحقيقي باعتبارها حواراً مع الآخرين، واجتهاداً متمايزاً.

في الساحة الفلسطينية، الآراء تطرح باعتبارها حقائق، أولاً؛ وعلى أنها الكلمة الأولى والأخيرة، ثانياً. كما تبدو دائماً، وكأنها تصدر في عالم خال تماماً من وجهات النظر الأخرى.

وحاولت أن أخترق هذا الصمت المضحك، حيث يتظاهر الجميع بأن لا وجود لأحد غير المتحدث... فكانت النتيجة مجموعة من الشتائم... وكان أسلوب الشتائم أيضاً يحمل المدلول نفسه: «ما كنت لأهتم بالرد على غالب هلسا لولا أننا نمر في ظرف مصيري...الخ».

وحتى لا يسود الاعتقاد بأن هذا شأن الساحة الفلسطينية فقط، فسوف أورد مثالاً من كتاب صدر حديثاً بعنوان «حوار في علاقات الثقافة والسياسة» لفيصل دراج. وهو كتاب يحتوي على عدد من الحوارات بين عدد من الأدباء. في هذا الكتاب مقال للدكتور عبد الرزاق عيد تحت عنوان «الأيديولوجي والجمالي» يرد علي فيه، فيقول:

«لقد ترددت طويلاً، لأن غالب هلسا نقل الحوار من مستوى مناظرة الاختلاف المعرفي إلى مستوى مناظرة الإتهام الشخصي...». ثم يقول: «ورغبة منا في استمراره حوارا ديمقراطياً يترفع عن الإسفاف...» بمعنى آخر فإن عيد ما كان ليرد علي لولا غرامه الشديد بالترفع عن الإسفاف.

وكما حدث مع عبد الرزاق عيد فإن الكتّاب في الساحة الفلسطينية الذين «ما كانوا ليردوا علي لولا... » كانت ردودهم طويلة جداً وعصبية جداً.

أذكر أن الصديق صبحي شفيق كتب مقالاً، وهو في الرابعة عشر من عمره، وقدمه إلى مجلة (الكاتب المصري) التي كان يرأس تحريرها طه حسين. ولقد نشر طه حسين المقال وكتب رداً عليه. لم يقل طه حسين إنه ما كان يتنازل بالرد على طفل، بل امتدح المقال، وكتب رداً موضوعياً، ثم طالب صبحي أن يستمر في الكتابة.

فهل يعني هذا أن الذين ردوا علي هم أكبر من طه حسين، وأن ردهم مجرد تنازل أملته الظروف، لا شخصي الضعيف؟ مهما تواضعت، فلا أعتقد أنهم أكبر حجماً وأكثر شهرة مني. فما هو الدافع لهذه العبارة التي يبدأون بها مقالاتهم؟

حققت البورجوازية العربية منذ بداية هذا القرن، بعض المكاسب الاقتصادية، وأعطت أنظمتها الشكل الخارجي للنظام الديمقراطي الغربي، ولكنها عجزت عن خلق مفهوم الوطن. ظل الوطن طوائف وقبائل تعيد إنتاج نفسها داخل أطر النظام ومؤسساته.

والأمر الذي يثير الدهشة هو قدرة الأنساق القديمة –النسق الديني والطائفي والقبلي– على الاستمرار والتماسك. وعلى أن تعيد إنتاج نفسها في جميع المؤسسات، حتى الأحزاب السياسية.

إن نمط القبيلة، أو نسقها، هو السائد في الساحة المشرقية، بما فيها الساحة الفلسطينية.

(٣)

أذكر أن مجلة الحرية في عام ١٩٨١ قدمت محوراً عن (الأدب والقضية الفلسطينية). وقد شارك ـ كما أذكر في هذا المحور الأساتذة الياس خوري، فيصل دراج، هادي دانيال، وأنا. وكتب إلياس خوري يقول ـ كما أذكر أيضا ـ أن رفع القضية إلى مرتبة المقدس الذي لا يناقش، يحرم القضية الفلسطينية من التجدد، ولا يتيح لها أفقاً للتجاوز. وفي الأدب تتجسد القضية في بشر. ولا يمكن ان يرسم الأدب صورة للبطل المعصوم عن الخطأ. وناقش روايات الشهيد غسان كنفاني من هذا المنطلق.

وإذا بمجلة (الهدف) تنشر مقالاً، تحت اسم مستعار، تتهم فيه إلياس خوري بالمروق والخيانة، وهو، الذي يخفي مروقه تحت «الحطة» الفلسطينية، مارق لأنه انتقد غسان، ومارق أيضاً لأنه قال إن القضية يمكن أن تتجسد في الإنسان. إن هذا تقزيم للقضية وإعطاء الإنسان حجماً أكبر من حجمه.

وإلياس خوري كاتب لبناني معروف، حمل السلاح مع المقاومة الفلسطينية وأصيب خلال المعارك التي خاضها بإصابة خطيرة. وعندما خرجت المقاومة الفلسطينية من بيروت، تصدى إلياس ـ وفي ظروف صعبة جدا ـ للهجوم على المقاومة، وعلى الحركة الوطنية اللبنانية، كما أعلن انحيازه الصريح إلى الحزب الشيوعي اللبناني. وأصبح عضواً في هيئة تحرير مجلة «الطريق».ولكن هذا لم يشفع له، ولم ينقذه من تهمة الخيانة. فهو قد

انتقد غسان من منطلقات جمالية، لا سياسية.

إشارة إلى هذا الموقف، كتبت مقالاً في جريدة (السفير) تحت عنوان (حوار الطرشان)، قلت فيه : إن تجسيد القضية داخل الإنسان هو منطق ماركسي. واتيت بشواهد من (ماركس) و (إنجلز) و (لنين) على ذلك. أما المنطق الذي يرى أن تجسيد القضية في الإنسان هو إهانة للقضية، فهو منطق لاهوتي مبني على أسس مثل الجسد الخاطئ، والروح المفارقة، وأن الانسان خاطئ أساساً (الخطيئة الأصلية ومفهوم السقوط أو الطرد من الجنة).

ثم قلت إن غسان كنفاني كشهيد، ينال حبنا وإكبارنا، أما ككاتب، فهو معرض للنقد مثل أي كاتب. إن رد الفعل ضد نقد غسان باسم قداسة القضية هو رد فعل قبيلة، وليس رد فعل ثوري.

طبعاً جاء رد إلى السفير تخلى فيه كاتبه عن كل معيار علمي، وبدأ الرد بالقول: «ما كان لي أن أرد على غالب هلسا لولا...» واكتشفت أن هذه البداية هي مثل البكاء على الأطلال في القصائد العربية القديمة.

حين يكون هنالك حوار، فالمتحاورون يبدأون بهذا التقديم البارانويي، «نحن العظام جداً، أروع خلق الله، ما كان لنا أن نرد على الصغار لولا بعض الظروف العامة، المتعلقة بالقضية الخ...».

المهم أن الصديق حسن داود، المحرر الثقافي في السفير، قال لي:

- أرجوك لا ترد.

- لماذا؟

قال:

- ألم تسمع بالـ (١٧) و (١٨)، والأمن الموحد والأمن المركزي الخ...؟؟

- سمعت. ولكن ما علاقة هذا بقضية فلسفية خالصة؟

قال حسن:

- لا تسألني. إسأل شهداء هذه الاجهزة.

(٤)

لماذ تعيد القبيلة العربية إنتاج نفسها داخل منظمات الثورة الفلسطينية؟

والسؤال يظل صحيحاً حين نقول إن القبيلة تعيد إنتاج نفسها في المشرق العربي أيضاً، فلماذا؟

لنحدد، أولاً، السمات الأساسية للقبيلة. إنها نسق منغلق عن العالم، يرى في كل من لا ينتمي إلى القبيلة عدواً. عماد هذا النسق هو الزواج الداخلي والقرابة. ويبلغ إنغلاق هذا النسق حداً من القوة يصبح فيه الانفصال عن القبيلة يعني فقدان الهوية.

ومن الواضح أن فكرة الوطن والإنسانية لا وجود لهما داخل هذا النسق. يضاف إلى هذا أن منهج العلم،والرؤية الموضوعية ملغيان تماماً.القبيلة على حق،وكل من غيرها على خطأ.

من هنا نستطيع القول إن الحوار هو مفهوم غريب عن القبيلة. ولعله من الأمور الدالة أن عصر الحوار العربي العظيم - الحوار بين ابن سينا والغزالي، ابن رشد والغزالي، والمعتزلة والجبرية... الخ - نشأ داخل المدن العربية وفي جو ثقافي وروحي معاد للقبيلة. يكفي أن نذكر كأمثلة على ذلك هجاء أبي نواس للأعراب، والصورة القبيحة والمضحكة التي ترسمها (ألف ليلة وليلة) للبدوي.

في العلاقة بين القبائل يوجد الهجاء، أو الاتفاق على عدم التعرض. وفي عصرنا الحديث، يعاد إنتاج ذلك بالحملات الصحافية أو إيقافها.

نعود إلى سؤالنا. لماذا تعيد القبيلة إنتاج نفسها داخل المنظمات الفلسطينية والعربية؟

عندما أعلنت البورجوازية العربية ثورتها ضد الإقطاع والاستعمار، توقفت عند الخطوة الأولى. لم تكن قادرة ولا راغبة في إحداث ثورة جذرية. لهذا حافظت على جميع المؤسسات القديمة، بشكلها القديم. حافظت على استعباد المرأة، وعلى مؤسسة العائلة بصورتها الأبوية، وعلى مؤسسة القبيلة، باعتبارها النسق الإجتماعي الوحيد الذي يملك تماسكاً وثباتاً، وعلى المؤسسة الدينية لكونها عنصر توافق إجتماعي سريع وفعال.

كان جمال الدين الأفغاني يعي دور الدين هذا. ولكنه يراه غير كاف، ولا يستطيع على المدى البعيد أن يشكل نسقاً قادراً على احتواء الأمة. لهذا خرج برأيه الغريب: أن يتحول جميع

المسلمين إلى عرب ويهذا تحل الرابطة القومية بدلاً من الرابطة الدينية.وبهذا أيضاً يمكن خلق الوعاء القادر على استيعاب الأمة، وإفساح طريق التطور أمامها.

لقد رفض الخليفة العثماني هذا الرأي واحتفظ بالأفغاني شبه أسير في اسطنبول إلى أن توفي هناك.

نستطيع القول إن البورجوازية العربية عجزت عن خلق نسق يتجاوز نسق القبيلة، ولذا ظلت تعيد إنتاجها. أعتقد أن هذا صحيح في المشرق العربي، أما في مصر - وهي ليست موضوعنا الآن - فالمسألة مختلفة.

ولكن ما دامت البورجوازية العربية قد عجزت عن تجاوز هذا النسق، فلماذا لم يقم اليسار العربي بهذه المهمة؟

سؤال يستحق الإجابة.

التنظيم الثوري
والكفاح المسلح

تحريك الجماهير نحو تحقيق هدف سياسي موحد ليس امراً سهلاً، وخاصة بالنسبة لتنظيم سياسي ليس في السلطة، ويسعى، في الوقت ذاته، إلى استلام السلطة. فالسلطة ليست مجرد قوة مادية هائلة ينبغي هزيمتها ماديا ـ عسكرياً فقط؛ بل تراث سلبي ـ بالنسبة للتنظيم الثوري ـ بين الجماهير، كما إنها فعل عقلي وروحي يترك بصماته بعمق بين الجماهير. والمحصلة النهائية لهذا الفعل: أن الشعب، تحت ظل هذه السلطة، يعيش في احسن العوالم الممكنة. إن كثيراً من العقول الكبيرة قد شغلت نفسها بالبرهنة على هذه الحقيقة فلسفياً وادبياً. يكفي ان نذكر امثلة على ذلك اسماء لها خطرها في المجالين الادبي والفلسفي من امثال هيغل، لايبنتز، دستويفسكي وآخرين.

وهذا يعني أن على التنظيم الثوري، أن يبدأ من اقناع الجماهير بأنها لا تعيش في أحسن العوالم الممكنة؛ ثم الخطوة التالية أن هنالك أمكانية لعالم أفضل؛ ثم الخطوة الثالثة أنه يمكن العمل من اجل تحقيق ذلك العالم الأفضل من العالم الذي يعيشون فيه. وهذا يعني أن التنظيم الثوري لا يشكل، في وعي الجماهير، اضافة كمية، بل إضافة نوعية، يعيد عبرها صياغة الروح والعقل.

عند قيام الثورة الفلسطينية، شهدت اقبالا جماهيرياً كثيفا. ولم يتجسد ذلك الاقبال في الآلاف الذين التحقوا بالثورة فقط، بل في تحول اجهزة السلطة، وخاصة الجيش، إلى ادوات تعمل لصالح الثورة. هذا الظرف وضع قيادة الثورة اليمينية في مأزق حقيقي، حاولت ان تنجو منه، ونجحت في ذلك.

لا يمكن لثورة تلتف حولها جماهير بهذه السعة، وبالتوجه الذي كان سائداً آنذاك، إلا ان

تواجه مسألة خطيرة: وهي حسم مسألة السلطة. ولم تكن القيادة اليمينية مستعدة لذلك. ويعود ذلك إلى مجموعة من الاسباب:

- لقد ارتبطت القيادة اليمينية، منذ البداية، مادياً، وبالتالي، سياسياً، بالملكة العربية السعودية والدول الرجعية العربية الأخرى، مما حدّد خياراتها البعيدة المدى؛

- لو قامت الثورة الفلسطيبية بخطوة ثورية أساسية، كان عليها أن تبدل تحالفاتها. وهذا يعني فك الارتباط مع الانظمة، والتحالف مع الشعوب. لقد كانت القيادة اليمينية تسعى، هي ايضا، لأن تصبح نظاماً وقد حققت ذلك بسرعة وكفاءة مذهلتين. أما تحالفاتها مع الشعوب، فقد كانت تعني ارتباط الثورة الفلسطينية بالثورة العربية.ولم يكن فهم هذه القيادة لطبيعة المعركة مع اسرائيل، ولا فهمها لارتباطها بالثورة العربية، يتيحان لها ذلك.

- ان ثورة تضم اوسع الجماهير، في ذلك الظرف، كانت ستتجه يساراً. والتكوين الايديولوجي للقيادة اليمينية، بالاضافة إلى مصالحها المادية، جعلاها تتفادى نجاح مثل هذه الثورة، ذات الطبيعة اليسارية الواضحة.

(١)

لجأت هذه الثورة إلى عدد من التكتيكات التي تؤكد الهوية الفلسطينية، باعتبارها هوية معادية للعرب: العرب ضيعوا القضية الفلسطينية، وعلى الفلسطينيين ان يستعيدوها. وكان من الواضح أن شعار تأكيد الهوية الفلسطينية، كما طرحته القيادة اليمينية، كان بديلاً لشعار وحدة الجماهير العربية ضد الرجعية العربية. وقد كانت نتائج رفع وتطبيق هذا الشعار فورية. حدث انشقاق بين الجماهير الاردنية ـ الفلسطينية؛ كانت له نتائج مدمرة على مسيرة الثورة، وعلى وجودها في الاردن.

- ان غالبية أهالي عمان ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة. وهم اناس قد حرموا انفسهم من كل شيء حتى يستطيع الفرد منهم، وبعد عذاب وديون متراكمة، ان يبني له بيتاً صغيراً. وفي بعض الاحيان استطاع ان يملك سيارة؛ من افراد هذه الطبقة نشأت معظم الحركات السياسية، الثورية منها والوطنية. ومن خلال اجتذاب هذه الطبقة إلى الثورة، كان بالامكان التلاحم مع قلب الحركة الوطنية الاردنية.

فماذا كان موقف الثورة الفلسطينية من هذه الطبقة؟

لقد اساءت الثورة إلى المفاهيم العلمانية لهذه الطبقة التي استطاعت تجاوز الطائفية

والاقليمية، اذ انضم ابناؤها إلى احزاب بعيدة عن هذين الداءين، مثل الحزب الشيوعي الأردني، وحزب البعث العربي، وحركة القوميين العرب الخ. كما اساءت إلى تقاليدها النضالية، حين رفعت شعار الهوية الفلسطينية.

بالاضافة إلى ذلك فلقد انتهجت الثورة مجموعة من المواقف المعروفة التي هددت المصالح المادية لهذه الطبقة. فحين يخسر ابناء هذه الطبقة بيوتهم، فهم لا يستطيعون تعويضها، خاصة انه لم يكن هنالك اي افق اجتماعي لهذه الثورة.

لقد جعلت الثورة الفلسطينية من نفسها، خصماً لمصالح هذه الطبقة، ولاطمئنانها (على تواضعه)، فجعلت من السلطة الاردنية، القوة التي تحافظ على مصالح هذه الطبقة.

ونتيجة لهذا، فإن الزخم الشعبي الذي جعل من أدوات السلطة، أسلحة في يد الثورة، زال، فاستعادت هذه الادوات طبيعتها المعادية للثورة.

ـ لم تلتفت الثورة إلى مصالح الجماهير الاردنية والفلسطينية، اعني المصالح المادية. لقد اتضح منذ البداية، أن اتجاه الثورة هو خلق برجوازية طفيلية تنسجم مع الكومبرادور العربي والفلسطيني، ولم تحاول تعبئة الجماهير وضمها اليها. بدت الثورة وكأنها مشروع عبثي، فهي تحارب اسرائيل (وكان ذلك يسير في عد عكسي) بدون أفق انتصار منظور عليها، وهي تحارب النظام الاردني ولا تريد ـ ونظراً لعقليتها ومصالحها لا تستطيع ـ ان تكون بديلة عنه؛ كما أن منهجها السياسي كان تحويل الوضع السياسي من: شعب ضد السلطة، إلى فلسطيني ضد أردني.

(٢)

في مثل هذا الظرف، نشأت فكرة الكفاح المسلح، هذا الظرف الذي اتسم بسياسة العزلة عن الجماهير، والتفاهم مع الرجعية العربية، وتأكيد الهوية الفلسطينية باعتبارها ضد العرب.

بعد تجربة الاردن، أصبح هدف الثورة تبرير وجودها، في انتظار حل سياسي يقيم دولة فلسطينية، إلى ان انتهت إلى توقيع اتفاق مع فيليب حبيب بوقف العمليات العسكرية ضد اسرائيل، فإلى إجتماع الحمامات في تونس الذي طالب بإلغاء الكفاح المسلح كلية، وتحويل منظمة التحرير الفلسطينية إلى منظمة مالية، وقوة ضغط، مقتفية بذلك خطوات المنظمة الصهيونية في مرحلة من مراحلها.

وسوف اعطي مثالاً يوضح مفهوم الكفاح المسلح كوسيلة للضغط لا كفعل ثوري.

عندما انعقد مؤتمر القمة العربي في بغداد، في عام ١٩٧٩، لمعاقبة السادات، بسبب زيارته لاسرائيل وتوقيع اتفاقياته معها، وقفت السعودية ضد قرار قطع العلاقات مع مصر. وكان يمثل السعودية في المؤتمر الامير فهد، الذي كان ولي عهد السعودية، فوقف عرفات وقال له: «لا تحولوا شعبنا إلى مجموعة من القتلة».

وكان هذا يعني ان فهداً مهدد بالقتل، إن لم يوافق على قرار قطع العلاقات مع مصر. وربما كان يعني ان موقف فهد سوف يؤدي إلى موقف معادٍ من جانب الفلسطينيين. ولكنه لم يكن يعني ابداً دعم نضال الشعب السعودي ضد حكومته.

وبمعنى آخر، فإن الكفاح المسلح لم يكن عملاً جذرياً، عملاً ثورياً، ولكنه فعل للضغط السياسي. انه يرتبط بأخذ امتيازات ومكاسب من الانظمة الرجعية العربية مقابل حماية هذه الانظمة من (المتطرفين). ففي مؤتمر عدم الانحياز الذي انعقد في نيودلهي، في نيسان ١٩٨٣، قال امير الكويت مخاطباً الغرب:

«ان خفض اسعار النفط سيؤدي إلى تراجع العائدات. وهذا بدوره سيجعل الدول النفطية عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها ازاء حركات التحرر الوطنية. وسيترتب على ذلك ابتعاد هذه الحركات عن المواقف المعتدلة، الامر الذي سيهدد مصالح الغرب».

ان هذا القول يكشف اكثر من أي شئ مضمون تهديد عرفات للأمير فهد: ادفعوا لنا حتى لا نصبح متطرفين. الاموال التي تدفعونها لنا موظفة لخدمة الغرب، وبالتالي لخدمتكم، والا فإن الكفاح المسلح سوف يتوجه ضدكم.

مجلة « فتح » _ ٤/ ٣/ ١٩٨٥ » العدد ٢٨»

الفصل الثامن

الثورة الفلسطينية :
الواقع والآفاق

كان قيام الثورة الفلسطينية استجابة ورد فعل للظرفين الفلسطيني والعربي. والظرف الفلسطيني، كان يعتمد على طرح يرى أن القضية الفلسطينية هي قضية الدول العربية، أما الشعب صاحب القضية فما عليه إلا أن ينتظر الفرج من هذه الدول. وكان الظرف العام مناسباً لهذا الطرح. فقد انخرطت الدول المواجهة للكيان الصهيوني في شبه وحدة عسكرية هدفها مواجهة الكيان الصهيوني، وتكونت منظمة التحرير الفلسطينية في انسجام مع هذا التوجه. وكانت نبرة محاربة الاستعمار عالية وجادة.

أما الظرف العربي، فلقد كان الشعور الشعبي السائد هو أن التضحية بالحريات الديمقراطية وتحمل الصعوبات الإقتصادية هما ثمن لا بد من دفعه، لخلق أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط. وهزيمة «العدو تحتاج إلى بعض التضحيات». هذا ما كان يقال.

وجاءت هزيمة (١٩٦٧) لتكشف الكثير من الأوهام وبقسوة شديدة. الجماهير الفلسطينية والعربية، تبين لها أن الدول العربية انهزمت هزيمة ساحقة، وأن كل ما بنته من أوهام كان دفاعاً عن وجودها، وأن كل التضحيات التي بذلت لم يكن لها مبرر.

فما الحل؟

كان انطلاق الثورة الفلسطينية هو الجواب. على الشعب المسلح أن يواجه الكيان الصهيوني. وبدت الثورة الفلسطينية كقلب مسلح للثورة العربية.

ولكن كيف كان بإمكانها أن تكون كذلك؟

لم تكن الثورة العربية مقتصرة على محاربة الكيان الصهيوني، أو على الأصح، كان على الثورة العربية أن تتخطى عدداً من العقبات التي تقف في طريق قيام حرب شعبية ضد هذا الكيان. كان ذلك يحتاج إلى تغيير الهياكل الإجتماعية والسياسية التي اعتمدت حرب الجيوش التقليدية، ولم تكن قادرة على استيعاب أو قبول مفهوم الشعب المسلح.

المسألة الأخرى كانت تغيير العلاقات الطبقية القائمة، للسماح لقوى إجتماعية جديدة بأن تلعب دوراً أساسياً في الحياة الإجتماعية والسياسية. والمقصودة بالتحديد هي الطبقات الشعبية، والبروجوازية الصغيرة.

المسألة الثالثة هي أنه في وضع كهذا لا بد من جود مشروع ثقافي للثورة، نظرية تعالج طبيعة الثورة الفلسطينية، وعلاقتها بالثورة العربية، وتحدد استراتيجية كلية ضمن وضع عربي وعالمي معقد. كان المطلوب حسم مسائل من نوع: العلاقة مع الدول العربية التي تنشط الثورة في داخلها، ومع الدول العربية الأخرى التي تمول الثورة، العلاقة مع مختلف القوى الإجتماعية والسياسية في الوطن العربي، أساليب الكفاح المناسبة في الظروف المتنوعة الخ...

هذه هي الشروط الأساسية لإقامة علاقة عضوية بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية. فهل نجحت الثورة الفلسطينية في إقامة هذه العلاقات؟

الجواب بالنفي. ويعود ذلك إلى كون الثورة الفلسطينية قد واجهت مجموعة من الإشكالات: أولاً، أن الثورة العربية هي مجرد إمكانية بين الجماهير، ولهذا لم تكن تملك الأرض ولا المال اللذين تحتاجهما الثورة الفلسطينية. لامتلاك الأرض والمال كان لا بد من إيجاد صيغة ما للتعامل مع السلطات العربية التي تملكهما. طبيعة هذه العلاقة مع سلطات عربية متناحرة، كان لا بد لها أن تكون معقدة، متفاوتة بين الصداقة والتحالف، أو العداء التناحري.

وبكلمة أخرى، فإن الثورة الفلسطينية عندما واجهت إشكالية الأرض التي تنطلق منها، والمال الذي تحتاج إليه، فإنها لم تجدهما في كنف الثورة العربية، بل في كنف السلطات العربية. وقد دفعها ذلك إلى إقامة علاقات مع هذه السلطات تتراوح بين العداء الصريح والتحالف بهذا القدر أو ذاك.

تلك إحدى إشكاليات علاقة الثورة الفلسطينية بالثورة العربية.

الإشكالية الأخرى في العلاقة بين الثورتين هي في طبيعة كل منهما. فالثورة العربية كانت تملك عمقاً اجتماعياً كانت تفتقده الثورة الفلسطينية. ففي حين كانت الثورة العربية تواجه مجموعة من الطبقات ذات الامتداد العالي، فإن الثورة الفلسطينية كانت في مواجهة مباشرة مع احتلال خارجي. كان من الممكن اكتشاف العلاقة بين الثورتين لو كانت الثورتان تمتلكان رؤية نظرية شاملة. فتحالف غالبية الفئات الحاكمة مع معسكر الإمبريالية، الذي يقيم الكيان الصهيوني علاقة عضوية به، يرفع المشكلة الإجتماعية إلى مستوى المواجهة مع هذا الكيان، كما أن المواجهة العسكرية مع الكيان الصهيوني تضع الثورة الفلسطينية في صراع مع المعسكر الإمبريالي، وبالتالي مع الطبقات الرجعية العربية.

إننا، هنا، نبسط المسألة كثيراً، فالعلاقات بين جميع الأطراف أكثر تعقيداً. فالتحالفات تحمل تناقضاتها، كما أن المتصارعين يجدون على هذا النحو أو ذاك جسوراً تصل بينهم.

يقودنا هذا إلى الإشكالية الثالثة في العلاقة بين الثورتين. وتتجسد هذه الإشكالية في العنصر الذاتي للثورة الفلسطينية. نعني بذلك الرؤية الفكرية للقيادة الفلسطينية التي شكلت مجموعة خياراتها. الرؤية الفكرية لقيادة الثورة الفلسطينية كانت فكراً ذرائعياً (براغماتياً). المعطى الرئيسي في خياراته هو اللحظة الراهنة، دون توفر برنامج بعيد المدى، أي استراتيجية ثابتة لمرحلة كاملة، تحدد الخيار في اللحظة الراهنة، وتخضع هذا الخيار لاستراتيجية بعيدة المدى. بإيجاز، لم يكن للثورة الفلسطينية برنامج ثقافي يحدد طبيعتها واتجاهها وأهدافها، كما يحدد علاقاتها بالمحيط العربي الذي تتواجد في قلبه.

كانت رؤية القيادة الفلسطينية، إنطلاقاً من رؤيتها الذرائعية، تتجسد في محورين: الأول، محور الإقليمية الفلسطينية، والثاني تحديد خيارات ثابتة في علاقاتها مع الأنظمة العربية. والعلاقة بين هذين المحورين وثيقة. فالتزام الإقليمية الفلسطينية يعني قطع الروابط مع الثورة العربية، وتكريس علاقات ثابتة مع الأنظمة العربية.

هذا لم يكن يعني أن الثورة الفلسطينية لم تقم علاقة مع تنظيمات الثورة العربية. كانت تقيم هذه العلاقات، ولكنها تخضعها لعلاقاتها مع الدول العربية. في ضوء هذا يمكننا أن نفهم علاقاتها مع المعارضة السعودية أو العراقية مثلاً الخ...

ولشرح هذه المسألة علينا أن نطل على موقف الثورة الفلسطينية من المشروعين اللبنانيين:

الكتائبي والوطني. المشروع الكتائبي يرى في لبنان كياناً طائفياً، تتقاسم فيه الطوائف السلطة، حسب اتفاق تم في أربعينيات هذا القرن، على أن تكون الطائفة المارونية هي السائدة. أما المشروع الوطني فقد كان يهدف إلي إقامة دولة علمانية، تلغي إتفاق الأربعينيات، وتحل محله دولة عصرية لا أثر للتقسيم الطائفي فيها.

لقد كان موقف الثورة الفلسطينية من المشروعين، كبير الدلالة. لقد وقفت ضد المشروع الكتائبي الطائفي، ولكنها دعمت الطائفية في المناطق الوطنية، وعلى حساب الأحزاب العلمانية. فعلت ذلك إلى حد أصبحت الطائفية في لبنان هي السائدة،وأصبح على الأحزاب العلمانية أن ترضى بالدور التابع، بل إن الوضع تطور إلى حد أصبحت فيه الثورة الفلسطينية طرفاً في المشروع الطائفي، وأصبحت تحالفاتها قائمة على هذا الأساس.

هذا ما فعلته قيادة منظمة التحرير تأسيساً على ظرفها الخاص، وعلى الظرف العربي المحيط بها، وعلى الفكر الذي تحمله. إن موقفها الذرائعي الذي يرى الواقع معطى ثابتاً، ولا يستطيع أن يستكشف الإمكانيات الثورية الخصبة للثورة العربية، جعلها تتخذ مواقف وتتبع سياسات تهدف إلى تكريس الواقع القائم، أكثر مما تهدف إلى تغييره.

معطى الأرض ومعطى المال

لقد امتلكت الثورة الفلسطينية في لبنان خياراً حقيقياً يجعلها قادرة على صياغة حاجتها لمعطَيي المال والأرض، صياغة إيجابية. فلقد أصبحت الثورة الفلسطينية طرفاً في مشروع وطني علماني. يتأكد هذا عندما ننظر إلى الوضع اللبناني، في النصف الأول من السبعينات، نظرة دينامية، تدرس الوضع باعتباره صراعاً على مستويات ثلاثة: المستوى الإجتماعي والمستوى السياسي والمستوى العسكري.

غير أن الخيارات الداخلية الأخرى كانت حاضرة. أعني خيارات تمحور القوى الإجتماعية المتصارعة حول محاور طائفية ذات امتداد عربي ودولي. وهذه الخيارات بالذات هي ما رجحتها الثورة الفلسطينية، حينما نشطت في تأسيس وتدعيم منظمات طائفية، وفي تحجيم الأحزاب والاتجاهات العلمانية.

نتج هذا عن مجموعة من التحالفات العربية والدولية التي ترتبت عليها مجموعة من التغيرات الهيكلية داخل بنية الثورة الفلسطينية. فبعد التواجد في لبنان أصبح العامل المرجح في خيارات الثورة هو عنصر المال الكثيف والمربح. ومثّل هذا الخيار، الذي يلغي

العناصر الاستراتيجية الاخرى لمشروع الثورة الفلسطينية، التعبير الأكثر صدقاً والأشد دلالة على الطابع الذرائعي للثورة الفلسطينية.

ففي العلاقات على مستوى الدول العربية تم وضع المعيار المالي في المقدمة. فصيغت تحالفات لم تأخذ في الاعتبار الطابع الوطني المعادي للإمبريالية وللصهيونية وللرجعية العربية، بل كان الاعتبار الأول لعنصر التمويل. وفي العلاقات مع قوى الثورة العربية تمّ إخضاع هذه العلاقة للتحالفات مع مصادر التمويل.

لقد نتج عن هذا مسألتان لهما أهمية بالغة، فيما يتعلق ببنية الثورة الفلسطينية، وبمسيرتها:

المسألة الأولى: أن تيار المال الكثيف، المال السعودي والخليجي، قد خلق سياقاً جديداً داخل الثورة الفلسطينية، نعني به سياق البيروقراطية الطفيلية، التي لها مصالح تتعارض مع استمرار الثورة المسلحة. لقد تشكلت طبقة جديدة من أمراء المال وأصحاب المصالح الإقتصادية الكبيرة داخل الثورة الفلسطينية. ومثل هذه الطبقة لم يعد لها مصلحة في وضع السلاح في أيدي الفقراء الفلسطينيين واللبنانيين أو في التحالف مع قوى الثورة العربية.

ترتب على هذا تحالف بين مجموعة من المليونيرات الفلسطينيين وبين أمراء المال داخل بيروقراطية الثورة الفلسطينية. مثل هذا الوضع أفرز نتائج سياسية على المستوى العالمي، ونتائج إجتماعية داخلية. على المستوى السياسي: من المعروف أن الطبقات الطفيلية ذات امتدادات عالمية، وتحالفات تتراوح بين دور الوسيط ودور الشريك. وتجليات هذه التحالفات على المستوى السياسي هي تبني مشاريع التسوية الأمريكية.

أما النتائج الإجتماعية التي أفرزها تحالف أمراء المال الفلسطينيين مع المليونيرات الفلسطينيين، فهي أن الثورة الفلسطينية انقسمت في داخلها، إذ انفصلت الشرائح الثورية عن الشريحة العليا، وأدى ذلك إلى صدامات مسلحة معروفة.

المسألة الثانية، أن تيار المال الكثيف حمل معه المصالح والتوجهات السياسية للدول التي يأتي منها. وكانت أبرز النتائج لهذه المسألة هي إخضاع الكفاح المسلح لمشاريع التسوية، وتطورت المسألة إلى محاولات تصفية هذا الكفاح لصالح مشاريع التسوية.

والطابع الذي يسترعي الانتباه في مشاريع التسوية، أنها مشاريع غير قابلة للتحقّق.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما الداعي إلى ملاحقة هذه المشاريع ـ الأوهام ما دامت غير قابلة للتحقّق حتى في حدها الأدنى؟

يبدو أن المسألة الأساسية في هذه المشاريع التسووية هي الجو العام الذي تخلقه، والسياق الذي توضع الثورة الفلسطينية فيه. إن سياق التسوية يجعل الكفاح المسلح هامشياً وخاضعاً لمعطيات التسوية، كما أنه يحرر القائد السياسي من ضغط القوات المنخرطة في الكفاح المسلح. يتضح هذا من موقف الثورة الفلسطينية بعد الخروج من بيروت، إذ رافق مساعيها غير المجدية للتسوية قرار بسحب القوات من خطوط المواجهة مع العدو، وتوزيعها في البلاد العربية البعيدة. مما يعني إبعادها عن المواجهة المسلحة مع العدو. وعزلها عن التأثير على القرار السياسي.

كما يتيح مناخ التسوية فرصاً متعددة لتنمية رأس المال من خلال علاقاته برأس المال البترولي والإمبريالي. فالتنازل عن الكفاح المسلح وعزل الثورة الفلسطينية عن قوى الثورة العربية يستحق مكافآت سخية. وكذلك الأمر مع تبييض الصفحة السوداء للرجعية العربية . «أذكر أنه خلال حصار بيروت كانت التوجيهات الإعلامية تتلخص في امتداح السعودية!.. والإشادة بدورها في إنقاذ الثورة الفلسطينية المحاصرة، ومهاجمة الإتحاد السوفييتي الذي لم يتدخل عسكرياً ضد الغزو الصهيوني!».

معطيات الحاضر

تتعرض الثورة الفلسطينية لهجوم واسع وعنيف، حالياً، في معقلها الرئيسي في لبنان، كما تتعرض الجماهير الفلسطينية هنالك لخطر الإبادة. وعلى الثورة أن تخرج بالدلالات الحقيقية لما يجري.

الدلالة الأولى، هي أن القيادة اليمينية لمنظمة التحرير الفلسطينية ما زالت تلعب اللعبة الطائفية، رغم أن الماضي ما زال حياً في الأذهان. فالقيادة اليمينية هي التي أنشأت منظمة أمل الطائفية بهدف ضرب الحزب الشيوعي اللبناني، وهي التي دعمتها، وما تزال حتى الآن تدعم بعض أجنحتها. إن الانتقال إلى الطوائف الأخرى لمواجهة أمل سوف يعيد إنتاج الوضع الماضي. ففي فترة مقبلة سوف تقوم الكتائب بمهاجمة الفلسطينيين رغم التسهيلات التي تمنحها حالياً للقيادة اليمينية.

الدلالة الثانية، أن الدوَران في مستنقع الطائفية، وكذلك تاريخ الطائفية القريب، يشير إلى أن المحصلة النهائية لكل حركة طائفية هي التحالف مع أعداء الثورة الفلسطينية:

الإمبريالية والصهيونية. فالتحالفات القائمة على أساس طائفي سوف ترتد على أصحابها مثلما حدث حين أنشأت القيادةُ اليمينية حركة أمل.

الدلالة الثالثة، أن كل حركة طائفية هي في جوهرها الإجتماعي حركة رجعية. فهي توحد الطبقات الإجتماعية المتصارعة، وتوجه الفئات الشعبية في كل طائفة ضد الفئات الشعبية في الطائفة الأخرى. أي أنها العائق الأساسي أمام تبلور الطبقات الكادحة كقوة إجتماعية سياسية تسعى إلى تحرير نفسها من عسف الطبقات المسيطرة.

الدلالة الرابعة، هنا، هي أن الظاهرة السلبية، وهي هنا الطائفية، تشير تلقائياً إلى الظاهرة الإيجابية الكامنة، والتي تنتظر الفرصة المناسبة لتعبر عن نفسها، أعني الظاهرة العلمانية في لبنان، التي تمثل الفئات الكادحة. إن هذه هي البذور القادرة على إنقاذ لبنان من ورطته، وعلى أن تكون الحليف الحقيقي والثابت للثورة الفلسطينية التي تلتزم الكفاح المسلح، وتسعى لأن تكون جزءاً فاعلاً في الثورة العربية ذات الافاق الجذرية.

إن المعضلة في قيام هذا التحالف بين الثورة الفلسطينية والقوى العلمانية والجذرية اللبنانية لا تكمن في الجماهير الفلسطينية، إذ أن هذه الجماهير متحررة إلى الحد الأقصى من الاتجاهات الطائفية والدينية. إنها علمانية بطبيعة ظروفها. ولكن العلة تكمن في القيادة اليمينية لمنظمة التحرير الفلسطينية التي ثبتت رؤيتها في معالجة العلاقة مع القوى اللبنانية المختلفة عند الأبعاد الطائفية.

مثل هذا الموقف، يستلزم إعادة النظر في السياسة الذرائعية لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وتحديد استراتيجية ثابتة للثورة الفلسطينية، تهدف إلى دعم الاتجاهات العلمانية الجذرية داخل الساحة اللبنانية. إن النظرة الذرائعية سوف تحقق في هذا المجال مكسباً سريعاً. فالابتعاد عن الطائفية سوف يجعل الثورة الفلسطينية تبدو وكأنها معزولة. وهذا صحيح في البدء، ولكن النظرة الاستراتيجية البعيدة المدى، المؤسسة على مشروع ثقافي ثوري وحقيقي، سوف يؤكد أن هذا هو الحل الصحيح.

نقاش حول النواة الثورية

في لقاء مع الاستاذ هاشم علي محسن، جرى الحديث حول المقالتين اللتين نشرتهما عن النواة الثورية. وقد أبدى الاستاذ هاشم بعض الملاحظات الهامة. قال:

أ ـ النواة الثورية تعني التأسيس لتنظيم ثوري، ولكنني في حديثي عن النواة الثورية

ذهبت إلى ابعد من ذلك، اذ أصف الشكل الضروري للنواة الثورية، وكذلك المهمات المنوطة بها. وقد اقترح كلمة تجمع بين المصطلحين، وهي البؤرة الثورية.

أعتقد أن هذه الملاحظة صحيحة. ولكنني اعتقد، أيضاً، أن الفصل بين مرحلتي التأسيس وقيادة الجماهير بواسطة الطليعة الثورية غير ممكن واقعيا. عندما كتب لينين كتابه «ما العمل؟»، مثلاً، نراه حدد مواصفات تكوين حزب ثوري - أي مرحلة التأسيس - كما حدد مهمات هذا الحزب في قيادة الجماهير - هما مرحلتان بالفعل، ولكن المرحلة الثانية (الطليعة الثورية) متضمنة في الاولى.

وفي الساحة الفلسطينية نجد عناصر أيضا. بمعنى آخر، إن تشكيل النواة والطليعة الثوريتين لا يبدأ من فراغ.

ب - الملاحظة الثانية التي أبداها الاستاذ هاشم، اعتماداً على تجربة أبعد زمنياً وذاهبة في العمق، خلافا لتجربتي المحدودة؛ قال إن وصف ما حدث في بيروت بأنه حرب شعب ليس دقيقاً. فيجب الا نعزل الظاهرة عن معطياتها واهدافها، فخلال حصار بيروت التحمت الجماهير المتبقية في بيروت مع قوات الثورة، والقوات المشتركة، لأنها وجدت نفسها أمام اعداء وحلفاء الاعداء، أو أن تتعرض لمذبحة كتلك التي حدثت في (صبرا) و (شاتيلا).

وأضاف، أنه، بالنسبة للاهداف، لم يكن هدف القيادة الفلسطينية خلال الاجتياح ايقاف الزحف الصهيوني وصده، بل تحسين شروط التفاوض مستقبلاً، ومن مثل هذه المعطيات، الجاء الجماهير، قسرا، إلى وضع دفاعي. ومثل هذه الاهداف لا يمكن ان تكون حرب الشعب محصلتها.

ثم قال إن صورة قريبة من حرب الشعب هو ما حدث داخل المخيمات الفلسطينية في الجنوب خلال الاجتياح، وكذلك ما يحدث في القرى اللبنانية حالياً في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي. فسواء في المخيمات الفلسطينية خلال الاجتياح، او في القرى اللبنانية حالياً،كانت الجماهير وما تزال تملك حرية الاختيار.

وعندما تواجه الجماهير الفلسطينية واللبنانية الاحتلال فهي لا تفعل ذلك انصياعاً لاوامر سلطة متنفذة، ولا لانها لا تملك الا خياراً واحداً؛ بل بسبب خيارها الخاص.

وأنا أرى أن رأي الاستاذ هاشم صحيح. الجماهير تختار حرب الشعب بإرادتها الحرة، وبإرادتها الحرة، إيضاً، تصبح الذراع الصلب الذي يحمي الطليعة العسكرية

المقاتلة، والطليعة السياسية.ولكن هذا كله، فيما أرى، يؤكد مقولتي ولا ينفيها، إذ أن جماهير بيروت اللبنانية والفلسطينية تحررت من عبء قيادات تقمع وتضطهد، ولا تستطيع هذه الجماهير ان تتبناها أو ترفضها، فامتلكت حرية اتخاذ القرار. ان أسوأ لحظة في حياة المناضل هي حين يجد نفسه امام سلطة لا يستطيع ان يقف ضدها او معها، فهو ان وقف ضدها يجد نفسه في موقع واحد مع الاعداء، وان وقف معها فسيكون في خندق واحد مع سلطة تضطهد الشعب.

وهذا يعني ان جماهير بيروت تحركت بفاعلية عندما تخلصت من هذا الانقسام الداخلي، المؤدي إلى الشلل. من ناحية أخرى، كان امام جماهير بيروت خيارات اخرى غير الاندماج مع القوات المقاتلة، فقد كان بإمكانها ان تعود إلى الجنوب اللبناني، أو تنتقل إلى المناطق الامنة في بيروت، أو أن تذهب إلى بيروت، وأن تغادر لبنان كلها إلى سوريا. كل هذا كان متاحاً.

وهذا يعني أنه كان هنالك حد أدنى من خيار المواجهة والقتال امام هذه الجماهير، خاصة اللبنانية منها.

أذكر، خلال حصار بيروت، أنني كنت في منطقة الشيّاح، دخلت أحدى الشقق وتحدثت مع سكانها، كانوا جميعاً فخورين بالبناية التي يسكنونها، قالوا ان فيها اثنتي عشرة شقة، وأخذوا يحسبون بأصابعهم فلان، وفلان الخ... هنالك ثمانية شقق لم يغادرها اهلها، رغم ان ذلك بإمكانهم، قالوا لي: لن تجد بناية صامدة في الشيّاح كبنايتنا.

كانت هنالك امرأة طاعنة في السن، اعتقدت انها صماء، ولكن ما حدث أقنعني انها تملك حاسةسمع قوية، فقد انتفضت المرأة غاضبة وقالت: لماذا لم تحسبوني من بين الصامدين؟ اولادي في الجنوب وكان بإمكاني الذهاب اليهم.

أكد لها الجميع أنهم ذكروها من بين الصامدين، وأصرت هي أنهم أهملوها.

واستطيع أن أذكر العديد من الحالات المشابهة، التي تؤكد ان الجماهير قاتلت بقدر من الإرادة الحرة. بالطبع ان ثورة أكثر جذرية، و اكبراهتماماً بالجماهير، و أكبر تصميماً على، وذات اهتمام أكبر بالجماهير، القتال حتى النهاية، كان بإمكانه - وأنا واثق مما اقول - لا أن يؤدي إلى ايقاف الزحف الصهيوني، بل إلى هزيمته، ورغم هذا فإن الاشكال الاولية لحرب الشعب قد كلفت العدو من الرجال والمال اضعاف ما كلفته

الحرب التقليدية.

جـ - الملاحظة الثالثة التي ابداها الأستاذ هاشم علي محسن كانت حول ما قلته عن الكفاح المسلح في الساحة الفلسطينية، وقد قلت ان الكفاح المسلح في الساحة الفلسطينية اصبح المبرر الوحيد لوجود التنظيمات، لأنه من خلاله يمكن الحصول على الاموال العربية،وقد دعوت إلى اعتبار الكفاح المسلح الشكل الرئيس لحركة جماهيرية واسعة.

قال الأستاذ هاشم ان حالة التيئيس التي عمدت القيادة اليمينية إلى خلقها داخل صفوف الشعب الفلسطيني قد جعلت الكفاح المسلح هو الشكل الوحيد الممكن لأن تسترد الجماهير الفلسطينية ثقتها بقيادتها، ولكي تستمر الفصائل الفلسطينية في الحياة، وقد اعطى مثلاً على ذلك، إن احد الفصائل الفلسطينية قد انتهى تقريباً في عام ١٩٧٤، ثم استعاد قوته من خلال عملية انتحارية قام بها داخل الأرض المحتلة.

وأضاف، علينا، مع غياب الطليعة الثورية، ألاّ نطالب الآن بأكثر من ذلك.

كان فيَ نيتي، وما يزال، تخصيص حديث بكامله عن الكفاح المسلح. وسوف اورد هنا رأيي باختصار في المسألة، على ان أعود اليه، فيما بعد، بشئ من التفصيل.

نشأت المقاومة الفلسطينية بعد عام ١٩٦٧ وسط تيار شعبي جارف، ساخط على الهزيمة، ووسط جو رسمي عربي يسعى، أو يتظاهر بالسعي، إلى الرد على الهزيمة.

وإتسمت المقاومة في بدايتها بإقبال شعبي عربي واسع عليها، وباستقطاب جماهيري وعسكري، كما تميزت عملياتها الأولى باتساعها وفاعليتها، ولكن المقاومة الفلسطينية، أو قيادتها على الاصح، أخذت تبعد التأييد الجماهيري إذ طرحت قضايا، بشكل وفي وقت غير مناسبين،مثل الشخصية الفلسطينية المستقلة، مما أدى في كثير من الاحيان،وفي لحظات حاسمة، إلى تحوّل الجماهير التي كانت تسند المقاومة إلى جماهير تحمل السلاح ضدها.

الخطوة التالية كانت التخلص من الحشد الجماهيري المسلح. قال لي بعض العارفين، إن عشرات الالوف من المقاتلين الفلسطينيين قد انسحبوا من صفوف الثورة وذهبوا إلى أوروبا الغربية، خاصة المانيا الغربية، وكندا، ودول الخليج.

من الواضح أنه كان هنالك هدف مشترك بين الدوائر الغربية وقيادة المقاومة، وهو إبعاد

الفلسطينيين المؤهلين للقتال عن ارض المواجهة. كان ذلك يعني باختصار ان تتحول المقاومة الفلسطينية من حرب الشعب، إلى شكل منعزل عن الشعب (الفلسطيني والشعوب العربية) تبحث عن مبرر لوجودها (ووجودها يعني استمرار امتيازاتها). فلم تجد الا القيام بعمليات انتحارية متباعدة لتذكر الناس بها، ولتؤكد لدافعي الاموال العرب أنها ما زالت موجودة.

وكان هذا بالضبط، ما تريده الرجعية العربية، فتحول الثورة الفلسطينية إلى حرب شعب لا تهدد العلاقات العضوية بين أمريكا والرجعية العربية في المنطقة فقط، ولكنها تشكل مثالاً يحتذى للشعوب العربية في التخلص من رجعياتها.

اذاً، فالكفاح المسلح، المعزول عن قاعدته الجماهيرية، هو البديل لحرب الشعب، لهذا السبب رأيت ان الكفاح المسلح في شكله الحالي يتناسب مع الإطار الذي يحتويه، أعني منظمة التحرير الفلسطينية. إن وجود نواة ثورية وبالتالي طليعة ثورية، يجب، أو من المفروض أن يتجاوز هذا الشكل من الكفاح المسلح.

مجلة « فتح » - ٧ / ١ / ١٩٨٧ » العدد ١٠٧ »

القسم الثالث

مثقف م . ت . ف

الفصل التاسع

مثقف منظمة التحرير الفلسطينية

كنتُ في السابق أكثر تفاؤلاً مني الآن. إذ كنت أقول، وأصرح بذلك أكثر من مرة، إن الأنظمة العربية تقوم، كل عشر سنوات، بتصفية زهرة الأمة - كنت أعني الانتلجنسيا بالتحديد - تصفيتها جسدياً أو روحياً. يرافق هذا الحصاد الموسمي قيام إسرائيل بهجوم على الدول العربية ينتج عنه، داخل كل بلد عربي، مزيد من القمع، ومزيد من مصادرة الحريات، تحت شعار: كل شيء من أجل المعركة مع العدو.

الدوران متكاملان: الأنظمة تقتل خيرة أبنائها، وإسرائيل تقدم المبرر وتخلق الجو الملائم. المصالح، كذلك، موحدة. فالفئات والطبقات التي تسعى إلى تصفية الكيان الصهيوني، تعلم أن طريقها إلى ذلك يمر عبر تصفية الكومبرادور العربي.

لكن تفاؤلي السابق لم يعد له أساس. فلقد أصبحت تصفية الانتلجنسيا -بالمعنى الذي سوف نحدده بعد قليل- عملاً يومياً، روتينياً، بالنسبة للأنظمة العربية وإسرائيل. ولم تعد هذه التصفية تقتصر على الإعدام، والإغتيال، والطرد من العمل، ومنع السفر، ومنع النشر، بل تعدت ذلك إلى إجراءات حجر على الكتاب العربي ومنع دخوله، وإخضاعه لإجراءات استيراد وتصدير معقدة ومستحيلة، بما في ذلك الاستيلاء على نسبة تتراوح بين خمسين إلى ستين في المائة من ثمن الكتاب.

هذا فعل سيف المعز، أما فعل ذهبه فأشد فتكاً.

هذا موضوعٌ إنْ بدأنا به فإننا لا ننتهي. ولكنه ليس موضوعنا، وإنما أوردناه لنشير إلى أن

موقف منظمة التحرير الفلسطينية، بغالبية منظماتها، وبقيادتها اليمينية خاصة، لا تخرج،في موقفها من المثقف الفلسطيني والعربي، عن السياق العربي العام، بل تتمايز عنه سلباً.

تمايز م.ت.ف. في هذا المقام، أنها أشد ضراوة في محاربة المثقف العربي، وفي إفساده، من أي نظام عربي آخر. والمذهل في موقف المنظمة أنها لا تحارب المثقف فقط، بل تحارب كل تقني متميز في مجال السياسة والحرب والتكنولوجيا. الأنظمة العربية تتجه إلى استيعاب أنواع محددة من المثقفين والتقنيين، وإن لم تجدهم في بلادها تستوردهم من الأقطار العربية الأخرى، لأن ذلك ضروري لوجودها واستمرارها، أما م.ت.ف. فيبدو أنها ليست بحاجة إليهم.

في الوقت ذاته تستوعب م.ت.ف. أعداداً من أشباه المثقفين (وهو مصطلح سنشرحه بعد قليل). نلاحظ هنا لهفة الطرفين على هذه العلاقة. إذ كل طرف يبدو وكأنه مهيأ تماماً لاستقبال الآخر، والتلاحم معه.

لإيضاح أبعاد هذه المسألة ودلالاتها السوسيولوجية والسياسية، سنستعين بعدد من النظريات والآراء، أصحابها بالتحديد :«فلاديمير اليتش لينين» و«انطونيو غرامشي»، و «ديفيد رايزمان»، وبعض علماء الإجتماع.

شيء من التاريخ

حتى لا يحدث لبس في هذا الموضوع، أقول إننا نتحدث عن ديناميات طاردة أو مستقبلة تفعل فعلها في م.ت.ف. وفي أشباه المثقفين، ولا نتحدث عن مقاصد فردية. فإنه حتى وإن توفرت هذه المقاصد الفردية، فإن دلالاتها وأهميتها تبرز عبر دمجها داخل تلك الديناميات.

عندما ندرس هذه المسألة عبر النقاش حول كل حالة وحدها سوف نضل. فقد يكون هذا أو ذاك هو المسؤول عما حدث وليس المنظمة. وقد تكون الخطيئة هي خطيئة ذاك الذي انسحب، أو يكون قد حدث ما حدث سهواً أو بدون تقصد. حين ينصرف بحثنا إلى منهج كهذا، فإننا سوف ننصرف إلى اكتشاف النوايا الفردية، أو المقاصد الخفية لهذا أو ذاك. عندها لن نكون قد قمنا ببحث سوسيولوجي، بل بمنوعات صحفية.

ما يهمنا، هنا، أن نؤكد أن تسعة وتسعين في المائة ممن يمكن أن نطلق عليهم صفة الانتلجنسيا الفلسطينية، هم خارج منظمة التحرير الفلسطينية، وأن تسعة وتسعين في

المائة من الذين يمكن أن نطلق عليهم صفة أشباه المثقفين، هم الذين يقومون بالدور المفترض أن تشغله الانتلجنسيا العليا والتقنيون ذوو التخصص العالي. هذه وقائع تشير إلى الديناميات التي سبق وتحدثنا عنها بوضوح فائق.

عند بداية الكفاح المسلح اندفعت نحو م.ت.ف أعداد كبيرة من المثقفين الفلسطينيين والعرب، ومن العسكريين ذوي التخصص العالي عرباً أساساً وفلسطينيين.ثم تم استبعاد هؤلاء كأنما بسحر ساحر. لا أحد يدري كيف، ولكن بعد مضي وقت قصير بدأت الهجرة المضادة.

سنورد هنا موقفاً مشابهاً حدث في فرنسا قبل ثورتها الكبرى، شرحه (الكسي دي توكفيل)، وقدمه ملخصاً الدكتور نديم البيطار في كتابه «المثقفون والثورة»:

«هنا تجدر الإشارة إلى ظاهرة مهمة في المرحلة التي تقدمت الثورة الفرنسية مباشرة. كان (توكفيل) أول من أشار إليها في القرن الماضي، في دراساته الكلاسيكية حول هذه الثورة. إن ظهور الانتلجنسيا السياسية الأولى كان يعود بقدر كبير إلى إجهاض حركة تصاعدية كان يتمتع بها المفكرون آنذاك... فأعمالهم ومهنهم كشفت في البداية عن توفر إمكانات التقدم التصاعدي، ولكن هذا التقدم واجه فيما بعد سدوداً ارستقراطية حالت دون استمراره. فالارستقراطية حاولت استرجاع وتوكيد امتيازات كانت قد أهملتها سابقاً وتركتها تتقلص، وقد أساء هذا جداً إلى المفكرين. انحسار هذا التقدم، وليس الطريق المسدود في ذاته، مارس، كما يبدو، أثراً كبيراً في تحويل المفكرين إلى انتلجنسيا... هذه الظاهرة كانت تعيد ذاتها في الثورات الأخرى».

ولم تكتف منظمة التحرير باستبعاد الانتلجنسيا الفلسطينية والعربية وسد الطريق في وجهها، بل أشاعت جواً معادياً للثقافة من منطلق التأكيد على دور البندقية، باعتبار أنها المصدر الحقيقي والوحيد للفكر،مطبقين شريعة الساموراي :«لا تفكر،فالتفكير يصنع الجبناء».

وقبل أن نستطرد سنورد بعض الأمثلة التي قد لا يعرفها البعيدون عن الساحة الفلسطينية. من الأمور الملفتة للنظر أن غالبية المثقفين الفلسطينيين يعملون خارج إطار منظمة التحرير، وكذلك المع قوادها العسكريين وكوادرها السياسية الثورية.

كما قلنا، لم تكن الأمور منذ البدء هكذا. كان مركز الأبحاث التابع للمنظمة يضم مثقفين ودارسين لامعين، نذكر منهم: أنيس صايغ، ناجي علوش، صادق العظم، محمود درويش،

حسين أبو النمل، هاني مندس، الياس خوري وغيرهم، تم إبعادهم بواسطة الأجهزة الأمنية، وحل مكانهم من ينطبق عليهم وصف أشباه المثقفين.

حدث الشيء نفسه في مركز التخطيط. فقد كان يضم مجموعة بارزة من المثقفين، نذكر منهم: ميشيل كامل، طاهر عبد الحكيم، صبري حلاوة، نبيل شعث، مروان الفاهوم، صبحي طه، باسم سرحان، نبيل بدران، غالب جرار، جابر سليمان وغيرهم. استعيض عن هؤلاء بدراويش وأنصاف مثقفين.

بالنسبة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، فلقد تم الاستيلاء عليه، وقصره على أشباه المثقفين، سواء بواسطة الأجهزة الأمنية أو بالمؤتمرات الانشقاقية، غير الشرعية.

رغم أن هذه الأمثلة لا تقول كل ما حدث للمثقف الفلسطيني، فإنها تكفي للدلالة على هذه الدينامية. ولكن علينا أن نضيف هنا أسلوب التصفية الجسدية الذي اتبعته قيادة المنظمة. هنالك مثالان بارزان على ذلك، أعني، اغتيال الشهيدين ماجد أبو شرار وناجي العلي.

كيف نفسر هذه العلاقة بين منظمة التحرير والمثقفين، وكذلك علاقتها بأشباه المثقفين؟

الانتلجنسيا

كل علاقة تستلزم طرفين على الأقل. ولكن علينا، قبل أن ندرس العلاقة بين م.ت.ف. والانتلجنسيا الفلسطينية، أن نقدم تعريفاً لطبيعة الانتلجنسيا ودورها.

الانتلجنسيا أو المثقفون مصطلح فضفاض، فقد يعني جميع الناس، كما قوّل الاستاذ «محمود أمين العالم»، «غرامشي» حين يتحدث عن تعريف المثقف:

> «وفي تقديري أن أصدق تعريف هو ذلك الذي يقول به «غرامشي» وهو أن كل إنسان مثقف، وإنْ لم تكن الثقافة مهنته.ذلك أن لكل إنسان رؤية معينة للعالم، وخطاً للسلوك الأخلاقي والإجتماعي، ومستوى معيناً من المعرفة والإنتاج الفكري. كل إنسان مثقف إذن...».

ويعرفه غرامشي:

> « كل الناس مثقفون كامكانية، ولكنهم ليسوا جميعاً مثقفين بالنسبة لوظيفتهم الإجتماعية...».

ثم يتحدث عن المثقف العضوي باعتباره مثقفاً تفرزه الطبقة، ويقوم بمنحها وعياً متجانساً

بوظيفتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ولكنني أستعمل هذا المصطلح -خاصة وأن موضوع البحث هو الثورة - بالتعريف الذي قال به «جان بول سارتر»:

«العالم الذي يخرج من حدود علمه المتخصص إلى آفاق المصالح البشرية المشتركة».

ولكن هذا التعريف لا يستنفد المصطلح، كما أستخدمه هنا. لذا نضيف: إنه الإنسان القادر على خلق بُعد موضوعي بينه وبين ظروفه الخاصة، واستشراف واقعه والحكم عليه. يورد الدكتور نديم البيطار في كتابه «المثقفون والثورة» تعريف المفكر الماركسي الأمريكي «بول باران» للمثقف:

«... كناقد إجتماعي، كشخص ينشغل بالتحليل والتحديد، والمساعدة بذلك على معالجة الحواجز التي تقف في طريق نظام إجتماعي أحسن، وأكثر عقلانية وإنسانية. المثقف يصبح في دوره هذا ضمير المجتمع، والمتكلم بلسان القوى التقدمية كما تعبر عن ذاتها في كل مرحلة تاريخية...».

ويمتلك المثقف، حسب «باران»:

«الشجاعة والاستعداد لمتابعة البحث العقلاني إلى أي مكان يقود إليه، وممارسة النقد الجسور لأي شيء موجود، نقد جسور بمعنى أنه لا يتردد أمام النتائج التي يصل إليها، ولا أمام الصراع ضد السلطة القائمة».

إن المثقف هو رجل الأفكار المجردة، الذي لا يغرق في الواقع اليومي ويطالع الواقع بنظرة نقدية. يقول «شيلزنفر»:

« الذين يرغبون في الاحتفاظ بالأشياء كما هي لا يشعرون بحاجة إلى الأفكار، إذ يستطيعون الإعتماد على العادة والجمود».

سوف نتحدث بإيجاز عن الملامح الأساسية للتكوين الروحي للمثقف:

الأول : أنه يضع مثالاً عقلياً يسعى إلى تحقيقه في الواقع. وكل ما يتنافى مع هذا المثال يجب الغاؤه. لقد عبر «هيغل» عن ذلك حين قال:

«إن على الواقع أن يخضع للعقل، يتماهى معه. وأنه يجب تعديل الواقع حتى يصبح مطابقاً للعقل».

بمعنى آخر أنه ينطلق من فكرة أن الواقع لا يمكن قبوله أو الإنسجام معه.

الثاني : أنه إنسان غير متلائم، لأنه ينتقل من الواقع اليومي إلى عالم مصاغ عقلياً يلتزم به ويشكل هويته. وهذا ليس مجرد موقف ذهني ولكنه تكوين روحي. يقول «إلفن غولدنر» عن المثقف:

« أن المسرات التي يرغب في الوصول إليها هي من النوع الذي يعجز الواقع عن توفيرها، والمسؤوليات التي تعيش في داخله لا تتأثر بما يقدمه الواقع من إغراءات».

والثالث: لذلك فهو يعيش ذلك التوتر الذي لاينفك بين الوجود والمثال. إنه يحشد ما يسميه «فريز» «الطاقة الدافعة للأقلية» التي تعمل من أجل التغيير ضد «الثقل الميت الذي تمثله أكثرية الإنسانية».

الرابع : المثقف يقاوم الإندماج بالسلطة، سواء أكانت سلطة الدولة، أو الطبقة المسيطرة، أو سلطة الرأي العام. يقول «ريتشارد هوفستادتر»:

«ما يخافه المثقف أكثر من أي شيء آخر ليس الرفض والعداء اللذان تعوّد عليهما وأصبح يرى فيهما قدره الخاص، ولكن خسارة حالة الإغتراب. كثيرون يشعرون أن الإغتراب هو الموقف المشرف والملائم الوحيد الذي يجب عليهم اتخاذه.ما يثير خوف الكثيرين من المثقفين الشباب هو أن الإعتراف المتزايد بهم والاحتواء المستمر لهم واستخدامهم سيجعلهم منسجمين مع النظام القائم. فلا يعود بامكانهم أن يكونوا خَلاقين ونقديين أو ناقمين حقاً».

الإعتراف بدور المثقف جاء من أعظم ثوريي عصرنا، «فلاديمير اليتش لينين». لقد رفض الكسل العقلي المستند إلى فهم ميكانيكي للمقولة الهيغلية حول «نقيض الأطروحة»، ذلك الفهم الذي اعتبر أنه ما دامت الطبقة العاملة تشكل نقيض الأطروحة البورجوازية فهي، وبشكل عفوي، ستقود الثورة ضد البورجوازية، وتقيم المجتمع الإشتراكي.

لقد كرس «لينين» الجزء الأكبر من كتابه «ما العمل؟» لحسم هذه القضية. فقد قال بوضوح:

«إن المثقفين هم الذين سيقودون الطبقة العاملة نحو الإشتراكية»

و يرد «لينين» على «إتهام» «ابوتشيه ديلو» القائل إن خلافها مع صحيفة «الايسكرا» يدور حول «التقليل من أهمية العنصر الموضوعي أو العفوي في التطور». يقول «لينين»

«إن العنصر العفوي، ليس، في الجوهر، غير الشكل الجنيني للوعي».

ثم يضيف:

«أنه لا يمكن للعمال أن يحصلوا على هذا الوعي إلا من خارج نطاقهم».

ثم يقــول:

«أما التعاليم الإشتراكية فقد انبثقت عن النظريات الفلسفية والتاريخية والإقتصادية التي وضعها المتعلمون من ممثلي الطبقات المالكة.وضعها المثقفون. ان مؤسسي الإشتراكية العلمية المعاصرة، «ماركس» و«انجلز»، ينتسبان،أي من حيث وضعهما الإجتماعي، إلى المثقفين البورجوازيين».

ويتابع «لينين»:

إن كل تقديس لعفوية العمال، كل انتقاص من دور الوعي، دور الإشتراكية - الديمقراطية، يعني - سواء أراد المنتقص أم لم يرد، فليس لذلك أقل أهمية - تقوية نفوذ الإيديولوجية البورجوازية بين العمال».

يقول «كويستلر» ـمن موقف معاد للشيوعية ـ:

«إن اللجنة المركزية للحزب البولشفي كانت تضم ألمع فلاسفة ومفكري أووبا. ويقول «لينين» في مناظرة له مع روزا لوكسمبورغ»: «المثقفون يشكلون في حزبنا نسبة مئوية أعلى بكثير من الأحزاب الأوروبية الغربية».

المسألة التي تثير الإنتباه أنه، منذ بداية المرحلة الستالينية حتى الآن، هنالك تيار شيوعي يزداد قوة مع الأيام يرمي إلى إلغاء «لينين»، سواء في اعتباره السلطة هي القضية المركزية في النضال، أو في تأييده عدم حتمية المرور في المرحلة البورجوازية للوصول إلى الإشتراكية، أو في تأكيده للدور الحاسم الذي يلعبه المثقف في تحقيق الإشتراكية.

لقد تجمع كل الهجاء الموجه إلى أشباه المثقفين وأعيد توجيهه إلى المثقفين، فأصبحوا بورجوازيين صغاراً، ضيقي الأفق، راغبين في الخلاص الفردي، لا يمتلكون الصبر والدأب اللذين يميزان الطبقة العاملة، يفصلون بين النظرية والتطبيق... الخ. وكان هذا دليل تراجع الحركة الشيوعية عن أهدافها الثورية.

هنا يحين موعد طرح السؤال: ما هي دلالة تلك الديناميية التي تعمل داخل م.ت.ف. لطرد المثقفين من صفوفها بشكل عام، ومن هيئاتها القيادية على الأخص؟

نوجز الإجابة في عدة نقاط :

الأولى: إن قيادة فتح التي شكلت انطلاقة الثورة الفلسطينية وقيادتها، تتألف من أشباه المثقفين، بل من أكثر فئاتها تخلفاً، إذ كانت غالبيتهم من الإخوان المسلمين وجماعة حزب التحرير الإسلامي. وهؤلاء، بطبيعتهم، معادون للثقافة والمثقفين. إن بعض قيادات م.ت.ف. كانت تعتبر الثقافة عدوة للثورة، ولم تكن تسمح بأن يدخل كتاب إلى القواعد العسكرية سوى كتاب الزير سالم أو سيرة عنترة.

الثانية: إن هذه القيادة كانت تشعر أن تواجد المثقفين يهدد مراكزها، فكانت في حالة صراع دائمة معهم. حكى لي أحد الأصدقاء أنه تقرر إقامة أمسية يلقي فيها «محمود درويش» بعض قصائده في عمان. وقد احتشد آلاف للاستماع إليه. ولكن «عرفات» فاجأ الجميع بحضوره قبل «محمود درويش»، وأنه ألقى خطبة وشعراً ليسرق الأضواء من «درويش». وفي مؤتمر إتحاد الكتاب والصحفيين الأخير في الجزائر، والذي انعقد بشكل غير شرعي، كان «عرفات» يفاجئ المجتمعين بحضور غير متوقع، ويأخذ في إلقاء أشعار أمام الحضور، حتى أن «محمود درويش» أطلق عليه لقب الشاعر العام، بالإضافة إلى كونه القائد العام.

الثالثة: والأهم أن م.ت.ف. تشكلت ملامحها عبر انخراطها في سياق عربي رجعي. والتحامها بالمثقفين يعني تحويل بنيتها إلى بنية حركة ثورية. لم تؤكد م.ت.ف. إنتماءها إلى الكتلة الرجعية العربية «مصر، السعودية، دول الخليج، سودان النميري، المغرب... الخ» فقط، بل، وبقدر أكبر، جعلت من نفسها ممثلة للكومبرادور الفلسطيني. لهذا عنى التحامها بالمثقفين بتر انتمائها إلى هذه الكتلة الرجعية.

عندما لجأت م.ت.ف. إلى أشباه المثقفين، فإنها احتضنت الفئة المؤهلة للالتزام ببنية م.ت.ف.كما هي.سنورد فيما يلي، نصاً يفسر هذه العلاقة بين الطرفين.وبما أن موضوعنا الأساسي هو دراسة أشباه المثقفين، فسوف نعود إلى هذا النص فيما بعد، واضعين إياه في سياق أوسع.يقول أحد علماء الإجتماع السوفييت في مجرى حديثه عن أشباه المثقفين في العالم الثالث:

«إن القسم المتعلم من الشرائح الوسطى هو الذي يطرح تحديداً هذا النمط من الممثلين الخاصين لمن أطلق عليهم «ف. لينين» اسم «أشباه المثقفين». تتجلى الخصائص المحافظة والطفيلية لأشباه المثقفين في محاصرة النشاط الفكري التجديدي الإبداعي حقاً وفي

نشر سيكولوجية المستهلك العدواني. أعطى العالم السنغافوري وصفاً معبراً لسمات أشباه المثقفين في كتابه «ثورة الحمقى» وألقى التبعة، هنا، على الإستعمار. فالحمقى هنا، برأي العالم السنغافوري «س.الاتاس»، مجموعة متعلمة، مثقفة شكلاً، لكنها بعيدة مضموناً وداخلياً عن عمل وسلوك أهل الفكر، غير قادرة على طرح المسائل بشكل مستقل، تفكر وتفعل على مبدأ الحافز ـ الفعل. لكن ذلك الوصف لا يخص سوى قسم واحد من أشباه المثقفين. ذاك الذي بلغ، كقاعدة عامة، وضعاً إجتماعياً محدداً ويشغل مواقع محافظة. أما القسم الثاني فيؤلف في بلدان آسيا وأفريقيا، جمهوراً كبيراً من «المتعلمين الطموحين، غير المحظوظين، الذين فقدوا تقريباً الآمال التي وعدتهم بها الكتب» والذين يشكلون «جماعة ساخطة على النظام القائم». يشكل قسما أشباه المثقفين وجهين لعملة واحدة. فسقوط الثاني الذي قد يتخذ أصباغاً سياسية شتى، إنما تمليه التطلعات الاستهلاكية للقسم الأول».

هذا الاقتباس الطويل يعطي إجابة وافية على السؤال الذي طرحناه حول أسباب التحالف بين أشباه المثقفين وقيادة م.ت.ف. وهو يحتوي أيضاً على معظم النقاط الأساسية المتصلة بهذه الدراسة المخصصة لأشباه المثقفين.

أشباه المثقفين : نظرة أولية

يتميز أشباه المثقفين بأن كل معرفة لديهم معرفة دوغماتية، يجري تمثلها لتأكيد مقولات وأفكار سابقة وثابتة. «إن أشباه المثقفين ينفتحون على جميع المؤثرات... يكونون قادرين على إدراك بعض الأفكار، ولكنهم لا يمتلكون القدرة على امتحانها أو التحقق منها، ولا على إيقاف أحكامهم عليها أثناء ذلك الإمتحان»..

ويقول مفكر آخر عن أنصاف المثقفين إنهم يتوصلون إلى استنتاجاتهم عبر سياق غير عقلاني، فالتصورات القديمة تسيطر عليهم. وهم، في الغالب، في بحثهم ينتهون إلى آراء تبنوها بشكل مسبق، «إنهم يحكمون بدون وعي على جميع المسائل بقياس عقلي ينشأ من تربيتهم، ويتعاطفون مع الوقائع والأدلة بالقدر الذي تدعم به استنتاجاتهم المسبقة».

ولهذا السبب يقوم العداء بينهم وبين المثقفين، إذ أن المثقفين ينطلقون من كون جميع الأفكار والقيم والمفاهيم خاضعة للنقاش والتبديل. وهذا بالتحديد ما أشار إليه الإقتباس السابق:

«تتجلى الخصائص المحافظة والطفيلية أحياناً لجماعة «أشباه المثقفين» في محاصرة

النشاط الفكري التجديدي الإبداعي حقاً...».

ويصفهم «ماوتسي تونغ» بأنهم:

«يكونون عادة بعيدين ليس فقط عن المعرفة الناضجة، الغنية، بل تكون أفكارهم إنعكاساً للذاتانية، والتعصب والنمطية، أو التكرار المتواصل، شبه الميكانيكي لآراء مقبولة عن شخص أو قضية...».

كما يصفهم بالثرثرة الثورية، وبأن هذا النمط «يعتمد بوعي على إرهاب الآخرين بمزاعمه الفارغة» وأنهم «بعد قراءة بعض الكتب الماركسية يصبح هؤلاء الرفاق أكثر عجرفة..».

وعلينا أن نتذكر أن أنصاف المثقفين كانوا السند الأساسي للفاشية والنازية في مرحلة صعودهما، وهم الذين دافعوا بحماس عن «هتلر» و «موسوليني».

يتحدث عنهم «جيرار شاليان» :

« إن دور المثقفين الأساسي، وهو دور نقدي، لا يتحقق إلا في شكل محدود. ففي أكثر الأحيان يمارس المثقفون في العالم الثالث دور ماسحي الأحذية... وفي كثير من الأحيان يتحولون إلى أدوات ذليلة للسلطات والايديولوجيات، وللمساعدة على تغذية الخداع والتبسيطات والتعصب».

ما تطمح إليه هذه الفئة هو الصعود الإجتماعي والاقتصادي. هذا هو جوهر مسعاها. وسنورد، هنا، بعض الاقتباسات من كتاب «المثقفون والتقدم الإجتماعي» ـ وهو من تأليف عدد من علماء الإجتماع السوفييت وترجمة «شوكت يوسف» ـ.

«إذا كانت الطبقات القديمة السائدة (في العالم الثالث : غ.هـ) هي التي خلقت الشرائح المدينية الوسطى الجديدة، ففي هذا الوسط الإجتماعي تحديداً غدا يُنظر إلى التعليم الحديث كمؤشر وضمان للرفعة وتحسين الوضع الإجتماعي...».

ويضيف أنه تم إجراء استفتاء في الإتحاد السوفييتي شمل ١٦٠ طالباً أفريقياً من تسعة وعشرين بلداً، فاتضح أن هنالك باعثين لاختيار مهنة المستقبل: الرغبة في إرضاء الميول الشخصية، والقيمة الإجتماعية للمهنة «وفرصة تأمين دخل جيد». ويقول إن اشتهار مهنة ما هو «تعبير عن آراء وقواعد فكرية سائدة في مجتمع ملموس»... ويلاحظ :

«أن الميل الفردي المحض نحو نمط معين من النشاط العملي محبّب أو مفضل يتراجع أمام الشهرة لمهنة محددة أو النظرة الإجتماعية الغالبة بصددها»..

ويقول الكتاب في مكان آخر:

«يتكون لدى الانتلجنسيا المتصعلكة، نمط معين من التكوين النفسي الإجتماعي. فتحت تأثير أوهام محافظة، يفضل الكثير من الأخصائيين من حملة الشهادات العليا، إما الوظيفة وإما البطالة، على العمل في المصنع أو الورشة التي يمكن أن تتطلب أحياناً حتى مؤهلات ومهارات تقنية عالية ... يترسب في أعماق التكوين النفسي للانتلجنسيا المتصعلكة إحساس بأن الموظف الإداري، ذا الياقة البيضاء، يشغل درجة محددة في سلم التراتب الإجتماعي، وأن له سلطة على آخرين، ويمكنه مستقبلاً تعزيز مواقعه وارتقاء درجات السلم».

ويلاحظ الكتاب أن تكويناً نفسياً كهذا ساعد، في أقطار الشرق النامية، على استخدام الاخصائيين في مجالات بعيدة عن المؤهلات التي يحصلون عليها نتيجة الدراسة والتدريب. ففي «تايلاند اكتشفت هيئة البحوث أن أكثر من ٥٠٪ من المهندسين والتقنيين العاملين في الشركات الخاصة والقطاع الحكومي لا يعملون حسب اختصاصاتهم».

يشكل قطاع أشباه المثقفين مجموعة كبيرة الحجم، تتزايد بمتوالية هندسية. فهي تضم خريجي الجامعات والمعاهد المتوسطة والعليا والذين أنهوا دراستهم الثانوية، ومدرسي الابتدائي والثانوي وبعض مدرسي الجامعة. وهذا القطاع يتسع لما لا نهاية ويطبع المجتمع بطابعه إلى حد كبير.

بعد أن حددنا بشكل مقتضب، الملامح الروحية الأساسية لمجموعة أشباه المثقفين، فسنحاول الآن إلقاء الضوء على وضعها في المجتمع ودورها فيه. تنفصل شريحة صغيرة منها، وتدخل ضمن إطار الدولة والسلطة المسيطرة. وتحصل، نتيجة لذلك، على امتيازات تحولها إلى طبقة محافظة وخادمة للسلطة. إلى هذه الشريحة ينتمي مثقف م.ت.ف. وسنعود، فيما بعد، إلى هذه المسألة بتوسع.

الجزء الأكبر من قطاع أشباه المثقفين هذا يقف بين حافة البطالة والظروف المعيشية المتدنية من جهة وبين الامتيازات التي يحصل عليها جناحه المحافظ المندمج في السلطة من جهة أخرى. هذا الوضع المتوتر بين القطبين يخلق حالة من الرفض والاحتجاج.

بكلمة أخرى، فإن هذا القطاع يشعر أن الطريق مسدود أمامه لأن دينامية الأجهزة العليا للسلطة والطبقات، تتجه إلى إغلاق الطريق من ورائها والإنغلاق على ذاتها. يؤدي هذا بدوره إلى عزلة السلطة عن الشعب. ومن شأن هذه العزلة أن «تخلق اللامبالاة إزاء مصير

الوطن أو الشعور بخيبة الأمل لدى الجمهور، ومعارضة صامتة للسلطة - معارضة من طبيعة غير عادية، غير ملونة بالألوان الحزبية وتتميز بغياب أية قناعات سياسية دقيقة وراسخة. ولهذا السبب تكون هذه المعارضة، في الأزمات والظروف الصعبة، عرضة لشتى التأثيرات المتطرفة - ووسطاً مواتياً لنمو نزعات التطرف اليميني واليساري».

ويصف كتاب «المثقفون والتقدم الإجتماعي» دينامية انغلاق السلطة على ذاتها بالقول:

«.... يمكن أن نلمس بوضوح العلاقة التالية : كلما تحجمت وتقلصت في هذا القطر أو ذاك مؤسسات الديمقراطية التمثيلية، تجلى بوضوح اتجاه الانغلاق على المستويات الإدارية والاستشارية والتنفيذية لفئة البيروقراطية مع صلاحيات كبيرة في المجال المهني والسياسي أيضاً. وكثيراً ما يزاوج هذا النمط من التكنوقراطيين بين الوظيفة والمشاركة في الصفقات والأعمال التجارية الخاصة »...

إن حالة التوتر التي تعيشها جماعات أشباه المثقفين، للأسباب التي ذكرناها، وتوفر أكثرية صامتة تعاني خيبة الأمل، يجعل من هذه الشريحة من أشباه المثقفين، تلعب دوراً إيجابياً ضد السلطة. وقد يصبح دوراً ثورياً.

يلعب أشباه المثقفين، خاصة معلمو المدارس، دورا حاسماً في نقل أفكار المثقفين الثوريين إلى الجماهير. ننطلق هنا من أن الإنسان العادي لا يستطيع أن يصل إلى المستوى النظري التجريدي من خلال تجربته الخاصة. يعود ذلك إلى أن التجربة أولاً قد تؤدي إلى معارف لا تتطابق مع الحقيقة والواقع. مثال ذلك تفسير أسباب المرض والموت والظواهر الطبيعية والشر والخير... الخ. وثانياً، «لم يكن للتجربة أن تفسر الطابع الشامل والضروري للمعرفة البشرية. حتى الرابطة السببية بين ظاهرتين لا يمكن البرهان عليها بتكرار التجربة الفردية، مهما بلغ هذا التكرار؛ لأنه بالإمكان دوماً تصور إحتمال انحلالها، أي الرابطة السببية،مستقبلاً». وثالثاً أن المعرفة التجريبية تكون دائماً مسبوقة بمقولات ومفاهيم يتعذر على الإنسان العادي أن يستخلصها من التجربة.

والسؤال المطروح هو: كيف يقوم أشباه المثقفين بنقل الفكر الفلسفي والإجتماعي الذي يبدعه مثقفون خلاقون إلى الجماهير؟.

يقوم قطاع أشباه المثقفين بتحويل الفكر الخلاق إلى أيديولوجيا. يعني هذا أن يحدث نوع من التأويل يُعاد فيه إنتاج الفكر الفلسفي لينسجم مع المخزون الروحي والمفاهيمي الكامن في عقول أبناء الشعب، ومن ضمنهم أشباه المثقفين. وهذا يعني إجراء تحويلات في الفكر الإبداعي.

يحدث، في بعض الأحيان، أن يصل هذا التحوير الأيديولوجي للفكر النظري إلى حد يعاد إنتاجه على شكل مناقض له. إن أيديولوجية غالبية الأحزاب الشيوعية العربية أعادت إنتاج أفكار «لينين»، فأصبحت أفكار خصومه المنشفيك.

يقول «ماركس»:

«العقول مرتبطة على الدوام بخيوط غير مرئية بجسم الشعب».

ويعلق كُتّاب «المثقفون والتغيير الإجتماعي» على ذلك في سياق حديثهم عن أشباه المثقفين:

«ومن هذه الزاوية تعد الشريحة الجماهيرية من الانتلجنسيا، دونما شك، الحلقة الوسيطة الأهم في هذا الرباط، الأكثر قرباً من الجماهير الكادحة، وحتى من حيث المنبت الإجتماعي في الغالب».

لقد أشار النقد الحديث، خاصة الفرنسي، إلى مسائل في قراءة النص الأدبي والفلسفي تحت عناوين: النص الكامن، التناص... الخ. إلى تسرب الأفكار والقيم الجمالية وغيرها إلى الكتابة بدون ضرورة إطلاع الكاتب على النصوص الأصلية المتضمنة تلك الأفكار والقيم. وقد يفيدنا هذا في دراسة أكثر توسعاً وشمولاً في فهم العلاقة بين النص الفلسفي ودور أشباه المثقفين في إشاعته، ولكن المجال لا يتسع لمثل هذا التفصيل.

يكفي أن نشير، هنا، إلى أن الفكر الذي تقوم بنشره هذه الفئة الواسعة يتحول إلى مجموعة من التبسيطات والشعارات الغوغائية وضيقة الأفق. ولكن يبدو أن هذه الوسيلة الوحيدة لإشاعة الفكر الثوري وجعل الجماهير تتبناه. وتلعب هذه الوظيفة دوراً بالغ الأهمية في تحديد الخيار الإجتماعي والسياسي المطروح أمام بلدان العالم الثالث، وفي قبول تغييرات هيكلية وأساسية في البنى الإجتماعية والإقتصادية والروحية.

يقول المرجع السالف الذكر:

«يؤلف الوسط المثقف الآنف الذكر، إلى حد كبير، الأساس الإجتماعي - النفسي الذي تنطلق منه المقولات النظرية - الفكرية والتعاليم الإجتماعية التي يطرحها ممثلو الانتلجنسيا الوطنية. إن الميول القومية، التقليدية الجديدة، الاتجاهات البورجوازية، الانشداد إلى الشعارات والمبادئ الاشتراكية - بكلمة واحدة كل هذا الخليط من العناصر الفكرية في الفكر الإجتماعي للبلدان النامية، إنما يتشكل في البداية في الوسط الثقافي القاعدي الذي يشكل حلقة وصل بين النشاط الفكري الرفيع وبين الجماهير الشعبية العريضة».

ويندفع قطاع أشباه المثقفين نحو الثورة عندما يصبح نجاحها شبه مؤكد،ويصبح أشباه المثقفين عناصرها الأكثر حماساً وتعصباً وضيق أفق، خاصة أنهم ينضمون إلى الثورة بشعور من الذنب لأنهم وقفوا لا مبالين تجاهها في البداية، فيتغلبون على هذا الشعور بتزمت وبولاء شبه ديني، لا يسمح بأي حوار أو انفتاح على الرأي الآخر.

ويصفهم «اريك هوفر» في كتابه «المؤمن الحقيقي»:

«... الشريحة المكونة من رجال يمارسون أعمالاً غير مستقرة، وذوي معرفة محددة، ويجدون في الانقلابات الاجتماعية فرصة كبيرة في توكيد ذاتهم. انهم يقدمون للحزب المنتصر قسماً من مناضليه الأكثر جسارة، وأكثرية من محققيه وبوليسه».

مثقف م.ت.ف: الأصول الطبقية

إن «المثقفين» الذين «صمدوا» في موقفهم الموالي، حتى النهاية، للقيادة اليمينية لمنظمة التحرير، ينتمون إلى أصول طبقية واجتماعية متشابهة. كما أنهم يتسمون بصفات متماثلة تستمد جذورها من علاقة البورجوازية الصغيرة الريفية بالسلطة. يمكن أن نذكر من هذه الصفات: الفهم، الولع بالمظاهر، التلوّن، وعدم القدرة على إقامة علاقات إنسانية حقيقية. ومن الملاحظ أن مثقفهم الوحيد، «محمود درويش»، قد اكتسب بسرعة قياسية، وعلى نحو عميق صفات أشباه المثقفين المحافظين. وسوف نتحدث عن «درويش» ببعض الاستفاضة فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وأود أن أبدي ملاحظة لا بد منها، قبل الاستمرار في الحديث. إنه، وإن كانت الأصول الريفية كما سنشرحها تحدد ملامح هذه الفئة إلى أقصى درجة، فإن هذا لا يعني أن نشأتهم تحدد مصير كل الذين عاشوا نفس ظروفهم. فهنالك العشرات أو حتى المئات من المثقفين الفلسطينيين والعرب الذين مروا في هذه الظروف نفسها، ولكنهم ارتفعوا عن مستوى أشباه المثقفين ولم يقبلوا دور «ماسحي الأحذية». لقد حدد «لينين» أكثر من أي مفكر آخر قدرة الإنسان -المثقف بشكل خاص- على تجاوز معطيات وضعه الطبقي والإجتماعي. بل إن وجود الحزب ذاته كحزب للطبقة العاملة يعتمد أساساً على هذا التجاوز.

نعود، الآن، إلى موضوعنا:

إن غالبية «مثقفي» م.ت.ف. هم من أصول فلاحية فقيرة أو بورجوازية صغيرة ريفية. وفي

الريف العربي عموماً، والفلسطيني خاصة، يتسارع نضوج الطفل أكثر بكثير من نضوج ابن المدينة. ولكنه - النمو أو النضج - ينغلق على مرحلة معينة، تتحدد فيها المفاهيم والملامح وترسخ، ويصبح التغيير أو التحول بعدها - في التكوين الأساسي - بطيئاً أو معدوماً.

يعود ذلك إلى أسباب خاصة بالمجتمع الريفي. الطفل في المدينة ينشأ بعيداً عن التجربة الإجتماعية للمدينة، إذ يعيش في عالم معلّب ومصفّى لا يعرف فيه إلا بعض المعلومات الأولية، وصورة وردية عن الحياة. أما في الريف فإن جميع العمليات الإجتماعية والإقتصادية تتم أمام عيني الطفل. فأمام الجميع، بمن فيهم الأطفال، تتم عمليات الزواج، والبيع والشراء، والخلافات بين العائلات والتصالح بينها، وزراعة الأرض وحصادها، وبناء البيوت... الخ. وبكلمة أخرى، فإن مجموع خبرة الحياة والمفاهيم التي تشكل رؤية الإنسان للحياة تتسرب إلى الطفل وهو لم يتعد سن العاشرة بعد.

وهناك مسألة أخرى، وهي أن الحياة في المخيمات الفلسطينية، لمن هم من أصول ريفية، لم تغير كثيراً من طابع العلاقات الإجتماعية والمفاهيم السائدة، وبالتالي من رؤية الريفي للعالم.

ومنذ سن مبكرة تتشكل لابن الريف رؤية خاصة للمدينة وللسلطة، تدمغه بطابعها مدى حياته. تكون المدينة بالنسبة له لا مجرد مكان آخر، بل مجموعة من المتع التي يطمع في الاستيلاء عليها ومجموعة من المكاسب. وفي داخله يشعر أن أهل المدينة أنفسهم أضعف، وأقل استحقاقاً لهذه المتع والمكاسب. وفي الوقت ذاته يشعر بمركب النقص والخوف من أهل المدينة. يصف «غرامشي» هذه الثنائية بالقول:

> «إن موقف الفلاح من المثقف مزدوج ومتناقض ظاهرياً. إنه يحترم الموقع الإجتماعي للمثقفين وكل موظفي السلطة. ولكنه، في بعض الأحيان، يعبر عن احتقاره لهم. يعني هذا أن عناصر غريزية من الحسد والغضب الجامح تخالط إعجابه».

هذا مصدر صفتين من الصفات التي ذكرناها: الفهم وعدم القدرة على إقامة علاقات إنسانية عميقة. فيصعب أن تقيم علاقة إنسانية حقيقية مع إنسان تخافه وتحسده وتحتقره. أما الولع بالمظاهر، فهو تجسيد لطموح البورجوازية الصغيرة إلى الصعود، والذي تجسده بأسلوب شعائري بأن تعرض نفسها بأقنعة الطبقات العليا.

يتبنى المثقف الريفي رؤية أهله الريفيين للسلطة. إن العائلة، أو حتى القبيلة، بأكملها،

تسعى إلى تصعيد أحد أبنائها إلى مركز في السلطة، باعتباره أحد أقنعة الصعود إلى أعلى. ولأنه يستطيع من خلال مركزه، أن يؤدي خدمة حيوية لأهله في الريف. إنني أعرف هذه الظاهرة جيداً سواء في القاهرة أو في عمان: العديد من الريفيين القادمين إلى ابنهم في المدينة، إنهم يأتون إليه كي يساعدهم على حل مشكلاتهم، أو الانتصار لهم ضد السلطات في القرى الريفية أو المدن الصغيرة.

لقد عبرت السينما المصرية عن هذه الظاهرة، مقيمة مفارقة بين توقع الريفي لحل مشكلاته وتهرب ابن القرية المرموق منه. كما نراها - أي الظاهرة هذه - في قصة «يوسف إدريس» «لغة الآي آي» ، حيث يشعر ابن القرية الذي صعد إلى مواقع الطبقة الجديدة أن أهل قريته يسعون إلى جذبه نحو بؤسهم.

يقول«غرامشي»:

« إن الفلاح يخطط على الدوام لان يصبح واحد من أبنائه على الأقل من طبقة المثقفين - قسيس بشكل خاص - ليصبح من الأعيان ويرفع المستوى الإجتماعي لعائلته، بتيسير وضعها الإقتصادي من خلال العلاقات التي سيقيمها الابن حتماً مع فئة الأعيان».

ويتحدث «غرامشي» عن «مثقفي النمط الريفي» أنهم:

«في غالبيتهم (تقليديون)، إذ هم مرتبطون بالكتلة الإجتماعية لأهل الريف والبورجوازية الصغيرة لمدن الأقاليم (خاصة المدن الصغيرة) التي لم يجر تحويلها وتحريكها بواسطة النظام الرأسمالي. هذا النمط من المثقفين يشكلون الصلة بين جماهير الفلاحين والسلطات المحلية والدولة (من أمثال المحامين وكتاب العدل...الخ). بالإضافة إلى هذا فإن المثقف (القسيس، المحامي، كاتب العدل، المعلم، الطبيب... الخ) يعيش مستوى من الحياة أرفع، أو على الأقل مختلفاً، عن مستوى حياة الفلاح العادي. ونتيجة لهذا فهو يجسد مثالاً إجتماعياً يتطلع إليه الفلاح في طموحه للتحرر من وضعه أو تجاوزه».

من الواضح، هنا، أن «غرامشي» يستعمل مصطلح المثقفين intellectuals وهو يعني المثقفين وأشباه المثقفين، في حين أننا استعملنا مصطلح مثقفين كترجمة لمصطلح انتلجنسيا، وقد حددنا ما نعنيه به.

ثم أن توسع «غرامشي» في استعمال المصطلح لا يعنينا هنا. كل ما يعنينا هنا هو نمط التفكير والسلوك الذي ينسحب على أشباه المثقفين العاملين في مجال الإعلام والأدب.

المسألة الهامة والمتعلقة بموضوعنا هي أن الطابع الغالب لأشباه المثقفين الريفيين هو طابع التفكير التقليدي. إن ظروف الفلاحين في جنوب إيطاليا في بداية هذا القرن لا تختلف كثيراً عن ظروف الفلاح الفلسطيني، باستثناء بعض الخصوصيات الحضارية. والحديث عن النمط التقليدي والمحافظة لأشباه المثقفين ينطبق على البلدين. فما هي الأصول الإجتماعية والمفهومية وراء هذا الطابع المحافظ؟

إن الفلاح العادي يجسد طموحه في الارتفاع إلى مستوى المثقف الريفي. وعندما يتحقق هذا الطموح فإن أقصى ما يثير رعبه هو «الإنحطاط» إلى مستواه القديم. وقد تكشف لي هذا الهاجس المرعب عند أنصاف المثقفين في بيروت.

أذكر أنه عند مجيئي إلى بيروت في عام (١٩٨٠) خطر لي أن أدرس رؤية سكان المخيمات للشهيد. تصورت - وتبين لي أن تصوري كان صحيحاً - أن الشهيد، مثله مثل من يموت في قريتي الواقعة جنوب عمان، يظل حياً في الوجدان الشعبي حياة خاصة. ففي قريتي لا يموت الأموات تماماً، بل يشاركون في الحياة على نحو ما.

حاولت مرة أن أشرح ذلك لأحد الأدباء الألمان. قلت له: بين الشهيد عندنا وبين من يموت عندكم فرق هو كالفرق بين الصفر العربي والصفر الأوروبي. الصفر الأوروبي كقيمة (Value) يعني العدم، ولكنه عندنا مولد للأرقام والتكاثر اللانهائي. عندما نصف شخصاً بأنه صفر فإن ذلك لا يعني شيئاً إلا إذا أضفنا عبارة «صفر على الشمال».

أمضيت شهرين وأنا أسجل حوارات مع أهالي الشهداء ومعارفهم ونشرت جزءاً منها في مجلة «المصير الديمقراطي».كانت ردة فعل عدد من «المثقفين» الفلسطينيين مفاجئة وغريبة. فقد قالوا إنني أتصرف كسائح، وإنني أحاول ابتزازهم، وإنني أتسلى، إلى غير ذلك. أدهشني هذا الموقف، إذ لم أكن قد تبينت دوافعه. وأنا لم أكن أسلك كسائح، لأن حياة المخيم ليست غريبة على ابن قرية أردنية فقيرة، ولم يكن البيت الذي نشأت فيه أفخم من بيوت المخيم. ولم أكن من الأثرياء، فمرتبي آنذاك كان خمسمائة ليرة في الشهر. ولم يكن يكفي لنصف إيجار البيت- فما الذي آثار حنق هؤلاء السادة؟

أدركت فيما بعد، أن الذي أثار هؤلاء الأخوة، هو الرعب اللاواعي من «الإنحطاط» إلى مستوى المخيم. واكتشفت أن صلتهم بالمخيمات تكاد تكون مقطوعة. إن استعمال كلمة ابتزاز كان دالاً، إذ يشير إلى رعب شعائري ريفي من الهبوط إلى مصير تعس، كونهم أشباه المثقفين. ولكن ما أشار إليه «غرامشي» من الصلة بين أهل الريف يضاف إليهم أهل

المخيم هنا - والسلطة - م.ت.ف. - يظل صحيحاً. يكفي أن نراقب الظاهرة التالية،ونخرج منها بالنتائج المطلوبة.

إنه كلما برز مسؤول ذو أهمية في م.ت.ف. أصبح مركزاً لتجمع يتكون أساساً من أبناء قريته أو بلدته أو منطقته، مشكلين شبه حزب يسانده، ويستفيد منه. يقابل هذه الظاهرة دينامية إنغلاق بيروقراطية منظمة التحرير على نفسها ومقاومتها لكل دخيل. مثال ذلك، الأسلوب الذي اتبعه «عرفات» في أن يتم انتخاب القسم الأكبر من اللجنة المركزية لحركة فتح كقائمة موحدة، إذ لا يسمح بانتخاب شخص من هذه القائمة دون انتخاب بقية أفرادها.

من هنا يتحدد نوع الصلة بين «المثقف» الفلسطيني والجماهير: الاستفادة من العلاقة بجماهير منطقة «المثقف» مع إبقاء المسافة بين البيروقراطية والجماهير.

تتميز م.ت.ف. عن غيرها من الأنظمة العربية بأنها بنية غير إنتاجية، رغم أنها تملك أموالاً لا حصر لها. إن غياب البنية الإنتاجية جعل من المنظمة الشكل الأمثل لغياب أي معيار موضوعي في تقييم كوادرها، وأصبح للاعلام دور مبالغ فيه. فالإعلام -بالإضافة إلى الأجهزة الأمنية المستشرية- هو السلاح الأكبر والوظيفة الرئيسية للمنظمة التي تنازلت عن دورها العسكري والثوري.

إن الإسراف الجنوني في التعامل مع أجهزة الإعلام، التي تفتقد الكفاءة، يجسد دلالة هامة في العلاقة بين المثقف والسلطة داخل م.ت.ف. فالنقود الهائلة التي تمنح للعاملين في الإعلام مع الامتيازات السياحية الأخرى، تبلغ نسبة مائة إلى واحد مما يدفع لأجهزة الإعلام العربية. وعندما نعلم أن هذه المبالغ تدفع دون مقابل إنتاج إعلامي مساوٍ فإن جانباً من المسألة يتضح. وأما الجانب الآخر فيوضحه استشهاد البطل «ناجي العلي» بواسطة عميل لأمن «عرفات» هو، في الوقت ذاته، عميل للموساد.

ما هي سمات هذه الظاهرة؟ إنها، في الأساس، ظاهرة عدوانية إلى أقصى حد، سواء بهذه الكثافة العدوانية في الدفع، أو في استعمال التصفية الجسدية كوجه آخر لنفس العملة. إنها تطبيق للشعار القديم: سيف المعز وذهبه. فما هي دواعي هذه السياسة العدوانية نحو المثقف؟

إذا طبقنا نظرية «بافلوف» في الإنعكاس الشرطي هنا، فإننا نجد أن الهدف هو قبول المثقف بالدفاع عن سياسة غير معقولة أو مقبولة، تصل إلى حد أن يعتبر «محمود درويش»

اغتيال «ناجي العلي» لعبة متكافئة: «ناجي العلي» يطلق الكلمة القاتلة، و«عرفات» يرد عليه بالرصاصة القاتلة. ورغم هذا فإن المخطئ هو «ناجي العلي» الذي يحارب (أهله وقومه)، على اعتبار أن اليمين الفلسطيني الخائن هو أهله وقومه، و«درويش» يعلم أكثر من غيره أنه بهذا المنطق نفسه يصبح اغتياله، هو، مشروعاً.

بهذه المعادلة يتم تشكل المثقف الفلسطيني: الاقتلاع من شعبه، والخضوع المطلق غير المشروط لبيروقراطية وحشية، فاسدة، وخائنة.

ولكن، إذا كان هذا ينهي شبه المثقف الفلسطيني كصاحب دور يرفعه دوره في المستقبل إلى مستوى المثقف الحقيقي، فإنه يجسد بمزيد من الوضوح نمط المثقف الريفي. إن علينا ، حتى نبرهن على ذلك، أن ندرس التكوين النفسي لأشباه المثقفين الريفيين من خلال نظرية «ديفيد رايزمان» عن الأنماط الثلاثة.

الأنماط الثلاثة

في كتاب «الجمهور المتوحد» يحدد (ديفيد رايزمان) ثلاثة أنماط إنسانية تواجدت عبر العصور، وهي: الموجَّه بواسطة التقاليد، الموجَّه من الداخل، والموجَّه بالآخرين. ويربط الباحث بين كل نمط من هؤلاء وبين التكوين السيسولوجي والاقتصادي للمجتمع.

النمط الموجَّه بواسطة التقاليد، ينتمي إلى المجتمع السابق لنشوء الرأسمالية. هذا النمط ـ عند «رايزمان» ـ ثابت إلى حد كبير. والتكيف الاجتماعي لهذا الفرد يُخضع العلاقات المحددة سلفاً، لمعطيات السن والجنس والعشيرة والطبقة والحرفة ـ هذه المعطيات التي تستمر دون تغيير كبير لقرون عديدة. ويتم تدعيم هذه المعطيات بالثقافة السائدة والدور الاقتصادي والاجتماعي للشخصية. ويُعاد إنتاجها عبر الطقوس والعادات والدين ... الخ. في مثل هذه الظروف تتكلس ديناميات التغيير الاجتماعي والاقتصادي، ولا تبذل إلا جهود قليلة لتطوير التقنية الزراعية وعلاج المرضى وتطوير المفاهيم والقيم... الخ.

النمط الثاني هو الموجَّه من الداخل. وهو النمط الذي نشأ وتشكل روحياً خلال فترة نشوء وسيطرة البورجوازية في أوروبا. ففي هذا المجتمع يصبح التوجه من الداخل هو الأسلوب الرئيسي للتكيف، أي أنه يكون نتاج دينامية اجتماعية للنمو والتغيير الاجتماعيين والاقتصاديين، تقوم ـ هذه الدينامية ـ بتشكيل الأفراد وصياغتهم. إن الشكل المحدد لهذه الصياغة هو أن تنغرس في داخلها، ومنذ سن مبكرة جداً، مجموعة من المثل والقيم والأهداف، تحيطها قشرة صلبة، مصمتة لا ينفذ من خلالها أي تأثير يمكن أن يغير تلك

الأهداف والمثل. بهذا تتكون شخصية فردية للغاية، متمايزة، غير مكترثة بالآخرين - أي أنها لا تغير مثلها وأهدافها كرد فعل لأي إغواء خارجي - يجري تمثلها لكل ما يدور حولها من خلال مصفاة تكوينها النفسي الأساسي. إنها شخصية تنطلق من مفهوم محدد: تغيير العالم والسيطرة عليه، وإخضاعه لأهدافها ومثلها.

وإذا نقلنا تعريف «رايزمان» لهذا النمط من الشخصية إلى مجال الثقافة، فإننا بذلك نستعيد تعريفنا الذي أوردناه منذ قليل لشخصية المثقف. إنه ذلك الذي يصوغ صورة للعالم، كما يجب أن يكون. ويسعى من خلالها لتغيير العالم والسيطرة عليه، وهذا بالتحديد هو فهم «هيغل» للعلاقة بين العقل والواقع، وضرورة إخضاع العملية الاجتماعية للعقل، وهذا، في الوقت ذاته، هو الجوهر الثوري لفلسفته. إن مثقفينا الفاعلين ابتداء من «رفاعة الطهطاوي» ومروراً بـ «طه حسين» و«سلامة موسى» وانتهاء بالشهيد «ناجي العلي» الذي اغتاله اليمين الفلسطيني، ينطبق عليهم هذا التعريف.

والنمط الثالث هو النمط الموجّه بواسطة الآخرين. وهو نتاج المجتمع الاستهلاكي. يتمثل بشخصيات مثل العاملين في العلاقات العامة، البائعات في السوبرماركت، سكرتيرات المديرين. كما يتمثل في السلوك الاجتماعي المثالي «الاتيكيتي» في الأماكن العامة والحفلات والمناسبات الاجتماعية. أطلق «ايرك فروم»، في كتابه «الإنسان من أجل ذاته»، على هذا النمط اسم «المتكيف بواسطة السوق».وهو شخصية مفرغة من الداخل، تمتلئ برضى الآخرين، ويتحدد سلوكها بما يريده الآخرون ويتوقعونه منها. يبتسم لأن الآخرين يريدون ذلك، لا لأنه يريد ذلك حقاً، أو هو يرغب في الابتسام لرغبة الآخرين في أن يروه يبتسم. إنها شخصية بلا رغبات حقيقية.الانفعال الوحيد الذي يسيطر عليها هو الخوف من الحياة ومن المستقبل.

يشير «فروم» إلى أن الكاتب المسرحي الإيطالي «بيرانديللو» قد استطاع أن يلمس جوهر هذه الشخصية. ففي إحدى مسرحياته نرى إحدى الشخصيات تكتسب سمات جديدة في كل مرة يتحدث عنها شخوص المسرحية المختلفون. وعندما تواجه هذه الشخصية بالسؤال التالي: «من تكونين؟». تجيب: «أنا من تريدني أن أكون» .

هنالك مسألة أخرى، وثيقة الصلة بموضوع بحثنا، يطرحها «رايزمان»، وهي تتصل بالنمطين: الموجّه من الداخل، والموجّه بواسطة الآخرين. وتتعلق باللغة، يقول:

«إن انتشار الثقافة، وتوفر أوقات الفراغ والخدمات ترافقت باستهلاك متزايد للغة والصور الصادرة عن وسائل الاتصال الجديدة. إن هذا التيار الجارف يتوسط، أي أنه يصبح الصلة بين علاقات الإنسان مع عالمه الخارجي ومع نفسه. بالنسبة للنمط الموّجّه بواسطة الآخرين، فإنه يعايش الاحداث السياسية عبر (ستارة) من الكلمات حيث تتذرر (أي تصبح ذرات متفرقة وغير مترابطة) وتتشخص (أي ترتبط بالأشخاص) هذه الأحداث السياسية».

ويضيف «رايزمان»:

«إن الشخصية الموجهة من الداخل، والتي ما تزال حاضرة في المجتمع الاستهلاكي تميل إلى وضع هذه الكلمات في نظام عقلي، وفي نسق أخلاقي».

وسوف نقارن بعد قليل بين أديبين في علاقتيهما بالكلمات من هذا المنطلق بالتحديد، وهما «محمود درويش» و«فيصل دراج».

الأنماط الثلاثة في واقعنا

الأنماط الثلاثة التي ذكرها «رايزمان» تتصل بأطوار حضارية أوربية وأمريكية، وبديناميات معينة تفعل فعلها في تلك المجتمعات. ونحن، في الوطن العربي، مررنا بأطوار حضارية مختلفة. كما أن هنالك ديناميات أخرى فاعلة في وطننا.

سوف نحاول، هنا، بإيجاز، أن نحدد اختلاف الأطوار الحضارية والديناميات بين المجتمعين.

إن التكوينات الاجتماعية - الاقتصادية التي مر بها كلا العالمين - الأوربي والعربي - مختلفة. ففي أوروبا، شكل إنحلال الإمبراطورية الرومانية، ذات التكوين العبودي، بداية المجتمع الإقطاعي. واستمر طويلاً الصراع بين التكوينات الإقطاعية والسلطة المركزية. كان الإنتقال من المجتمع الأول إلى الثاني دموياً وحاسماً على المستويين: مستوى السلطة السياسية ومستوى المفاهيم والقيم. في قلب المجتمع نشأت مجموعة من المعطيات التي أدت إلى انهياره. فلقد جرى اكتشاف واستعمال بعض التحسينات التقنية على أدوات الإنتاج والصحة العامة أدت إلى زيادة كبيرة في التراكم الرأسمالي والسكان، ونشطت التجارة الداخلية والخارجية التي كانت تتجه إلى تكوين سوق قومي. ولكن قيام هذا السوق كان يواجه عقبات هائلة تتمثل في الاقطاعيات، التي تكاد كل واحدة منها تشكل دولة مستقلة، وفي شكل السلطة المركزي الآرستقراطي.إن قيام الثورة البورجوازية - في

فرنسا مثلا - لم يكن مجرد انتقال من شكل اجتماعي - اقتصادي إلى آخر، بل كان قطيعة شاملة وكلية مع الماضي. لقد انطرح مفهوم جديد للإنسان، ولعلاقته بالآخر، وكذلك علاقته بالسلطة. كما حل، في مكان الخضوع للكنيسة، والتقاليد دين جديد يقوم على عبادة العقل. فبعد قيام الثورة الفرنسية أغلقت جميع الكنائس، ومنع المؤمنون من ارتيادها، وطورد رجال الدين والأمراء والأرستقراطيون بعد أن تم إعدام الآلاف منهم... الخ.

وفي الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع الاستهلاكي تمت تحولات أكثر جدية في المجال الإقتصادي - الإجتماعي وفي البنية الروحية والثقافية للإنسان.

في مجتمع الاستبداد الشرقي - ووطننا العربي يدخل ضمن إطاره - كانت الحضارة تنشأ بسبب قيام دولة مركزية قوية، قادرة على تنظيم مشاريع الري، وتنقية التربة من الملوحة وإقامة السدود لمنع الفيضانات المدمرة. وعندما تنهار السلطة المركزية، إما بسبب صراعات داخلية، أو بسبب غزو خارجي، فإن الحضارة نفسها تنهار، ويتقلص عدد السكان، وتصبح البلاد غير مؤهلة لإعاشة عدد كبير من السكان بسبب فساد التربة والفيضانات... الخ.

لهذا السبب تحتل السلطة مكانة مركزية في عقل إنسان هذه المنطقة، وتكتسب ملامح وطقوس حاكم إلهي، يقول «يحيى بن الحسين»: «إن صورة الله عند أهل الجبر هي صورة للحاكم الأقوى وتبرير، في الوقت ذاته، لظلمه وفساده». وبالطبع، فإنه إذا استمد الله صورته من الحاكم فمن المنطقي أن يصبح الحاكم شبه إله.

إن من يقرأ قصائد ومقالات «محمود درويش» في السنين الخمس الأخيرة، يرى أن «درويش» قد أضفى على «عرفات» الملامح الرئيسية لإله المجبِّرة، كما وصفه «يحيى بن الحسين». ولا يتسع المجال لتفصيل ذلك، ولكنني أرجو أن يتاح لي الوقت لإقامة هذه المقارنة، والخروج بالدلالات السوسيولوجية منها.

هنالك مسألة أخرى، بالغة الأهمية بالنسبة لدراستنا، نلحظها منذ قيام الدولة الإسلامية الأولى في المنطقة العربية حتى الآن. وهي أنه، عدا الانقطاع الحضاري الذي استمر قرابة ستمائة سنة، منذ سقوط بغداد على يد (هولاكو) حتى انتهاء الحكم التركي، فإن هنالك استمرارية حضارية، متمثلة بحكم مركزي، ضيق أو متسع. في هذا التاريخ الطويل نستطيع أن نلمس ظاهرة متكررة في التغييرات الاجتماعية الهيكلية، سواء تلك التي تمت

في عهد «عثمان بن عفان» وتم استكمالها في عهد «معاوية»، أو تلك التي قامت عبر نشوء البنية الرأسمالية للمجتمع العربي في العصر العباسي، أو في ذلك التحول من المجتمع الاقطاعي إلى شكل مشوه من أشكال المجتمع الرأسمالي. هذه الظاهرة تشير إلى أن التغييرات الإجتماعية تتم من خلال تصالح بين الطبقات المسيطرة القديمة والطبقات الجديدة الصاعدة.

ولن أفصل هذه المعطيات لضيق المجال، ولأنني قد فعلت ذلك في كتاب كامل هو «العالم مادة وحركة» وفي مجموعة من المقالات نشرتها متفرقة عن التأويل في الفكر العربي.

تأسيساً على هذه المعطيات نستطيع القول إن دينامية التغيير في المجتمع الغربي تنطلق من مفهوم القطيعة المعرفية، كما هي عند (غاستون باشلار)، وطورها، من منطلق مختلف، (لويس ألتوسير)، في حين أن المفهوم الشرقي للتغيير يقوم على أساس التأويل.

لإيضاح ذلك يكفي أن نشير إلى علاقة الفكر الفلسفي بالدين. ففي حين قام الفكر الفلسفي العربي بدمج مقولاته (وتبريرها) في إطار الدين، قام الفكر الفلسفي الغربي، منذ عهد النهضة، بإقامة قطيعة نهائية مع الدين.

إن (ابن رشد) الذي جعل التأويل منهجاً، حاول أن يبرهن، بواسطة آيات قرآنية،أن الله لم يخلق العالم ولا الزمان، لأنهما قديمان قِدّم الله، يقول في «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»:

«هذا كله مع أن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع، فإن ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر من الآيات الواردة في الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود يستمر من الطرفين - أعني غير منقطع - وذلك أن قوله تعالى «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء» يقتضي بظاهره أن وجوداً قبل هذا الوجود وهو العرش والماء، وزماناً قبل هذا الزمان، أعني المقترن بصورة هذا الوجود الذي هو عدد حركة الفلك، وقوله تعالى :«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» يقتضي بظاهره أن وجوداً ثانياً بعد هذا الوجود. وقوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» يقتضي بظاهره أن السموات خلقت من شيء».

وإذا انتقلنا إلى موضوع العلاقات بين الأنماط الثلاثة نجد أن نفس الديناميات العاملة في المجال الاجتماعي - الاقتصادي في كل من المجتمعين تعمل أيضاً في العلاقات بين الأنماط الثلاثة.

ففي المجتمع الغربي يشكل كل نمط نفياً للنمط السابق وقطيعة معه. إن نمط الإنسان المغامر، الذي يقيم الصناعات، ويستعمر البلدان الجديدة، ويجعل من حياته وسيلة لأهدافه المتجسدة في تغيير العالم والسيطرة عليه، يختلف جذرياً عن الإنسان الموجَّه بواسطة التقاليد، ذلك الإنسان الذي يسعى أن يكون مشابهاً للآخرين ويريد لكل شيء أن يبقى على حاله، لأنه، كما يعتقد، يعيش في أفضل العوالم الممكنة.

أما في وطننا العربي فهذه الأنماط الثلاثة تتعايش، بدون تناقض كبير، في الشخصية الواحدة. فمجتمعاتنا الفلاحية ليست مجتمعات تقليدية كما كانت المجتمعات الأوربية في القرون الوسطى، إذ أنه - في مجتمعاتنا - تعايشت الأطر التقليدية مع ديناميية المجتمع التجاري، فجعلت من فلاحينا بورجوازيين صغاراً. ولهذا النمط علاقة وثيقة بالنمطين الأخيرين، إذ يحتويهما بشكل جنيني.

إن الإنتقال عندنا من النمط الموجه بواسطة التقاليد إلى النمط الموجه من الداخل لم يتم عبر الإنسان الذي يسعى إلى تغيير العالم وإخضاعه، بل من خلال شخصية وسلوك التاجر الصغير. إنه النمط الذي يضع القرش فوق القرش حتى ينمو ويصعد. أعرف مثلاً أن البورجوازية الأردنية - في الاربعينات - وصلت إلى القمة الاقتصادية من خلال تجارة الحبوب، أي عبر الوساطة بين الفلاح والمستوردين الخارجيين. وهي مسألة مضمونة ولا تحتاج إلى نمط الإنسان المغامر لا تقانها. فلا يمكن لنمطين من هذا التكوين أن يشكلا قطيعة مع بعضهما.

بالنسبة للنمط الموجه بواسطة الآخرين، فإنه يتواجد، كما قلنا، في داخل النمط الموجه بواسطة التقاليد. فالبورجوازي الريفي الصغير، رغم تقتيره، وسعيه للنمو، عبر هذا التقتير، إلى مواقع الثراء، إلا أنه يحاول أن يعطي صورة للآخرين بأن طموحه قد تحقق منذ البداية. إنه يرتدي أقنعة حلمه، محاولاً أن يقنع الآخرين بأنه ينتمي إلى الطبقات الميسورة. وعندما قَدِمَ المجتمعُ الاستهلاكي، نتيجة لتوافر فائض النقود البترولية وليس نتيجة لوجود النمط الموجه من الداخل، فإن بذوره كانت كامنة في تكوين النمط التقليدي البورجوازي الصغير. إن هذا النمط قد استقبل المجتمع الاستهلاكي باعتباره تجسيداً لحلمه الثابت، إذ أتاح له بدون جهد أن يرتدي أقنعة الميسورين عبر مجموعة من الإشارات والشعائر الآتية من مجتمعه التقليدي.

ما هي علاقة البورجوازي الريفي الصغير بالمدينة؟

إنه يتوجه إلى المدينة كغان: المال والنساء والشهرة يجب أن تكون له. وهو في سعيه

للوصول إلى ذلك يستبيح كل المحرمات، منطلقاً من مفهوم أن الأخلاق مرتبطة بواقع جغرافي، وهو الريف. أما المدينة فتبيح له كل شيء. من هنا نشهد ثنائيته. فهو، بالنسبة لنساء بيته، محافظ وتقليدي، أما نساء المدينة فكلهن مباحات له. أي أنه شديد الإخلاص للنواة الصلبة من القيم التي تَمَثَّلها في القرية، ويعتبر ما عداها مجرد وسائل للاستعمال. من الواضح أن مفهوم الوطن والأمة، مفهوم الانتماء إلى شعب بكامله، سواء أكان في الريف أم في المدينة، ضعيف ولا يرتكز إلى عمق في تكوينه الروحي.

البورجوازي الصغير القادم من الريف، يجد نفسه في الوظيفة الحكومية. إنه يتحول بسرعة وبانسجام كبيرين إلى مثقف عضوي للسلطة، كما يقول «غرامشي»:

«يمكن الحديث، بالتأكيد، عن مفهوم المثقف العضوي والمثقف التقليدي، وعن المثقف التقليدي (الريفي ذي النزعة الماضوية) الذي يتحول إلى مثقف عضوي لحظة اندراجه في السلطة الثقافية لطبقة ما».

ويعرض فيصل درّاج رأي (غرامشي) في الموضوع:

« إن غياب العلاقات الرأسمالية في الجنوب (الإيطالي)، وسيطرة كبار الملاك العقاريين، يحقق الشروط الموضوعية لوجود المثقف التقليدي الذي يلعب دوره في إطار جهاز الدولة، كوسيط سياسي بين الجماهير الفلاحية وكبار الملاك، حيث ينوس عمله في إطار محدد هو : المحامي، الكاتب، رجل الدين، الموظف. أي أن جهاز الدولة هو أفق المثقف التقليدي وغايته، وهذا ما يجعله يمثل ثلاثة أخماس بيروقراطية الدولة».

ويضيف:

«فالمثقف الريفي يقوم بدور سياسي قوامه إخضاع الجماهير الفلاحية إلى سلطة الدولة».

وباختصار فإن الطبقات المسيطرة وجهاز الدولة يحتاجان إلى توسط المثقفين العضويين لممارسة عمليتي «الهيمنة والإكراه».

لماذا يقوم المثقف الريفي بهذا الدور؟

لأن هذا الدور ينسجم مع تكوينه الروحي. فهو لا تربطه بالجماهير علائق عميقة، بل هذه مجرد أدوات للاستغلال.كما أن انتماءه للسلطة يجد صداه في تطلعاته للتمايز عن الجماهير التي (صعد) من بينها. إن نمط شخصيته لا يعرف القلق أو عذاب الضمير والتردد مما ينتاب المثقف الحقيقي عندما يعمل في خدمة سلطة لا يقتنع بها. فإخلاص

المثقف الريفي هو لأهدافه – قيمه التي تشكل النواة الصلبة لشخصيته.

شبه مثقف م .ت .ف.

ماذا يحدث لشبه المثقف الريفي عندما يأتي إلى المدينة؟

الاحتمال الأول تحدث عنه «لينين» وهو أن تذوب تلك النواة التي تحدثنا عنها ويكتسب، بالتالي، سمتين: سمة المواطن، وسمة المثقف الحقيقي. وبهذا يبني صورة - مثالاً لعالم ينسجم مع العقل... وبكلمة أخرى يصبح مثقفاً ثورياً، أو تنويرياً على الأقل. هنالك مثال عربي بارز على ذلك وهو «طه حسين». ولكننا لن نناقش هذا الاحتمال بالتفصيل لأنه ليس موضوعنا.

الاحتمال الثاني، أن تتحول تلك النواة الصلبة من كونها نتيجة للتوجيه بواسطة التقاليد إلى كونها الأساس الموجه من الداخل. وكما قلنا، إن هذا النمط مختلف عن النمط الأوربي، انه النمط الذي وصفه «سيد درويش» في العشرة الطيبة:

«علشان ما نعلا ونعلا ونعلا

لازم نطاطي، نطاطي، نطاطي»

أي حتى ترتفع مكانتنا علينا أن نبالغ في الخضوع. والتذلل والطاعة هما وسيلتا الصعود.

يصف (تشارلز ديكنز) هذا النمط المتسلق، بشكل رائع، في روايته «ديفيد كوبر فيلد» إذ هو جاء من أعماق البؤس ويسعى للصعود إلى القمة الإجتماعية والزواج من جميلة؛ فجعل شعاره الذي يردده في كل الأوقات : إنني مسكين ووضيع!

حددنا، منذ قليل، سمتين من سمات شبه المثقف، وهما الفهم والتلوّن. السمة الأولى هي نتاج التكوين الروحي للبورجوازي الريفي الصغير الطامع في الصعود مادياً واجتماعياً. أما السمة الثانية فإن شبه المثقف على استعداد لفعل أي شيء يُؤمر به، والتلاؤم مع جميع الأوضاع ما دامت لا تمس تلك النواة الصلبة في داخله. هنالك واحد من هؤلاء تستطيع أن تحسب له أربعة مواقف متباينة من القضية الواحدة، لا يربط بينها إلا معطيان أساسيان: إرضاء سلطة ما، أو الانسجام مع القيم الثابتة في داخله.إن «محمود درويش» مثال دقيق على هذا التلون.

في مقال في مجلة «فتح»، قلت:

«المثقف الفلسطيني الذي ارتبط بقيادة منظمة التحرير صورة نموذجية للمثقف المنفعل الذي ينطلق من الخوف والرغبة. إن مواقفه وسلوكه لا تتحدد بمجموعة من المفاهيم والأهداف والمُثل الراسخة، بل تتحدد بالمناسبة. إنه يلتزم بالمفهوم القديم والتقليدي للسلوك: لكل مقامٍ مقال».

إن إعطاء بعض الأمثلة يوضح الموقف:

لنأخذ «محمود درويش» كمثال. فمنذ سنين، وهو يلتقي بالصهاينة في بوخارست وغيرها، لإيجاد أسس مشتركة للتفاهم الفلسطيني - الإسرائيلي. وفي لقائه مع بعض المثقفين الإسرائيليين الذي نشرت فحواه صحيفة (يديعوت أحرنوت)، يعاتب «درويش» السلطة الإسرائيلية لأنها تخصصت في تضييع فرص السلام المتواترة التي تتقدم بها قيادة منظمة التحرير. السلام ليس لصالح الفلسطيني فقط، بل لصالح (الشعبين).

لو كان هذا موقفاً ثابتاً «لمحمود درويش» لما وضعناه في خانة المثقف المنفعل. فرغم انتفاضة الأرض المحتلة ظل «إميل حبيبي» ثابتاً على موقفه كما جاء في مجلة الكرمل (عدد٢٧).

يقول (حبيبي):

«أدركنا أننا، في هذه القضية، الشعب الضحية، مستقبلنا هو المهدد، ولا نهدد أحداً. ليس نحن الذين يبنون مستقبلهم على خرائب شعب آخر، بل الآخرون. ليس نحن الذين يهددون الآخرين برميهم في البحر، بل نحن المرميون في بحار الغربة. لقد جمعنا القدر واخوتنا اليهود الإسرائيليين في وطن واحد ومصير واحد. ليس نحن من يتجاهل الحقيقة، بل الآخرون. لقد سلبنا السالبون حقنا في «استقلالية القرار الفلسطيني» الذي لا يمكن أن يكون فلسطينياً إلا إذا صدر عن الواقع الفلسطيني المتميز. هذا هو نهجنا، حصيلة أقسى وأطول تجربة، الذي تقوم عليه الانتفاضة وبه تنتصر».

ويضيف (حبيبي):

«كنت يا «محمود»، أول من صافح هذا النهج الصميمي شعراً قبل ربع قرن من هذه الأيام، أيام الإنتفاضة الفلسطينية الكبرى في قصيدتك التي أخفيتها خجلاً عن «الصمت العربي» الذي لا يخجل «سجل، أنا عربي» وأنهيتها قائلاً:

إذن سجل برأس الصفحة الأولى:

أنا لا أكره الناس

ولا أسطو على أحدٍ

ولكنّي... إذا ما جعتُ

آكلُ لحم مغتصبي

حذارِ... حذارِ

من جوعي ومن غضبي».

هذا التوافق بين «حبيبي» و«درويش» يتضح من تأكيد «حبيبي» على حق الشعب الفلسطيني «في تقرير مصيره بإقامة دولته المستقلة، على تراب وطنه المحتل منذ العام ١٩٦٧».المفارقة، هنا، أن المجلة نفسها تحمل موقفاً آخر لـ «درويش»، ففي الافتتاحية يقول «درويش»:

«عشرون عاماً من الاحتلال، أربعون عاماً من الاحتلال. وهكذا تصبح فلسطين كلها محتلة. **ويقول «درويش»**: «لاحل عادل، منذ قرار التقسيم حتى برنامج السلام العربي في فاس، لا حل عادل في شق الابن إلى شطرين، ولا في التعويض على الأم بقطع صغيرة، أو كبيرة من جسد الابن». **ويؤكد «درويش» أن الهدف النهائي للفلسطيني هو استعادة فلسطين كلها**: «فلا أحد يملك سحر القوة لمنع التاريخ من العمل» فاستعادة الأرض عملية تاريخية «كيف توضع قوات دولية لمراقبة عملية التطور التاريخي في اتجاه قد لا يرضي الأمن الإسرائيلي».

وهكذا نقرأ في عدد من أعداد مجلة «الكرمل» موقفين متناقضين لـ«محمود درويش». وإذا كان هذا يحيرنا، فإننا نزداد حيرة من البيان الذي أصدره «مثقفون فلسطينيون» يعقبون على مشروع المثقفين الإسرائيليين: « لا سلام بلا حرية» والذي كان «محمود درويش» أول الموقعين عليه. يقول هذا البيان إن مشروع السلام الذي اقترحه عدد من المثقفين الإسرائيليين «هو تطوير نوعي في عملية تشكل وعي إسرائيلي مضاد...» وهذه لحظة «يمتحن فيها صدق الدعوة إلى السلام بمدى ارتباطه بالحرية» والبيان يعتبر المشروع «بادرة شجاعة تصلح أساساً للنضال اليهودي العربي المشترك ضد السياسة الإسرائيلية الرسمية التي تصر على التنكر لحقوق الشعب العربي الفلسطيني الوطنية بما فيها حق

العودة...».

المفترض، هنا، أن مشروع المثقفين الاسرائيليين يتضمن الدعوة إلى إعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية وإلى حقه في العودة. فهل هذا حقاً موقف هذا المشروع فعلاً؟

في حديث للروائي (يهوشوا)، الذي يتزعم هذا المشروع، لصحيفة هيرالدتريبيون، يقول متحدثاً عن الفلسطينيين:-

«ثمة فريقان: الفريق... الذي يشعر بانتمائه إلى الفلسطينيين في المناطق، والفريق المتطرف الذي يميل إلى تعميم التمرد، المتطرفون يتحدثون عن تحرير يافا وحيفا وعكا...».

يضيف :

«ورغم أن «عرفات» قد صرح بأنه سوف يعترف بإسرائيل إذا ما اعترفت إسرائيل بـ(م.ت.ف.)، إنما يجب عليه أن يعلن ذلك بتحديد واضح... لأنه لم يقل أن م.ت.ف. سوف تكف عن المطالبة بعودة لاجئي (١٩٤٨) إلى ديارهم. لو أن «عرفات» يعلن أنه راغب بدولة منزوعة السلاح في الضفة الغربية وقطاع غزة، فكان ذلك يعني العيش بسلام، وفتح الحدود مع إسرائيل».

ويقول :

«أنا مع الكونفدرالية التي ستتضمن ثلاث دول مستقلة. وهي إسرائيل وفلسطين والأردن، سيكون هناك نوع من السوق المشتركة، وسيسافر الناس عبر الحدود بسهولة، وسيكون ثمة مرور للبضائع...».

ويقول:

- « نحن مهددون، علينا أن نقاتل طيلة الوقت ضد العرب... الذين يريدون حيفا وعكا ويافا. نريد اتخاذ موقف حمائمي، ولكننا لا نريد الانتحار...».

هذه هي الخطوط العامة لمشروع المثقفين الاسرائيليين: دمج فلسطين والأردن في إسرائيل، الامتناع عن المطالبة بعودة عرب (١٩٤٨) إلى ديارهم، محاربة العرب الذين لا يكتفون بأن تكون الدولة الفلسطينية ١٧٪ من أرض فلسطين. وهي أسس كما يرى «درويش» وغيره من الموقعين على البيان «تصلح أساساً للنضال اليهودي - العربي المشترك».

وقد جاء اسم «صابر محيي الدين» في ذيل البيان، ولكن مجلة «الهدف» حملت تنويهاً

يقول:

«ويهمنا في هذا الصدد، التنويه بأن ليس للرفيق صابر مُحيي الدين، اية علاقة، لا من قريب أو من بعيد، بهذا البيان. ولم يستشر بخصوص ذلك. ويهمنا أن نوضح أننا، في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، نرفض ذلك البيان موقفاً وأسلوباً...».

ولا بد من إيراد بعض الملاحظات على بيان «المثقفين» الفلسطينيين:

أولاً : قوّل البيان المثقفين الإسرائيليين ما لم يقولوه. جعلهم مطالبين بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني. حق تقرير المصير لشعب يعني بناء دولته على أرضه، وبناء قواته المسلحة وحق الذين اقتلعوا من أرضهم أن يعودوا إليها... وهذا ما لم يقله المثقفون الإسرائيليون، بل طالبوا بعكسه تماماً.

ثانياً: أنه جعل المثقفين الإسرائيليين يطالبون بحق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم وهذا ما لم يقولوه، بل طالبوا بعكسه.

ثالثاً: أنهم زايدوا على المثقفين الإسرائيليون، فقبلوا قرارات الأمم المتحدة بما فيها قرار ٢٤٢ الذي يعتبر قضية فلسطين قضية لاجئين. وفي هذا تجاوزهم المثقفون الإسرائيليون.

رابعاً: أن أصحاب البيان الفلسطيني واصلوا تقاليد معروفة في تزييف الانتخابات، فوضعوا اسم «صابر محي الدين» دون علمه وضد رغبته.

خامساً: البيان يحمل توقيع «محمود درويش»، والبيان رد على افتتاحية العدد «٢٧» من مجلة الكرمل، فكل ما يقوله هنا ينفيه هناك، مطبقاً شعار: «لكل مقام مقال».

ومثال آخر على هذا التلون هو أن «محمود درويش» نشر قصيدة يقول فيها للصهاينة: اخرجوا من دمنا، من ذاكرتنا، من أرضنا الخ... القصيدة أثارت ضجة في إسرائيل حتى أن شامير ألقى أجزاء منها في الكنيست ليبرهن أن العرب يريدون إزالة إسرائيل.

فكتب «درويش» يرد على هذه الضجة يقول: «إن الإسرائيليين بسبب عقدهم النفسية فهموا أن قصيدته تعني أن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي هو صراع وجود، في حين أن القصيدة كانت «فشة خلق»

ويقول«درويش»:

« وحين سئل أحد نواب الليكود :ألا يقول نشيدكم إن لنهر الأردن ضفتين: غربية وشرقية أيضاً؟ قال: يحق لي إن أغني...».

يعتبر «درويش» مقولة نائب الليكود حقيقة ثابتة في علم الجمال: لا يمكن أن نأخذ الشعر بجدية، لأن أحسن الشعر أكذبه، ويعلق على ذلك:

«فهل يحق للفلسطيني ان يغني وطنه كما يحق للإسرائيلي أن يغني توسعه؟» إنها العقد النفسية التي جعلت الإسرائيلي يسيء فهم مقاصد «درويش»: «إن الإسرائيلي هو الذي يفقر ذاته وموضوعه، ويزيدهما إفقاراً بتربية خوف غريزي من عدو لا بد منه، عدو مصنوع بعناية فائقة...».

الواضح أن «درويش» يقدم اعتذاراً عن قصيدته لأنها جاءت خارج سياق الأسس التي «تصلح أساساً للنضال الفلسطيني – اليهودي المشترك ضد السياسة الإسرائيلية الرسمية...» وضد منطلقات القيادة اليمينية التي دعته إلى لقاءات مع الصهاينة، شارك «درويش» في بعضها، وضد مفهوم التعايش الخ... وباختصار فإن «درويش» قد قال «الكلمة القاتلة» في قصيدته وإن الإجابة عليها -كما حدث مع «ناجي العلي» -هي «الرصاصة القاتلة» إنْ لم يعتذر، فاعتذر.

وقبل أن ننتقل إلى مناقشة دلالة هذا التكوين على تفاعل الأنماط، أو ربما على جدلها، في تكوين أشباه المثقفين الفلسطينيين، والذين هم المثقفون العضويون للسلطة الفلسطينية سوف نستعيد ما قاله «رايزمان» عن علاقة نمطيّ الموجّه من الداخل والموجه بواسطة الآخرين باللغة. نذكّر بما قال «رايزمان»:

«انتشار الثقافة والاعلام ترافق باستهلاك متزايد للغة والصور بينه وبين نفسه. ونتيجة لهذا فالموجّه بواسطة الآخرين يعايش الأحداث السياسية عبر (ستارة) من الكلمات حيث تتذرر وتتشخص الأحداث السياسية»

ويصف الدكتور (فيصل دراج) هذه الحالة بالنسبة للعقل الفلسطيني:

«المتجدد بين القول والعلم نسق من القول والكتابة، اسمه الأول والأخير(التذهين)، حيث يتم وأد الفكر والواقع في سلسلة من الرموز المقدسة التي تفسر الواقع بدلاً من أن يفسرها الواقع: الوطن، الفدائي، البندقية، البشارة، المؤامرة، الشهيد، الملصق، المخاض... وتم التعامل مع هذه كما لو كانت أشياء خارج الوعي أو علاقات خارجية لا تحتاج إلى الوعي، حتى أصبح واقع (الثورة) لاهوتاً جديداً، يقمع العقل ولا يوقظه، ويأمر

الإنسان ولا يربيه، ويدفع بالجميع إلى غيبية التفاؤل، التي شرطها الأول استقالة العقل والامتثال، انهزمت الثقافة قبل وصول الهزيمة الحقيقية».

أما الشخصية الموجهة من الداخل، والتي ما تزال حاضرة في المجتمع الاستهلاكي، فإنها تتجه إلى وضع الكلمات في نظام عقلي وفي نسق أخلاقي.

أمامنا هنا مسألتان: هل الكلمة رمز لشيء خارجي، تشير إليه، بدون أن تكون هي ذاته؟ وهل الشيء الخارجي قائم بذاته، أم يندرج في أنساق من العلاقات؟ وبالتالي، هل تعبر اللغة عن ذلك الشيء في علاقاته؟

ولكن هذا ليس درساً في فقه اللغة، بل في البنية النفسية للإنسان. أي أن الموضوع هو دلالة استعمال اللغة على هذه البنية.

من الطريف أن نتابع استعمال «محمود درويش» للكلام في السنوات الخمس الأخيرة. في عام ١٩٨٣، أصدر «عرفات» أمراً إلى القوات الفلسطينية في لبنان، بأن تنسحب من مواجهة العدو الصهيوني إلى المنافي البعيدة، اعتماداً على وعد «فيليب حبيب» بأن ذلك سيفتح الطريق إلى الدولة الفلسطينية. وعندما رفضت هذه القوات أن تنسحب، شن حرباً عليها انتهت بخروجه هارباً من ميناء طرابلس عبر سفن إسرائيلية ومصرية وفرنسية. هذا الصراع الفلسطيني كان يعبر عن جدل عربي - عربي، عربي - إسرائيلي، أمريكي - عربي، سوفييتي - أمريكي والعديد من العلاقات المعقدة.

كيف عبر «درويش» عن ذلك؟

أعجبته صورة «عرفات» في البحر، يشق طريقه وسط أخطار (لم يكن لها وجود في الحقيقة) وأهوال. وتداعت إلى ذهنه صور أدبية عن المغامرين الأسطوريين، يشقون طريقهم في البحار، ويعيشون الموت في كل لحظة.

هل لهذا التيار الجارف من الكلمات والصور علاقة حقيقية بالواقع المعقد (أو بالإنسان ومحدداته العقلية والأخلاقية) الذي ترمز له؟

الجواب: لا علاقة. فهناك بطولة أكبر - بالمعنى الذي يقصد «درويش» - في هروب تاجر المخدرات من سفن الدولة التي ينتمي إليها المهرب وربما زوارق الأنتربول بشحنته، من سفر «عرفات» من طرابلس إلى مصر. فلو أرادت البحرية الإسرائيلية أو الطيران الإسرائيلي تدمير السفينة التي يركبها «عرفات» لما وقفت بطولة «عرفات» في وجهه. فأية

بطولة هذه التي تعتمد على كرم العدو وتواطئه؟!

ولكنها لعبة اللغة المنفصلة عن دلالاتها. وهناك القرار الفلسطيني المستقل الذي يكثر «درويش» من استعماله بدون إشارة واحدة إلى دلالته الحقيقية. فمن ناحية واقعية: عن أية قوى يستقل هذا القرار؟ عن السياسة الإمبريالية - الصهيونية؟ عن الرجعية العربية المستقلة عن شعوبها والمنخرطة في السياسات الإمبريالية؟

قطعاً لا. فسياسة «عرفات» التي تحلم (حلماً ليس له ما يبرره واقعياً) بالدولة الفلسطينية عبر النضال اليهودي-الفلسطيني المشترك، والتفاوض المباشر، والاعتراف المتواقت مع العدو، والانحياز إلى كامب ديفيد الخ... تعني استقلال القرار الفلسطيني عن المعركة لتحرير فلسطين. هذا مثال آخر عن اكتفاء اللغة بذاتها وانفصالها عن دلالاتها.

نأتي الآن إلى «فيصل دراج». ولنأخذ كمثال دراسته التي أشرنا إليها منذ قليل «الثقافة الفلسطينية بين مأساة العجز وكوميديا الإنحطاط». يقول «دراج»:

> هذه الدراسة هي عمل لجهة الخروج من البلاغة الفلسطينية المكتفية بذاتها، والمنعزلة عن الواقع «وكان أشكال الهزائم والإحباط لا تستثير عقل القائد أو لسانه، وإن امتثل جوابه خاطئاً، إذ أنه لم يتقن في ساحات حياته إلا البلاغة. والبلاغة مصادرة للعقل أولاً.» والثقافة الفلسطينية مطروحة في الصراع، إذ هي علاقة سياسية كاملة، أي علاقة اجتماعية. «وميزان القوى في الساحة الفلسطينية يطرد الثقافة إلى آفاق النخاسة والامتهان والمبادلة اليومية»

ثم ينتقل الكاتب إلى شجب مفهوم... «يرى نهوض الثقافة الفلسطينية في وحدة كتابها وصحفييها يقول :

> «إن طرحاً كهذا لا يرى وحدة الثقافة في وظيفتها الوطنية بل في وحدة شكلية واهمة...» ويؤكد أن أزمة الثقافة الفلسطينية تكمن « في غياب دورها النقدي الفاعل..».

ينطلق الكاتب من هذا ليرى أن أزمة الثقافة مرتبطة بالعلاقات السياسية والاجتماعية داخل الساحة الفلسطينية. يقول :

> «إن الموقف العلمي من الثقافة، لا يرى وظيفة الثقافة إلا في دورها التحويلي الشامل الذي يقوم كعلاقة عضوية، داخلية في برنامج سياسي يهدف إلى تحويل جملة العلاقات التي تؤسس لنهوض وطني مستمر...».

ليس هدفنا، هنا، تقديم عرض شامل لهذه الدراسة المتميزة والمكثفة. هدفنا هو أن نطرح هذه العلاقة مع اللغة، التي لا تراها مكتفية بذاتها، بل ترى فيها دلالة على مَنْ يقولها، وعلى العلاقات التي يقيمها مع نفسه ومع المجتمع، كي يحولها عبر ذلك إلى أنساق عقلية وأخلاقية.

شبه المثقف: الأنماط الثلاثة

علينا أن نرصد التحولات في التكوين النفسي لشخصية شبه المثقف الفلسطيني. لقد كان تكوينه الأساسي نتاج مجتمع وقيم تقليدية. لقد خرج هذا التكوين عن إطاره الاجتماعي واندمج في تكوين آخر: السلطة الفلسطينية والمدينة.

من هنا نشأت بعض ملامح النمط الموجه من الداخل، حيث انسجمت السلطة الفلسطينية ذات السمات التقليدية مع الإطار القروي في مسألة أساسية، وذلك أنها تعاملت مع الطموحات الأساسية للبرجوازي الريفي الصغير: الثراء والصعود الاجتماعي. ومن هنا تحول شبه المثقف الفلسطيني إلى مثقف عضوي للسلطة الفلسطينية، وبالتالي للكومبرادور الفلسطيني.

هذا هو الظرف الجديد: دخل شبه المثقف الفلسطيني في سياق آخر، نعني به سياق المجتمع الاستهلاكي. ان الوفرة المادية، مضافاً إليها انعدام الانتاجية وغياب الدور، قد احدثت تأثيرات جعلته يقترب كثيراً من النمط الموجه بواسطة الآخرين. ولكن علينا أن نفهمه بصورة مختلفة عن تلك التي قدمها «رايزمان» و«ايرك فروم». ان ملامح شخصيته ما زالت نتاجاً لمجتمع تقليدي، ولنزعة الامتلاك والصعود الاجتماعي، بدون اعتبار للآخرين. إنه يحمل بعض ملامح النمط الموجه من الداخل. ولكن هناك فارقاً أساسياً: أن هذه الملامح هي ذات طابع ستاتيكي راكد، سمتها الخضوع، لا الرغبة العنيفة في تغيير العالم.

أما بالنسبة للملامح الاستهلاكية التي تسربت إلى المثقف الفلسطيني، بالرغبة في إرضاء الآخرين، فهي ترتكز على نواة نفعية: أي أنه يرضي الآخرين ليستفيد منهم.

وباختصار إننا أمام نمط جديد: المثقف العضوي لطبقة منحطة وسلطة منحطة. لقد تضافرت مجموعة من العوامل التاريخية والاجتماعية على خلق هذا الأنموذج الإنساني الغريب الذي يصعب تصنيفه. وإذا أردنا أن نحدد المسؤولية المباشرة عن خلق هذا الأنموذج فإنها قطعاً تقع على عاتق السلطة الفلسطينية. فمن المؤكد أن هؤلاء الشبان

جاؤوا إلى الثورة الفلسطينية مدفوعين بدوافع وطنية - أو حتى ثورية. هذا يعني أنهم قد أعدوا أنفسهم لتغيير جذري في تكوينهم وفي علاقتهم بالعالم.

إن ظروف الاندفاع نحو الثورة الفلسطينية، أي العنصر الذاتي، تحتاج إلى بعض التفاصيل والإيضاح. لهذا سوف نأتي بمثال ، وهو ثورة أكتوبر في روسيا . يدور الحديث عن هذه الثورة، في الغالب، بأنها نتاج ظروف موضوعية قادت إلى إنتصارها بشكل حتمي. ولكن نادراً ما يقال إن هذه الظروف نفسها كان من الممكن أن تؤدي إلى نتائج مختلفة تماماً.فما هو العامل الحاسم الذي جعل الوضع الروسي يقود إلى ثورة اكتوبر؟

إنه، كما أعتقد، الانتلجنسيا الروسية. يقول «ستيفان زيفايج»، في دراسته عن «دستويفسكي»:

«أنه إذا أجرينا مقارنة بين الانتلجنسيا الروسية والانتلجنسيا الاوربية الغربية فسوف نلمس الفارق».

ويقول «زيفايج» عن هؤلاء الروس:

«إن العالم يبدأ من جديد في كل فرد من هؤلاء، لأنهم أناس ينتمون إلى مرحلة بداية. وإن كل الأسئلة التي تجمدت عندنا متحولة إلى مفاهيم باردة، ما زالت تتقد في دمائهم. وإن طرقنا المريحة المسلوكة المجهدة المؤدية إلى ميادين الأخلاق والتي يقوم عليها مرشدون أخلاقيون ما زالت مجهولة عندهم. فهم يخترقون الأحراش دائماً ، وفي كل مكان إلى مالا حد له، إلى اللانهائي. وكل فرد منهم يشعر بما تشعر به روسيا «لينين» و «تروتسكي»، وهو أن عليه أن يعيد بناء العالم بأسره. وتلك هي قيمة الإنسان الروسي التي لا توصف بالقياس إلى أوروبا، وهي أن فضولاً بكراً يطرح هنا، مرة أخرى، كل أسئلة الحياة على اللانهاية. وإن قوماً آخرين ما زالوا متوقدين، على حين أصبحنا نحن خاملين في ثقافتنا».

ويقول «كويستلر»:

«إن اللجنة المركزية للحزب البولشفي كانت تضم ألمع مفكري أوربا. وعلينا أن نتذكر أن المرحلة الأولى من ثورة أكتوبر قد انتجت أعظم منجزات السينما والمسرح في وسط ظروف اقتصادية واجتماعية بالغة الصعوبة. لهذا أصبحت روسيا المتخلفة، الجائعة، المطحونة بالحرب الأهلية والغزو الأجنبي مركز عقل العالم وروحه».

إن فرصة مشابهة قد أتيحت للثورة الفلسطينية. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ أننا، بديلاً من

«لينين» و«تروتسكي» و«ستالين» و«بوخارين» و«زينوفيف» و«ايزنشتاين» و«ستانسلافسكي» و«شولوخوف» و «ماياكوفسكي».. نجد «عرفات» و«أبو مازن» و«خالد الحسن» و«عبد الرحمن» و«غانم زريقات» و«أحمد دحبور» و«حكم بلعاوي» و«أبو الزعيم» و«أبو الهلال» وآخرين يبلغ من تفاهتهم أنه يستحيل ذكر أسمائهم.

لقد كانت الثورة الفلسطينية مرشحة لأن تستقبل ألمع العقول العربية والعالمية، كما أشرنا، إلا أنها أبعدت المثقفين عنها ودمجت في داخلها أشباه المثقفين، بعد أن أوقفت نموهم العقلي والروحي.

هذا ما حدث بالفعل لهؤلاء الشبان، فقد تم إطفاء الاشتعال والتوهج الروحيين والعقليين اللذين وفّرا لهم إمكانية نادرة: أن تعاد صياغتهم ليصبحوا مثقفين ثوريين، لأنْ يعيدوا صياغة العالم من حولهم وهم يعيدون بناء أنفسهم. وهذا يعني أن تذوب تلك النواة الصلبة من القيم والمفاهيم التي تشكل المعطيات الأساسية للتكوين الروحي للبورجوازي الريفي الصغير، ويولد المثقف الثوري. ولا يستبعد بعد ذلك أن نقيم مقارنة بين مفكري م.ت.ف. ومفكري ثورة أكتوبر. ومقارنة أخرى بين سينمائيي وأدباء وشعراء الثورتين، بدلاً من أن نواجه هذه المقارنة الخرافية بين «الوجدانيات» الفلسطينية وفيلم المدرعة «بوتمكين» - التحفة السينمائية السوفياتية.

منذ البداية أقامت القيادة اليمينية سلسلتها المنطقية: الفكر تابع للبندقية، والبندقية تابعة للكومبرادور الفلسطيني وللرجعية العربية. كما قدمت هذه القيادة ثرثرة غوغائية تخفي بها مشروع الكومبرادور الفلسطيني، وهو أن تتحول الثورة الفلسطينية إلى مجموعة ضغط اقتصادي داخل الولايات المتحدة، تنافس المؤسسة الصهيونية، ثم تقيم - كما اتضح الآن - تنسيقاً معها، وكما سنشرح بعد قليل.

هذا ما واجه هؤلاء الشباب - المشروع، ومن خلال القمع والإفساد بالمال وعبر دروشات مثقفين عرب انحرفوا بمال م.ت.ف. تم تقزيم هؤلاء الشبان وتبليعهم، حتى تحولوا إلى مجرد أدوات إعلامية تافهة. ومن خلال القمع والإفساد، تمت مصادرة الإمكانيات الثورية داخلهم، وجرى تثبيت نمط البرجوازي الريفي الصغير، المفتوحة أمامه سبل الانخراط في سياق المجتمع الاستهلاكي.

عبر هذا التدجين أصبح شبه المثقف الفلسطيني، مثقفاً عضوياً للكومبرادور الفلسطيني. والآن تضيق الحلقة حول مثقف م.ت.ف. ويصبح أقصى طموح قيادته، وطموحه بالتالي،

أن يؤكد لقادة إسرائيل حسن نيته ورغبته في التحالف معهم. وسنورد، هنا، جزءاً من تصريحات «بسام أبو شريف»، والتي تعبر عن رأي «عرفات»، كما يقول، والتي أطلق عليها زميلي وصديقي «عبداللطيف مهنا» اسم «وعد بلفور جديد»:

«..فإنك ستجد بأن الفلسطينيين والإسرائيليين هم على اتفاق تام حول الأهداف والوسائل. إن هدف إسرائيل هو السلام والأمن الثابتان، كذلك فإن السلام والأمن الثابتين هما هدف الشعب الفلسطيني أيضاً. ولا أحد يستطيع أن يفهم معاناة الشعب اليهودي على مدى قرن أكثر من الفلسطينيين... إننا نشعر بأن ليس هناك من شعب، سواء أكان الشعب اليهودي أم الشعب الفلسطيني، يستحق الظلم والحرمان من الحقوق وسوء المعاملة، وهي الأمور التي تدفع به حتماً إلى اليأس...».

ثم يعلن حق إسرائيل في الوجود ويتوقع من «الشعوب المجاورة»... نوعاً من التعاون السياسي والاقتصادي الذي من دونه لا يمكن لأية دولة أن تضمن أمنها مهما كانت قوة آلتها الحربية... إن سبب وجودها (م.ت.ف.) ليس خراب إسرائيل... هدفنا النهائي... حياة آمنة ليس لأطفالنا فقط بل لأطفال إسرائيل أيضاً...».

ماذا سيكون الآن موقف «مثقف» م.ت.ف. الذي بدأ فعله بعزم على تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، وانتهى إلى مطالبة «الشعوب المجاورة»، أي العرب، بعدم «التدخل» في شؤون إسرائيل والفلسطينيين، والاكتفاء بتعاون سياسي واقتصادي لضمان أمن دولة إسرائيل «مهما كانت قوة آلتها الحربية»؟ وماذا يكون موقفه من كون هدفه النهائي هو حماية أطفال إسرائيل؟ هل سيراجع موقفه؟

لن يفعل شيئاً من هذا لأن الطريق مسدود أمامه.وموقفه هو الخضوع المطلق والانغماس في الفردوس الاستهلاكي. تم إخصاؤه، فلم يعد يصلح لأي عمل آخر!

نشرت هذه الدراسة في مجلة الكاتب الفلسطيني، العدد «١٣» خريف ١٩٨٨

القسم الرابع

في نقد «اليسار» الفلسطيني

الفصل العاشر

الأسئلة الفلسطينية
وأجوبة «الشعبية»

ماهي الاسئلة الأكثر إلحاحا، التي تطرحها الساحة الفلسطينية في هذه المرحلة، وما هي الاجوبة التي ترد بها الجبهة الشعبية على هذه الاسئلة عبر تقديمها لمشروع المؤتمر الشعبي؟

حتى لا نضيع في متاهة، علينا ان نحدد طبيعة الاسئلة. هنالك اسئلة نظرية، واخرى عملية. ومأزق الاجابات المقدمة، في كثير من الأحيان، أنها تعالج المسائل النظرية باعتبارها قضايا عملية، تكتيكية. مثال ذلك مسألة السلطة. اي مَنْ يقود الثورة؟ يتم اخضاع هذه المسألة لمحدودية وقصر نظر التكتيك اليومي. وفي أحيان اخرى يتم رفع مستوى العمليات التكتيكية، وحتى المناورات العبثية، إلى الافق النظري الخالص، كما تفعل الجبهة الشعبية بمشروعها لعقد مؤتمر شعبي.

علاقة النظرية بالممارسة

ليس هدفنا، هنا، طرح معطيات هذه القضية المعقدة: تحديد مستويات النظرية والممارسة، ولكن لا بد لنا من تأكيد بعض الاوليات الابستمولوجية (الخاصة بنظرية المعرفة).

النظرية هي صياغة تجريدية لمجموعة من التجارب الانسانية. وهي لا تعمم هذه التجارب الماضية وتفسرها وتربط بينها فقط، ولكنها تضع مؤشرات للتطور المستقبلي، وتظل في وضع استجابة واستعداد لتعديل ذاتها من خلال التجارب الحادثة مستقبلاً. هذه مسألة معروفة، واثباتها، هنا، هو تمهيد لحديث قد لا يكون على هذا القدر من الشيوع.

لكل انسان رؤية للعالم تحدد فهمه لمختلف المسائل وتحدد سلوكه. ان الافتقار إلى هذه

الرؤية لا يعني الجنون (فالشيزوفرانيا رؤية ايضاً) ولكنه يعني إنتهاء الوجود ذاته. فالرؤية بهذا، تصبح معطى انطولوجيا.

والسؤال الآن: ما هي العلاقة بين هذه الرؤية وبين النظرية؟

معظم عناصر الرؤية هي معطيات لا واعية، في حين ان جميع عناصر النظرية واعية لمن يتبناها. وعند الجمع بين هذين الإطارين تحدث تعارضات وتناقضات في داخل الشخصية الانسانية، ولا يتم تجاوز هذا التناقض إلا بالوعي. وأعني هنا إلغاء الرؤية بعناصرها اللاواعية وتبني النظرية.

الواقع يطرح كثيراً من التناقض بين هذين الاطارين. ألا نجد ماركسيين يعاملون زوجاتهم كما يعامل مالك العبيد جواريه؟ في مجلة (الهدف) رد على حوار حول المثقف الفلسطيني، فكيف تستجيب المجلة، في افتتاحية القسم الثقافي فيها لهذا الحوار؟ تقول: «.. إذا كان هنالك من يريد للساحة الفلسطينية ان تنجر الى السفاسف، فان واجب الواعين، ممّن ينتسبون حقاً إلى شعبنا الفلسطيني، هو التركيز على الأخطار الأكبر والأكثر جوهرية».

والمحرر الثقافي (للهدف) يشير هنا، بقوله: «ممّن ينتسبون حقاً لشعبنا الفلسطيني» ان بعض من يحاورون قضايا الساحة الفلسطينية من العرب غير الفلسطينيين، وهم لهذا يجرون الساحة الى السفاسف. ومن المعروف ان (الهدف) تنطق باسم تنظيم ماركسي. كما انها وريثة حركة القوميين العرب الذين كانوا يطالبون باستعادة اسبانيا.

وما يكاد المحرر يدلي بفكرته الرائعة عن العرب المعادين للفلسطينيين حتى ينهال بالمديح على نفسه:«إن صمت الآخرين - أي هو وأمثاله - عن تفاهاتهم - أي المتحاورين - ليس عن عجز، وانما عن ترفع» وهو من الذين تنتظرهم «هموم خطيرة».

الرجل متواضع من دون شك.

هذا مثال صارخ على ذلك الانفصال بين الرؤية والنظرية. أعني وضع التعصب لكل من ينتسب حقاً الى فلسطين في جانب، وفي الجانب الاخر المضاد من هو ليس فلسطينياً. وهذا ليس موقف المحرر الثقافي لمجلة (الهدف)، ولكنه الموقف الحقيقي للجبهة الشعبية.

في طرحها لمشروع المؤتمر الشعبي، أكدت الجبهة الشعبية انها لا تنوي خلق منظمة تحرير بديلة، بل تجميع كل الفلسطينيين لإدانة اتفاقية عمان. ورغم أن ما حدث بعد هذه الاتفاقية كان أعظم (تصريح «عرفات» في القاهرة، اجتماع بغداد لاقامة حكومة فلسطينية في المنفى) فما تزال الجبهة الشعبية ثابتة عند اتفاقية عمان!

ما هي علاقة هذا بالصلة بين النظرية والممارسة؟

إننا أمام ذلك المنطق الذي يلغي النظرية لصالح الممارسة - والرؤية جزء من الممارسة. ووراء ذلك فكر ذرائعي جاء به الأب «عرفات» وتبناه الأبناء. وهذه الرؤية تعمل جاهدة لتدمير العقل الفلسطيني وإعادته إلى وضع ما قبل النظرية. لقد تابعت، بحس عميق من القلق، ذلك الاستفتاء الذي اجرته مجلة (الهدف) حول المؤتمر الشعبي. كانت المسائل المثارة هي: أين يعقد المؤتمر، وكيف سيُختار أعضاؤه، وما هي الإجراءات التي يجب ان تسبق عقده، وكيف نضمن حرية النقاش الخ.. ولم اجد احدا يسأل لماذا ينعقد المؤتمر؟

الاسئلة التي اثيرت تتعلق بالممارسة ؛ أما سؤال لماذا عقد هذا المؤتمر فيتصل بالنظرية. والمصادرة على المسائل المتعلقة بالنظرية هي مصادرة على العقل، اعني مصادرة على المسائل التي تطرحها الساحة الفلسطينية بإلحاح.

منظمة التحرير الفلسطينية

موقف غالبية الفصائل الفلسطينية من م.ت.ف. موقف شديد الغرابة. ولعل أغرب ما فيه أنه لايوجد فصيل واحد قادر على تقديم تفسير مقنع لموقفه. يقال إنهم لا يريدون ان يعلنوا انشقاقا، ولكن الإنشقاق قد حدث بالفعل. حدث أفقيا وحدث عموديا، وهذه مسألة معروفة.

هل ما يزال هنالك قواسم مشتركة؟

من الواضح أنه، من خلال اتفاق عمان وتصريح القاهرة، وما رشح عن اجتماع بغداد - المنعقد خلال كتابة هذه السطور - لم يعد هناك من قواسم مشتركة بين مجموعة عرفات والفصائل الوطنية لمنظمة التحرير.

تظل هنالك حجة أخيرة. وهي أن م.ت.ف. هي ثمرة نضال الشعب الفلسطيني، وقد نالت اعترافاً عالمياً، ويتوجب المحافظة عليها. ولكن هل حدث هذا الاعتراف العالمي بسبب نضال الشعب الفلسطيني وعدالة قضيته، ام بسبب وجود منظمة التحرير الفلسطينية؟ والفصل بين المسألتين هام للغاية، لأن كلا منهما تقف في مواجهة مع الاخرى وفي تعارض معها.

الابقاء على م.ت.ف. بوضعها الحالي، يعني إعطاءها الفرصة لتصفية القضية الفلسطينية، وإيقاف الكفاح المسلح. إنه يعني الانخراط في المشروع الامريكي؛ أي إلغاء

احتمال قيام كيان فلسطيني مستقل والغاء أي كفاح مسلح.

ومن المعروف، كذلك، أن أحد الشروط الامريكية للبدء في بحث القضية الفلسطينية هو الغاء الكفاح المسلح.

فما معنى المحافظة على م.ت.ف. بوضعها الحالي؟

ولكن قبل ان نجيب على هذا السؤال، علينا ان نتأمل نتائج تجميد الوضع الفلسطيني على حاله:

- إعطاء اليمين الفلسطيني الفرصة كاملة، ليحقق مخططاته التي لم تعد خافية على احد.

- تعليق العلاقات مع القوى الثورية والوطنية العربية، وجعل التحالف الوحيد الممكن هو التحالف مع اليمين الفلسطيني.

- جعل الوجه العالمي للثورة الفلسطينية هو وجه اليمين الفلسطيني، باعتباره الممثل الوحيد للثورة الفلسطينية، اي اضفاء الطابع الامريكي على الثورة الفلسطينية.

تراجع الثورة

لعل اخطر آثار تجميد الوضع الفلسطيني، وإبقاء الساحة الفلسطينية في حالة التردد هو هذا التمزق الحادث داخل الصف الوطني. فبحجة منع م.ت.ف. من الانقسام يسري التمزق داخل الصف الوطني، وتقوم محاور متعددة لن تكون لها من نتيجة سوى ان يتم احتواء كل محور فلسطيني بواسطة دولة عربية. إنه لمنطق غريب ذلك الذي يمزق الساحة الفلسطينية الوطنية، ويجعلها في حالة تردٍّ وتراجع بدعوى المحافظة على وحدتها.

وآثار التردي الفلسطيني واضحة للعيان. فبجهود دعاة التردد أصبحت الثورة الفلسطينية لا تجد من يمثلها في الاجتماعات الرسمية العربية. وفي لبنان، حيث تتركز القوات الرئيسية للثورة الفلسطينية، تقف هذه القوات عاجزة عن الفعل. وقد بدأ الحديث فعلاً عن اعتبارها قوات فائضة عن الحاجة، وبدلا من شن حرب حقيقية باسلحة حديثة على العدو الصهيوني تهلل الفصائل الفلسطينية «لأهلنا في الداخل» الذين يحاربون بالحجارة والخناجر. ويتم كل هذا تحت شعار «المحافظة على م.ت.ف.» من الانقسام، وكأنها لم تنقسم بعد.

وبسبب هذا التردد تفقد الجماهير الفلسطينية حماسها للثورة، ويتم الإفساد علناً. فلم تعد

سراً تلك الرحلات التي يقوم بها البعض ممن يقدمون لعرفات خدماتهم« أنظر هذا ما نكتبه داخل المعارضة الفلسطينية دفاعاً عنك»، ويقبضون مبالغ طائلة مقابل ذلك. الكل يعلم الآن أن الاتجاه السائد بين الجماهير الفلسطينية هو الابتعاد عن الفصائل. إنها تسعى - أي الفصائل - للمحافظة على الموجود، لأن لا أحد ينضم اليها.

هذه هي بعض نتائج سياسة التردد، سياسة عدم الحسم، وابقاء الحبل السري مستمراً مع «عرفات».

لماذا؟

قلنا إن سياسة التردد التي تقودها الجبهة الشعبية، تتجسد بالتالي: « الفلسطينيون ككل ضد العرب ككل». من خلال هذا الفهم الشوفيني الضيق، تعتقد الجبهة الشعبية أنها تستطيع أن تجمع الساحة الفلسطينية حولها. لا أتحدث فقط عن سفاهة المحرر الثقافي لمجلة (الهدف) الذي يعتبر الدفاع عن المخيمات الفلسطينية، من قبل غير الفلسطينيين، امراً يستحق الإدانة. ولا أتحدث فقط عن تصريحات بسام ابو شريف عن اللغة الجميلة التي كانت تسود الساحة الفلسطينية عندما كان «عرفات» سيدها بلا منازع.. وإنما اتحدث، أيضاً، عن:

- افتقاد المعيار الطبقي في تحليل المواقف داخل الساحة الفلسطينية واعتبار الجميع اخوة؛

- تقديم مفهوم اليمين المنحرف واليسار المغامر - وكأن ذلك تحليل علمي لمعطيات الواقع - للإحتفاظ بمساحة وسطية تتحرك فيها «الشعبية» بحرية، وتحافظ على جميع الخطوط.

فما وراء ذلك كله ؟

ماوراء تغليب الرؤية الشوفينية على المفهوم العلمي؟

ما وراء وضع العربة أمام الحصان، وضع م.ت.ف. فوق قضية الشعب الفلسطيني؟

وراء ذلك أن الجبهة الشعبية تجد في وضع كهذا فرصتها لتقود الساحة.

قد تقودها فعلاً، ولكن الى مواقع اليمين.

مجلة «فتح» - ١٩٨٥/١٢/٤ - العدد - ٦٦. ص٦٢

الفصل الحادي عشر

حوار مع «الشعبية»
و «الـديمقـراطيـة»

«هناك مستويات للماوية: الاول للجماهير العريضة، والآخر لمجموعة ضيقة من الناس والطغمة البيروقراطية العسكرية. وهناك حقيقتان: الأولى للإستخدام على نطاق واسع ولأعضاء الحزب العاديين وجماهير الفلاحين والعمال، والأخرى لمحيط ماوتسي تونغ الضيق. والحقيقة الثانية تعتبر نظاما قويماً لوجهات النظر بشأن آلية وظيفة وهيكل السلطة الاجتماعية، ومبادئ السياسة الاقتصادية، وقواعد العلاقات المتبادلة في المجتمع والحزب».

غيور غبيف وسيد يخمينوف

(١)

ينطبق هذا القول على الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وعلى الجبهة الديمقراطية، مع فارق هام هو أن الديمقراطية تقول عكس ممارساتها على ارض الواقع. القول هو وحدة القوى الثورية الجذرية والوطنية، والفعل هو تُمزيق قوى اليسار والتحالف مع اليمين.

لقد ادركت الجبهة الشعبية هذه الحقيقة، ولكن ـ مع كل أسف ـ في وقت متأخر، ودون أن تخرج منه بالنتائج الضرورية. فلقد جاء في «البيان السياسي الصادر عن المكتب السياسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٤:

«خامساً: لقد فوجئت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالبيان السياسي الذي صدر يوم ١٩٨٤/١١/٢٠ عن اللجنة المركزية للجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين «....»

جـ ـ لقد أثبتت التطورات المتلاحقة خلال الاسابيع والايام القليلة الماضية، وما تخللها

من مواقف صادرة عن اعضاء «اللجنة المركزية» لحركة فتح، أن المطلوب من الجبهة الشعبية، ومن أطراف التحالف الديمقراطي، كان تقديم تنازلات مجانية تعطي القيادة اليمينية الدعم والتغطية لمسارها الإنحرافي، وبدون ان يترتب على ذلك حتى وقف الإندفاع الإنفرادي، من جانب اللجنة المركزية، نحو عقد المجلس الوطني في عمان، كما يدعي بيان الجبهة الديموقراطية«...» إن إختلاف هذه المواقف - وهو أمر مفهوم وطبيعي - لم يدفعنا إلى إتخاذ المواقف النزقة والمتسرعة «...» إن القيادة المشتركة من جانب واحد، وفتح النيران الاعلامية والسياسية ضد مواقف وسياسات الجبهة الشعبية هو أفضل هدية تقدمها الجبهة الديمقراطية لليمين الفلسطيني على ابواب انعقاد المجلس الوطني في عمان...».

إن المذهل في بيان الجبهة الشعبية هو أنها تعتبر الجبهة الديموقراطية:

أ - اتخذت هذا الموقف بسبب النزق والتسرع؛

ب - أنها ساذجة، إلى حد ينبغي تذكيرها - أي تذكير الجبهة الديموقراطية - أن ما تفعله «هو أفضل هدية تقدمها لليمين الفلسطيني»؛

جـ - مجرد نزقة وساذجة ناسية تاريخ الجبهة الديموقراطية معها. إذ أنها بمجرد أن أعلنت انشقاقها عن الجبهة الشعبية، حمت نفسها من نزق وتسرع الجبهة الشعبية بالقوات المسلحة لليمين الفلسطيني.

والأشد إثارة للذهول في بيان الجبهة الشعبية أنها تعترف صراحة أن قيادة فتح كانت تنوي استعمالها غطاء «لمسارها الانحرافي، ودون ان يترتب على ذلك حتى وقف الإندفاع الإنفرادي من جانب اللجنة المركزية نحو عقد المجلس الوطني في عمان» ويبدو ان ذلك لم يمنع المكتب السياسي من القول إنه «يود أن يؤكد تمسكه بخطه التوحيدي». من ضربك على خدك الايسر فحول له الايمن، فلك الجنة.

(٢)

والذي تشير اليه الجبهة الشعبية، قالته الجبهة الديموقراطية لكل من يكلف نفسه بقراءة جادة لبيانها. فهي لم تكن أبداً بمثل هذا الوضوح في التعبير عن منطلقاتها الايدولوجية وممارستها على أرض الواقع.

يقول البيان:

«..الجبهة الديموقراطية على إستعداد لوضع الاتفاقية (إتفاقية عدن ـ الجزائر) موضع التنفيذ الفوري، والمشاركة في أي اجتماع للمجلس الوطني يعقد في العاصمة الجزائرية أو أية عاصمة وطنية اخرى بدون أن ترهن حضورها بمشاركة أي طرف آخر...»

ويقول البيان أيضاً:

«إن الاتفاق قد تم على مواصلة «العمل للتغلب على العقبات التي تعوق انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني على أن يتحدد مكانه وزمانه بالاتفاق بين اطراف اتفاقية عدن – الجزائر».

وقد وافقت الجبهة الديموقراطية على هذا، رغم «أننا كنا نفضل عقد اجتماع عاجل لدورة المجلس الوطني» بسبب سعي الجبهة «لضمان وحدة اطراف الاتفاق من جهة، ولاحياء وتفعيل مؤسسات م.ت.ف. فوراً».

وأمام إصرار الجبهة الشعبية على حضور «التحالف الوطني» إجتماعات دورة المجلس، فقد «أبلغ وفد الجبهة الديموقراطية قيادة فتح أن الجبهة الديموقراطية لا توافق على عقد المجلس الوطني في عمان ... ولكن في حال تخلف الجبهة الشعبية عن المصادقة على صيغة عدن الاخيرة، فان الجبهة الديموقراطية على استعداد لحضور المجلس الوطني في «أي مكان آخر، وبغض النظر عن أية إعتبارات.» ويرى البيان أن الوضع الكارثي في الساحة الفلسطينية هو تردد الجبهة الشعبية في حين ان مسؤولية قيادة فتح أنها «قد تسرعت» . وقد دعا تردد موقف الجبهة الشعبية من المجلس الوطني، الجبهة الديموقراطية أن «تقرر اللجنة المركزية للجبهة الديموقراطية تجميد القيادة المشتركة للجبهتين..».

وقد جاء بيان الاعلام المركزي للجبهة الديموقراطية، الصادر بتاريخ ١/٣/١٩٨٤ ليؤكد:

«اننا نحذر من خطورة اية محاولة لتفسير مقررات الدورة الاخيرة بما يخالف القرارات السياسية للدورة ١٦ ويتعارض مع القاسم المشترك الذي اجمعت عليه فصائل الثورة وقواها الوطنية».

.... وليقيّم عالياً مشاركة الجبهة الديموقراطية غير الرسمية في مجلس عمان اذ نجحت «في احباط محاولات تمرير المبادرة الأردنية» وترى في اجتماعات المجلس مثالاً «يؤكد مرة اخرى على أن التعاون بين الاتجاهات والعناصر الوطنية في قيادة حركة فتح وكوادرها وبين القوى الديموقراطية كفيل بان يوفر الضمانات لحماية الخط الوطني لمنظمة التحرير والحيلولة دون جرها الى مواقع التفريط والاستسلام».

(٣)

إن هذا يعني مجموعة من الحقائق، التي لا ينبغي لاي دارس للسياسة الفلسطينية ان يتجاهلها:

أ - أن الجبهة الديموقراطية تحدد مفهوماً صريحاً لوحدة منظمة التحرير الفلسطينية، يعتمد على التحالف بين المحور الديموقراطي وقيادة فتح وهذا يعني، من بين اشياء كثيرة، إستبعاد ٩٠٪ على الاقل من القوى العسكرية الفلسطينية التي تقف على خطوط المواجهة مع العدو. واذا تذكرنا الخطط الامريكية - الاسرائيلية الساعية الى اذابة القوات الفلسطينية المقاتلة في عدد من البلدان العربية، البعيدة عن خطوط المواجهة مع العدو، فاننا ندرك المغزى الحقيقي لما تطالب به الجبهة الديموقراطية.

ب - أن الجبهة تحدد العدو الرئيسي في الساحة، بأنه التحالف الوطني، اما قيادة فتح فتراها الجبهة الديموقراطية، (المنظار نفسه الذي رأت فيه الشعبية قرار الديموقراطية بتجميد القيادة المشتركة) إنها مجرد قيادة نزقة متسرعة.

جـ - أن القضية الاساسية للجبهة الديموقراطية، كما تكشفها هذه الوثائق وتاريخها السابق، هي إخضاع اليسار الفلسطيني و(العربي) لليمين الفلسطيني والعربي. هذا شرطها للتحالف مع أية قوة يسارية. وإذا لم يتحقق هذا الشرط فانها تمزق كل تحالفاتها مع اليسار. باختصار، فان الموقف الاساسي للجبهة هو تمزيق قوى اليسار وشلّها، وإتاحة الفرصة كاملة لسيطرة اليمين (السائر على طريق الخيانة، حسب رأي الجبهة).

د - علينا ان نتمعن في مدلولات اصرار الجبهة الديموقراطية على تفعيل مؤسسات منظمة التحرير، ونتبين معنى مطالبتها فوراً بتنشيطها، وفي هذه الظروف بالذات. لقد تم تفعيل وتنشيط اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، واتحاد المرأة، واتحاد العمال، والطلبة، والمجلس الوطني ..الخ وفي كل مرة كان يتم فيها ذلك التفعيل كان يحدث انشقاق عميق وشبه نهائي في كل مؤسسة من هذه المؤسسات. الا تعرف الجبهة الديمقراطية ذلك؟ ام هو مجرد نزق وتسرع جعلها لا تعرف المعاني الحقيقية للمدلولات وللنتائج الخطيرة المترتبة على هذا التفعيل الفوري؟

ان الممارسة هي المعيار الحقيقي لكل قول. والممارسة العملية، والمعلن عنها صراحة،

أن الجبهة الديموقراطية تسعى بشكل حثيث لشق الساحة الفلسطينية. لماذا؟

لان الساحة بعمومها لم تعد تربة صالحة لسيطرة اليمين الخائن، او على الاصح، لانفراده بالسلطة. فلقد تلاشت مؤسساته القمعية ، ولم تعد يده قادرة على قسر الساحة الفلسطينية لكي تسير وراءه، كما ان القوى التي تدعم اليمين الرجعي الفلسطيني لا تريد من منظمة تحرير أن ترفع شعارات الكفاح المسلح، كما لا تريدها أن ترفع شعارات تصفية إسرائيل، واعتبار مشاريع التسوية مجرد أوهام تشيعها الرجعية العربية لتبرير علاقاتها القوية المتعددة مع امريكا.

هـ - هل هو مجرد السذاجة والنزق الذي جعل الجبهة الديموقراطية تقول في بيانها السابق (بتاريخ ١/١٢/١٩٨٤) إن «العناصر الوطنية والتقدمية (قد نجحت) في احباط محاولات تمرير المبادرة الأردنية»؟ الم تعلم، وتعرف، أن القيادة الرجعية كانت أذكى من أن تجعل تلك المبادرة، موضوعاً لمناقشة علنية؟ لهذا السبب أحالتها (دون رفض او قبول) إلى لجنة تنفيذية مطواعة لا تقول «لا» أبداً .

اعتقد أنه على الجبهة الشعبية أن تخرج بالنتائج الضرورية من مقدمات واضحة، لا لبس فيها، ومن تاريخ للجبهة الديموقراطية تعرفه اكثر من غيرها، ومن ممارسات خطيرة جدا، تعرفها الجبهة الشعبية، وتخفيها؛ ممارسات ليس النزق والتسرع والسذاجة دوافعها.

(٤)

في حديث مع صديق، كان عضواً بارزاً (جداً) في الجبهة الديموقراطية، قلت إن اليمين الرجعي الفلسطيني يسعى، منذ فتره ليست بالقصيرة، لكي يعيد تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية لتصبح شبيهة بالمؤسسة الصهيونية، اي ان يكون جوهرها هو القوة المالية، وذلك بتجميع الكومبرادور الفلسطيني ودعمه بجسد هائل من الحماة، وان تحاول ان تخلق لها نفوذاً عبر مؤسساتها المالية عبر تشكيل لوبي فلسطيني داخل الولايات المتحدة الأمريكية. وقلت إن ذلك يتطلب الغاء مفهوم الكفاح المسلح، واستعماله، كما استعمله «عرفات» في حوادث طرابلس، كقوة ضد الثورة العربية، ولتدعيم التواجد الأمريكي، كما حدث في لبنان،بما في ذلك دفاع اليمين الفلسطيني عن اتفاق ١٧ آيار.

ويحاول اليمين الفلسطيني، جعل الأردن مرتكزاً له. ففي حديث لخالد الحسن، موجه لمجموعة من كوادر فتح، قال:

«لقد انهزمنا عسكرياً في الأردن بإرادتنا؛ لاننا قررنا أن نملك شرق الأردن بأسلوب آخر، وهو الاسلوب الاقتصادي، وقد فعلنا. إننا نملك سبعين في المائة على الاقل من رأس المال في الأردن، وسوف نتوسع في ذلك كثيراً».

وقلت إن المنظمة، أو قيادتها، أصبحت تتبع تكتيكات المؤسسة الصهيونية. الحديث عن مآسي الشعب الفلسطيني وتشريده في بقاع الأرض، عن المذابح والجوع. وهذا ليس خطأ، ولكن المهم هو كيفية توظيفه .

ولقد سعى اليمين الفلسطيني لأن ينتسب إلى كل - أو معظم - الحركات الثورية في المنطقة العربية والعالم للتجسس عليها. ولقد دلت الاتفاقيات الامنية التي عقدها أبو إياد مع بعض الدول الرجعية العربية، ومع العديد من الدول الغربية ، أن هذا التسلل كان يتم لصالح المؤسسة المالية الفلسطينية.

إن لهذه المؤسسة مشروعها الخاص في أستعادة فلسطين. وهو مشروع السادات، أي أن تثبت لامريكا أنها أكثر قدرة على خدمة أمريكا من إسرائيل. فهي مدعومة بالمال العربي، وتملك أسرار الحركات الثورية في العالم، ولها منافذ إلى الدول الاشتراكية. كما أنها تستطيع أن تثبت لامريكا أنها قامت، بكفاءة لا مثيل لها، بتخريب وتعهير غالبية المؤسسات اليسارية العربية. إن العديد من المنظمات اليسارية العربية تتحدد سياساتها، إلى حد كبير، بالتمويل العرفاتي لها.

والمنظمة، زيادة على ذلك، تملك أجهزة للقمع، والإغتيال، والإبتزاز، تضاهي ما تملكه المؤسسة الصهيونية؛ كما تملك رصيداً معنوياً هو أستشهاد آلاف الفقراء الفلسطينيين.

وسألت الصديق: لقد إتخذ هذا المشروع شكلاً صارخاً في إجتماعات البليونيرات الفلسطينيين في «الحمامات» في تونس، وفي سويسرا، فكيف تعامى اليسار الفلسطيني عن هذه الظاهرة؟

قال الصديق: الاجابة موجودة فيما قلته أنت.

قلت: كيف؟

قال: إستمر في المقارنة. قارن بين يسار المؤسسة الصهيونية وبين الجبهة الديموقراطية مثلاً!

قلت: ماذا نجد؟

قال: منذ البداية والجبهة الديمقراطية تسعى لمجموعة من الاهداف:

أ ـ توحيد الساحة الفسطينية، بشكل نهائي، تحت قيادة اليمين. وما عليك إلا أن تقرأ بتمعن، ولا تنخدع بالمصطلح الثوري، مجموعة الوثائق التي تقدمت بها الجبهة الديموقراطية إلى المجلس الوطني السادس الذي انعقد في القاهرة، في ايلول ١٩٦٩. وقد صدرت هذه الوثائق عن دار الطليعة للطباعة والنشر، في بيروت.

ب ـ ان الجبهة ترى ان المسألة الاساسية هي إقامة الدولة الفلسطينية، بأي شكل، وأن دور اليسار يبدأ عند قيام هذه الدولة، كمعارضة لسلطة يمينية.

جـ ـ من المستحيل تحقيق هذه الدولة بدون قيادة مطلقة لليمين.

وأضاف:

قارن ذلك بيسار المؤسسة الصهيونية. فقد كان يعتقد أنه لا دور له إلا عندما يستقر اليهود في أرض، وتقام لهم دولة وصناعة،وطبقة عاملة،ورأسمالية الخ.. لذلك فعلى اليسار أن يصمت، أو يساعد الرجعية اليهودية في مشروعها (الدولة)، وبعد ذلك يبدأ نشاطه.

بكلمة أخرى، فإن اليمين الرجعي الفلسطيني لم يكتف باعادة إنتاج نفسه في موازاة، وفي تطابق مع، المؤسسة الصهيونية، بل أنتج اليسار الخاص به، والمماثل ليسار المؤسسة الصهيونية.

الطريق إلى الثورة يمر عبر اليمين

إن مفهوم الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين لشعار المحافظة على «القرار الوطني الفلسطيني المستقل» ، هو صياغة جديدة للشعار الماوي «الاعتماد على الذات».

إن أدبيات الجبهة الديموقراطية كانت تركز على الشعار الماوي «الاعتماد على الذات» بكثافة ومنذ البداية. نجد هذا واضحا في مجموعة الوثائق التي قدمتها الجبهة إلى المجلس الوطني السادس الذي انعقد في القاهرة (أيلول ١٩٦٩) ففي المقدمة التي كتبها نايف حواتمة لهذه الوثائق يقول:

> «إن هذه الدراسة تعتمد التحليل الملموس للوقائع القائمة في صفوف حركة المقاومة عبر مراجعة نقدية صارمة. وبذات الوقت نطرح البرنامج الاكثر تقدماً وتقدمية مما هو قائم، البرنامج الذي يشق طريقاً جديداً للمقاومة، يعتمد على الذات والجماهير، بأفق وطني جذري».

هذه المسألة اذا اخذت بذاتها (اعني، بدون ربطها بمجموعة الظروف التي كانت سائدة آنذاك وبمواقف الجبهة الاخرى) فإنها ذات أهمية بالغة، وذلك لأن كثافة الأموال البترولية تهدد بتصفية الثورة، كما أن الإعتماد على الذات، يعني أن تقوم الجماهير أساسا بتمويل الثورة. وهذا يحتاج إلى عملية تربية واسعة، كما ينعكس على علاقات الثورة بالجماهير، اذ تصبح الجماهير الممولة للثورة صاحبة مصلحة حقيقية في تقويم الثورة واستمرارها، كما أنها تستطيع أن تفرض إرادتها على قيادة الثورة وأجهزتها.

يعني هذا باختصار، إقامة علاقات ديموقراطية بين الجماهير والثورة.

ولكن هذه الوثائق كانت تطالب أساسا بوحدة قوى الثورة. والوحدة، في ذلك الظرف، كانت تعنى احتواء الثورة بواسطة اليمين الفلسطيني. ان التحالف مع اليمين، تحت شعار «القرار الوطني الفلسطيني المستقبل»، هو ابرز سمات النظرية الماوية.

عندما رفعت الصين شعار «الاعتماد على الذات» قامت بخطوتين هامتين:

١ـ الوثبة الكبرى إلى الأمام؛

٢ـ الثورة الثقافية. وعبر هاتين الخطوتين تم تدمير الاسس الاقتصادية للتعاون مع الدول الاشتراكية الاخرى، كما تم سحق القوى السياسية التي تتبنى موقف التحالف مع المعسكر الإشتراكي ووحدة هذا المعسكر.

ومن الشعارات التي كانت مرفوعة شعار يقول: «سوف نحطم رأس أي كلب يقف ضد أفكار ماو تسي تونغ» وكتبت صحيفة (جيلمين جيباو) في حزيران ١٩٦٧:

«يجب أن ننفذ تعليمات الرفيق ماو تسي تونغ، سواء أفهمناها أم لم نفهمها. يجب ان تؤكد السلطة المطلقة لماو تسي تونغ..»

فماذا كانت نتائج هذا؟

لنأخذ مثالا على ذلك، التجارة الخارجية للصين. في عام ١٩٦٨ كانت التجارة الخارجية للصين مع الدول الرأسمالية (مقارنة بعام ١٩٥٩) قد ارتفعت بنسبة ٢٢٠٪، في حين ان التجارة مع الدول الاشتراكية للفترة نفسها ارتفعت بنسبة ٦٧٪. وكان التبرير الذي قدمته الدعاية الصينية آنذاك أن التجارة مع الدول الاشتراكية تعيق التطور الاقتصادي للصين.

ونحن نعلم ان هذه السياسة الماوية قد انتهت إلى التحالف مع الاستعمار الشائع

(الولايات المتحدة) ضد (الامبريالية) الاشتراكية (الاتحاد السوفييتي)، والسياسات الاخرى المعروفة.

اما نتائج سياسة «الاعتماد على الذات» في الداخل، فقد كانت ضرب الحزب وعدم التعرض للبرجوازية.

لقد تم سحق القوى التي كانت تسعى لتعميق التحالف مع المعسكر الاشتراكي، تحت شعارات القضاء على البرجوازية. تم ذلك بواسطة الجيش بشكل أساسي. فماذا كان يحدث داخل الصين على ارض الواقع؟

في عام ١٩٥٦ تحولت المصانع الخاصة في الصين الى مصانع حكومية. ونتيجة لهذا فإن الرأسمالي قد أصبح مديرا لمصنعه، يقبض مرتبا يساوي خمسة أضعاف مرتب العامل على الأقل، يضاف إلى هذا أنه ينال ٥٪ من رأسماله سنويا. مثال ذلك، أنه، في حين ينال العامل الصيني خمسين ينأشهرياً ينال ليوني اي ٢٥٠ ينأشهرياً، بالاضافة الى مبلغ ٤٥٠,٠٠٠ ين سنوياً، رغم أنه استهلك رأسمال مصنعه كله.

وهكذا، فإن شعار « الإعتماد على الذات» في الصين، كان يعني - عالميا - التحالف مع أمريكا، و داخليا - التحالف مع الرأسمالية، وسحق اليسار.

(٥)

هل تم هذا الربط، في فكر الجبهة الديموقراطية، بين الشعارات الثلاث: الاعتماد على الذات، التحالف مع اليمين، العداء لليسار؟ إذا أستطعنا أن نبرهن على ذلك فنحن أمام فكر ماوي نموذجي.

تعلن الجبهة الديموقراطية أنها تسعى إلى وحدة منظمة التحرير الفلسطينية، والدفاع عنها

> «باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني. إن عدم المشاركة (مشاركة الجبهة الديموقراطية) في دورة عمان للمجلس الوطني لا تعنى الخروج على منظمة التحرير الفلسطينية، ان جبهتنا سوف تبقى على الدوام جزءاً فاعلا في منظمة التحرير..» (بيان اللجنة المركزية للجبهة الديموقراطية بتاريخ ١٩٨٤/١١/١٩).

ولكن «عرفات» قد غيّر من هيكلية منظمة التحرير الفلسطينية، ومن دورها. فلقد شق غالبية مؤسساتها بما فيها المجلس الوطني، جاعلاً منها تنظيما خالصا له، ذا لون واحد. لم تعد جبهة فصائل المقاومة، بل اصبحت تنظيماً ليمين فتح. وهو عندما عقد المجلس الوطني في

عمان، كان يعلم ان التحالف الديموقراطي لن يشارك، وكان يريد ذلك بالتحديد.

لماذا؟

لأنه لم يكن يريد ان ترتفع أصوات من اي نوع ضد مشروعه.

ولابد أن الجبهة الديموقراطية كانت واعية لهذا، وهي تضع خطوطا للتأكيد على العبارات التالية:

«وانطلاقاً من ذلك فان الجبهة سوف تعمل على مواصلة الحوار في جميع الظروف، مع الاخوة في اللجنة المركزية لحركة فتح..» (البيان).

كما أن

«جبهتنا سوف تواصل في جميع الظروف، العمل من اجل بناء وتنشيط كافة الصيغ المكنة للتنسيق والعمل النضالي المشترك مع حركة فتح وسائر القوى والفصائل الوطنية، داخل الارض المحتلة وخارجها، من اجل قيادة وتصعيد النضال الموحد ضد مخططات المعسكر الامبريالي ـ الصهيوني ـ الرجعي» (البيان).

ونِعْمَ الحلفاء لمواجهة المعسكر الامبريالي ـ الصهيوني ـ الرجعي! خاصة عندما يحدد «عرفات» هدفه الرئيسي «بفك العزلة عن مصر» كما جاء في حديثه لصحيفة الشرق الاوسط.

على أية حال، ليس هذا موضوعنا الان، المهم ان التحالف والتنسيق مع اليمين الفلسطيني هدف قائم في جميع الظروف، كما اكد بيان اللجنة المركزية للجبهة، في حين أن التحالف مع قوى اليسار «بسبب الشروط التعجيزية» مستحيل، والقيادة المشتركة تجمدت « على ضوء إخلال الرفاق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالإتفاقيات وأسس العلاقات بين الطرفين»!

ما اود تأكيده هو ان الجبهة تزن المسألة الواحدة بميزانين، واحد فيه قبول لليمين «في جميع الظروف،» وآخر فيه عداء لليسار ولجميع القوى الجذرية «في جميع الظروف».

والغريب فعلا هو موقف الرفاق في الجبهة الشعبية الذين لا يرون في هذا كله الا مجرد نزق وتسرع.

(٦)

فهل كان موقف الجبهة الديموقراطية نزقا وتسرعا، كما يؤكد الرفاق في الجبهة الشعبية؟

ان بيان الجبهة الديموقراطية، موضوع الحديث، قد جمع بين تحالف صريح غير مشروط مع اليمين الفلسطيني، وعداء غير مشروط لكل القوى التي تبدي أقل معارضة. وقد تم ذلك تحت شعار «القرار الوطني الفلسطيني المستقل». واذا أضفنا إلى ذلك، المبررات التي تطرحها الجبهة الديموقراطية؛ أي أنها، بمواقفها هذه، سوف تسحق اليمين الفلسطيني، وتتبوأ القيادة المطلقة لثورة بروليتارية فلسطينية، فإننا باختصار سوف نكتشف إعادة إنتاج فلسطينية لكل المقولات الماوية تقريباً.

بقي تماثل آخر، فلقد قادت الماوية الصين الى وضع أصبحت فيه جريدة الشعب اليومية، الجريدة الناطقة باسم الحزب الشيوعي الصيني، قادرة على القول إن الماركسية أصبحت موضة بالية. وبدت بوضوح مظاهر عودة الرأسمالية الى الصين. إن الانفتاح على الغرب، بكثافة واندفاع حماسيين، قد خلق سياقه الخاص داخل المجتمع الصيني، فنشأت مشاريع حرة، وتدعم مفهوم الربح، وأصبح التمايز الطبقي واضحاً. وبالمقابل، فإن أموال النفط الهائلة التي تكدست بين يدي قيادة الثورة الفلسطينية قد خلقت سياقا داخل المنظمات اليسارية الفلسطينية، فأصبحت الجبهة الديموقراطية مثلا، منظمة ثرية، وبحاجة دائمة إلى زيادة ثرائها!

مجلة «فتح» - ١٠/ ١٢ / ١٩٨٤ - العدد «١٨»

الفصل الثاني عشر

حـوار حـول
الوحدة والصراع

نشرت الزميلة (الهدف) بتاريخ (٢٦ ـ ٨ ـ١٩٨٥) تغطية لمسألة وحدة «اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين» الذي انشق بعد مؤتمر صنعاء السيء الذكر، وذلك باستفتاء ثلاثة من اعضاء الامانة العامة للاتحاد، وهم يحيى يخلف، بسام ابو شريف، جميل هلال.

سبق وأن عالجنا هذه المسألة سابقاً، ولكن ما طرحه اعضاء الامانة الثلاثة يعيدنا إلى نفس الدّويخة: بما أن وحدة الاتحاد مستحيلة، في الظروف الحالية، فعلينا أن نسعى إلى هذه الوحدة!.

هذه السيزيفية مدوّخة حقيقةً، خاصة وأن هنالك جهداً يبذل ووقتاً يهدر ومالاً يبذل بلا هدف ولا طائل.

هنالك احتمالان وراء هذا المسعى العبثي :

الأول : الاستمرار في الوقوف بين الطرفين المتنازعين، انتظاراً لحسم الامور والوقوف مع الطرف المنتصر؛

الثاني: مناورة تكتيكية للرد على الحملة اليمينية الغوغائية التي تطالب بإعادة الوحدة إلى الاتحاد، بدون ان تلتفت (هذه الحملة) إلى أنها هي التي شقت الاتحاد. ورغم هذا تثير الضجيج حول «اعادة اللحمة»، وهي لا تكتفي بذلك بل تطالب الطرف الاخر الذي انشقت عنه بأن يقوم بإعادة الوحدة إلى اتحاد الكتاب.

ولا يتوقف دلع هذه المجموعة عند هذا الحد، بل تشترط اعادة صياغة الوفد الذي سوف يقوم بالتوحيد حسب مزاجها، أي أن يكون وفداً يبرر الأنشقاق ويضع الإتحاد في حضن عرفات. فأي معنى، بعد هذا كله، لان تبذل الجهود للتوحيد وإعادة اللحمة!!

(١)

منذ البداية تطرح مجلة (الهدف) موقفها بوضوح:

«ورغم ان النهج الذي أدى إلى شق اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ما يزال قائماً في الساحة الفلسطينية، ويمارس سياسته ذاتها، تلك السياسة الهادفة إلى جعل المنظمات أبواقاً بدلاً من أن تكون أجهزة رقابة تمارس النقد والتحذير وفتح الأعين على المخاطر، أيا كان مصدرها، رغم ذلك، فإننا ننظر إلى مبادرة إتحاد كتاب آسيا وافريقيا، بترحيب شديد».

نلاحظ على هذه الفقرة عدة مسائل:

اولا: أنها ترحب باعادة اللحمة إلى الإتحاد، رغم أن المعطيات التي قادت إلى إنشقاقه ما زالت قائمة؛

ثانياً: ان مسألة وحدة الإتحاد، كما يقول الأستاذ يحيى يخلف، هي عملياً وحدة مع عرفات:

«التقينا الاخ محمود درويش.. ولمسنا منه رغبة صادقة في موضوع وحدة الثقافة الفلسطينية. كما لمسنا منه رغبة في وحدة الاتحاد. لكن من الظلم أن نحمل كل المسؤولية للاخ محمود، لأن القرار بهذا الصدد ليس قراره الشخصي، وانما قرار القيادة المتنفذة في تونس..»؛

ثالثاً: إن «الهدف» تعلق اعادة الدور المنشود للاتحاد بالوحدة مع «عرفات»؛ وكأنها تقول: لا حياة للإتحاد الا بالخضوع لعرفات، فهل هذا ما تريده بالفعل؟

واخيراً أرجو الا تنطلق (الهدف)، في هذا الموضوع، من الافكار نفسها، التي طرحها الأستاذ بسام ابو شريف في هذا الاستفتاء.

فماذا يقول ابو شريف؟

يتحدث الاستاذ بسام ابو شريف عن مرحلتين من الكتابة الاعلامية الفلسطينية:

الاولى : التي اصبحت الان «مهشمة..» والتي أرسى تقاليدها «غسان كنفاني وكمال ناصر وماجد ابو شرار وحنا مقبل» وهي لغة جميلة ومبدعة لانها «مستندة لوحدة الصف»؛

الثانية: مرحلة «اللغة الغريبة عن تقاليد المثقفين الفلسطينيين، بسبب «تمزق صف المثقفين الفلسطينيين».

فما وراء هذا البكاء على الاطلال؟

اذا غضضنا النظر عن الراهن مؤقتاً، فإننا نجد الأستاذ بسام يطرح مسألة معروفة: للوحدة أمام خطر خارجي لغتها، كما أن للصراع السياسي الناتج عن صراع إجتماعي لغته الخاصة به. للغة الأولى طابع مخادع، ولكنه ضروري، اذ يُخفي الطابع الاجتماعي والطبقي من أجل مواجهة العدو الخارجي، هذه اللغة تخفي الاستغلال الطبقي والقمع السلطوي، وتذبذب الفئات العليا، واستعدادها للخيانة، او المساومة على الاقل.

هذه هي اللغة التي يسميها أبو شريف باللغة الجميلة أو اللغة الفلسطينية. هذه اللغة تخفي حقائق الحياة الاجتماعية من أجل تأكيد حقيقة واحدة: مواجهة العدو.

وفي وصف دور هذه اللغة يقول بسام:

> «.. إحساس المثقفين المرهف.. يجعلهم أقدر على رص الصفوف حول قاسم وطني مشترك..»

ويضيف:

> «وهي تعني أيضا العودة إلى لغتنا الجميلة الديمقراطية التي تستهدف إنضاج الرؤية السياسية واستنهاض الهمم لمتابعة الكفاح والنضال».

وانا اتفق مع الاستاذ ابو شريف بأن وظيفة هذه اللغة هي وظيفة سطحية «رص الصفوف..واستنهاض الهمم..» بكلمة اخرى، ليس الوعي هدفها، بل طمس هذا الوعي لضرورة مواجهة كبرى مع العدو، إنها لغة «الله اكبر فوق كيد المعتدي»! وليست لغة العلم او الفكر الفلسفي او السياسة الثورية. كما إنها ليست لغة الادب العظيم. إنها ليست لغة كانت وهيجل، أو ماركس وأنغلز ولينين. ليست لغة تولستوي وغوركي، بل لغة إعلامية يقوم بكتابتها أناس لا يقولون إلا ربع الحقيقة - إنها لغة الدعاية والتحريض والتهييج.

أما اللغة الأخُرى «الغريبة عن تقاليد المثقفين الفلسطينيين»، فهي لغة الصراع الاجتماعي، اللغة التي تنقي نفسها من كل مساومة أو تضليل وتكشف الحقيقة كلها. وربما كان انصع امثلتها لغة لينين حيث الحقيقة تقال بكل أبعادها. وهي لغة الأدب العظيم حيث يتجسد الجوهر الحقيقي للواقع. وهي بهذا ليست مجرد لغة لرص الصفوف واستنهاض

الهمم، بل هي لغة للوعي باعتبارها أداة للكشف ودافعاً للتغيير الإجتماعي.

هاتان هما اللغتان اللتان يحاكمهما الأستاذ بسام، فيتبنى لغة «الله اكبر فوق كيد المعتدي» ويرفض، بل ويدين، لغة العلم والفلسفة والأدب .والأستاذ بسام ليس عالم لغة، ولافيلسوفاً يعلن إفلاس العقل والعودة إلى البراءة الأولى، فما مقصده إذاً؟

من خلال تفضيله لغة على أخرى، يكشف عن الأفضلية التي يمنحها لمرحلة على أخرى والمرحلة المفضلة لديه هي مرحلة رص الصفوف حول قاسم مشترك؛ أي مرحلة قيادة «عرفات» للساحة الفلسطينية عندما كان المثقفون أبواقاً «لعرفات» أو مجرد معارضة مدجنة، ومسيطر عليها.

ان ما يجب ان نتعرف على دلالته هو رفع شعار «الوحدة الوطنية» في مرحلة الصراع الإجتماعي: الصراع بين الكومبرادور الفلسطيني وممثليه السياسيين وتوجهاته لإنهاء الثورة الفلسطينية من جهة، وبين القوى الاجتماعية التي تحمل السلاح وتسعى للأستمرار في الكفاح المسلح من جهة ثانية. ما دلالة تقديم الوطني، في مرحلة الصراع الإجتماعي، على الإجتماعي، أو استعادة الوطني بدلا من الإجتماعي؟

وحتى نوضح المسألة نورد المثال التالي:

لنفترض أنه، بعد ثورة اكتوبر في روسيا، رفع احدهم شعار «الوحدة الوطنية مع القيصرية» بتبريرات من نوع: اللغة الروسية الجميلة، مواجهة العدوان الخارجي الخ.. فكيف يصف لينين مثل هذا الشعار؟ لا أعتقد أن لينين سيكتفي بوصفه بالثورة المضادة، بل سيضيف صفة الخيانة إليه. سيفعل رغم أن ظروف روسيا تستدعي «رص الصفوف حول قاسم وطني مشترك» أكثر مما تستدعيه الساحة الفلسطينية، فالقيصر لم يمد يده إلى الأعداء الألمان، ولم يعلن شعار الأرض مقابل السلام، ولم يعترف بالحق التاريخي للألمان بالإستيلاء والإستيطان على أرض روسية.

سوف يكون رد لينين أن المسألة الأساسية في روسيا هي الصراع الإجتماعي، واذا ألغيناه لصالح الوحدة الوطنية، فإننا بذلك نخون الوطن، لأن مفهوم الوطنية ينبع من معطيات الصراع الإجتماعي.

ولكنني أرى أن هنالك مسألة لم نجب عليها، وهي: هل يجد الصراع الإجتماعي، وبالتالي النضال الوطني المنطلق من معطياته، تعبيره بين المثقفين؟ هل الذين عقدوا مؤتمر صنعاء وشاركوا فيه، فعلوا ذلك بسبب رهافة إحساسهم «تجاه معاناة شعبهم من ناحية،

والتزامهم العميق بالنضال لإنقاذه من الاضطهاد الذي يعاني منه..» أم بسبب التزامهم بخط القيادة اليمينية؟

لا أعتقد أن هؤلاء الأدباء لم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون، وخاصة أن أبو شريف يصفهم بالتالي:

« إن المثقفين الفلسطينيين يشكلون تجمعاً رؤيته للواقع الفلسطيني وللمخاطر التي تتهدد الثورة ومستقبل القضية أنضج وأعمق من رؤية الاخرين».

وخاصة أيضاً أن الأستاذ يحيى يخلف يصفهم بأنهم أدوات القيادة اليمينية ولا حول ولا طول.

من هذا نستنتج ان السعي إلى الإتحاد مع هؤلاء المثقفين يعني الإتحاد مع «عرفات»، تحت قيادته وعباءته. فعرفات، لاجبهة الإنقاذ، سوف يكون القاسم الوطني المشترك.

يقول بسام:

«وتعتبر الأمانة العامة أن الموقف السياسي الذي يمكن أن يجمع المثقفين الفلسطينيين هو الموقف الداعي لإلغاء اتفاق عمان لما يشكله من خطر فادح على قضيتنا ونضالنا الوطني»

وعندما نسمع الامين العام لهذه الامانة العامة يقول ان مثقفي مؤتمر صنعاء خاضعون لقرار عرفات، فاننا ندرك عبثية المسعى للتوحيد مع من لا يملكون قرارهم المستقل.

الاستاذ جميل هلال يضع النقاط على الحروف. فهو يقول: ان جهود التوحيد

«لم تثمر بسبب عقلية التفرد التي كانت وراء عملية شق الاتحاد..» لان ذلك جزء من سياسة إعادة «صياغة وتركيب منظمة التحرير بلون سياسي وتنظيمي معين للسير بها على خطى المحور العربي الرجعي..»

وحتى تصبح م.ت.ف «مقبولة من الامريكان وحلفائهم الاوروبيين، فالقوى التي وقفت وراء شق اتحاد الكتاب هي ذات القوى التي عقدت مجلس عمان والتي ابرمت اتفاق عمان في شباط الماضي..» ويضيف:

«علينا وعي ان جذر مشكلة اتحاد الكتاب سياسي»

كل هذا كلام جيد أعني أن المقدمات صحيحة، ولكن النتائج مخالفة تماما لتلك المقدمات

يقول:

«.. اعتقد بأن الامكانية متوفرة لاستعادة وحدة الإتحاد اذا ما تحملت القيادات الثقافية والفكرية والإعلامية الفلسطينية مسؤلياتها تجاه الدور الذي يمكن للإتحاد أن يضطلع به على صعيد ممارسة الضغوط لإخراج الثورة الفلسطينية من الازمة التي باتت تهدد بالإطاحة بها وبإنجازاتها» كيف؟

- من خلال اعتبار ان «م.ت.ف. تشكل الائتلاف الوطني العريض لكافة الاتجاهات والتيارات السياسية الوطنية الفاعلة والمتواجدة في صفوف الشعب الفلسطيني»

من خلال تحول الاتحاد إلى نقابة؛ أي، بكلمة اخرى، على الإتحاد أن يقوم على اساس لا وجود له، وهو تصور المنظمة، المنشقة دون أمل بالإتحاد. إنها جبهة من قوى متحابة، متفقة، تمارس نشاطها بحرية ممنوحة للجميع؛ اي ان يتوحد اتحاد الكتاب على حلم يقظة.

ثم يعود هلال لينقض ذلك كله - عبر حلم يقظة ايضا - عندما يطالب كتّاب عرفات، وبالتالي عرفات، ان يتخذوا «موقفاً واضحاً تجاه اتفاق عمان باعتباره يمس حق شعبنا في التمثيل المستقل والدولة، ويعمق الانقسام في حركته الوطنية..».

هل يريد هلال ان يدفعنا إلى الجنون؟

فما دام جذر المسألة سياسياً، وحلها يحتاج إلى قرار سياسي، وما دام اتفاق عمان هو نقطة الصراع الاساسية في الساحة الفلسطينية، فكيف يكون هو النقطة التي يجري توحيد الإتحاد على اساسها؟ وكيف يمكن اعتبار م.ت.ف ائتلافاً ديمقراطياً وقد وصل الانشقاق فيها إلى حمل السلاح ونقطة اللا عودة؟

إن المواقف الوسطية لن تؤدي الا إلى موقف كهذا: منطق تنفي نتائجه مقدماته.

(٢)

الأستاذ يحيى يخلف هو وحده الذي يحدد موقفاً متماسكاً. فيضع القضية السياسية في المقدمة؛ اي أنه يبني موقفه على أساس الظرف الواقعي الملموس.

يقول:

« ان قرار التوحيد سياسي، رغم معرفتنا بذلك نفتح المجال للوحدة كرد على غوغائية الحملة التي يشنها انصار عرفات بين الكتاب ».

المفـارقـة، هنا، ان يحـيى يقـيم ارتبـاطاً منطقـيـاً بين مـعطيـات الوضـع،ويرى ان الظرف الواقعي، لا نصـائح الجدات الخرفات ولا احلام اليقظة، هو الذي يحدد كل شيء، في حين ان المتمركسين يغيبون الظرف الواقعي لصالح النوايا.

هذا ما الت إليه إحوال الماركسية في بلادنا!

مجلة «فتح»، ١١/ ٩ / ١٩٨٥ - العدد « ٥٤ »

الفصل الثالث عشر

الصراع بين السلطة الأبـويـة والـوعـي

سبق أن قلت إن هنالك ديناميتين تعملان داخل الساحة الفلسطينية:

الأولـى: للتفتيت حتى درجة التذرير؛

والثانيـة: للوحدة.

وقد عزونا الديناميتين إلى الحكم البطرياركي، الذي يسود في فترة القيادة اليمينية، وإلى التكوين الاجتماعي للشخصية الفلسطينية.

(١)

تلتقي هاتان الديناميتان عند نقطة محددة، إذ أن كلتيهما تعملان على إعادة السيطرة البطرياركية، فالتفتيت يؤدي إلى خلق النمط المكتفي بذاته: أنا، وحدي، مصدر السلطة ومركز القرار. ومن هذا النمط إلى خلق شخصية الديكتاتور لا يوجد إلا مسافة قصيرة. فهذا النمط عندما يشرّع لذاته يكون في الوقت نفسه قد شرّع للآخرين.

والتفتيت لا يقتصر على خلق هذا النمط، بل يخلق أنماطاً اخرى من التفتت والتجمع. مثال ذلك الإنغلاق داخل مجموعة صغيرة تعتقد أنها تملك الحقيقة كلها، وأن كل ما عداها ليس مخطئاً فحسب، بل إن طريق الصواب أمامه مسدود؛ فعندما تغلق مجموعة صغيرة قوقعتها على نفسها فهي انما تمهد لخلق اطار لسلطة بطرياركية.

أما بالنسبة للتوحيد، فإنه يتحول إلى وسيلة للوصول إلى سلطة بطرياركية حين تصبح

الوحدة غاية بذاتها. يقال عادة: إن سبب أخطاء الماضي لا يعود إلى الإنضواء تحت سلطة بطرياركية، بل بسبب أخطاء ذاتية كان يقع القادة فيها.

إذن، إذا تركنا الأمور تسير بشكل عفوي، فإن الظرف القديم سوف يعود. ولاتستعاد الأشكال القديمة للسلوك والعلاقات فحسب، عندما تستمر الظروف كما هي، بل تستعاد أيضا في ظروف جديدة ومغايرة.

(٢)

هل يعني ذلك أن استعادة الانساق القديمة قدر لا راد له؟ الا بوجد وسيلة اخرى يتم فيها تجاوز الانساق القديمة؟

رغم ما يقرره العديد من البنيويين، لا أعتقد أن الأنساق الإجتماعية تعيد إنتاج نفسها في كل مرحلة جديدة بدون تغيير. ولكننا نستطيع أن نؤكد حقيقة، لا يكاد يكون هنالك خلاف عليها: إن التغييرات التي تتم في الهياكل الإقتصادية، وفي ميدان التكنولوجيا، تتسم بإيقاع أسرع بكثير من تغير المؤسسات الاجتماعية، ومن تبدل العلاقات في داخلها. ولكن التغيير الإجتماعي متحكَّم به إلى حد كبير؛ أعني أنه يمكن تسريع أو إبطاء وتائره.

كيف؟

عندما نجيب على هذا السؤال، نكون في الوقت نفسه أجبنا على السؤال التالي: عن الوسيلة التي يتم بها تجاوز المؤسسات القديمة، والأنساق السالفة، يتم ذلك عبر الإرادة الواعية، او بكلمة أدق، عبر الوعي. قد يتم ذلك من خلال قسر بيروقراطي، كما حدث في تركيا، تحت حكم مصطفى أتاتورك. وقد كان لهذا الأسلوب نتائجه السلبية. كما يمكن ان يتم ذلك من خلال الديمقراطية الموجهة.

في الساحة الفلسطينية لا يوجد الا الخيار الثاني، أي مرافقة الوعي لعملية تكوُّن الأنساق الجديدة. وهذا يعني بالتحديد وجود قيادة ثورية واعية تشرف على عملية تكوُّن الأنساق الإجتماعية الجديدة.

أنا أعلم أن لهذه المقولة من العمومية، ومن إمكانية سوء الفهم، ما يجعلها شديدة الغموض. ولكن إعطاء مثال قد يزيل بعض غموضها. ماذا كان يحدث عند ما تقام مؤسسة كاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين؟

يتم اتفاق في القمة بين المنظمات الفلسطينية على عضوية الأمانة العامة. يختار كل تنظيم ممثليه لهذه الامانة ويجري انتخاب شكلي غالبا، يؤكد ما اتفقت عليه التنظيمات. هذا الشكل من أشكال إقامة المؤسسات الفلسطينية، يجد تبريره على النحو التالي: إن الأمور تتم هكذا على الساحة الفلسطينية، حفاظاً على الوحدة الوطنية. وما دام الأمر كذلك، فيجب قبوله، كما تقبل التقاليد الأخرى. هذا ما أكده عدد من الكتاب الفلسطينيين في اجتماع انعقد في مقر فرع الاتحاد في دمشق.

أمام منطق كهذا يبدو الحديث عن الديموقراطية، نوعاً من الحذلقة. إن مثل هذا المنطق لا يؤدي إلا إلى إعادة إنتاج الشكل البطرياركي للسلطة. ففي موقع القرار النهائي والحاسم يقف الأب ـ الديكتاتور. قد يلجأ هذا الديكتاتور الأبوي إلى بعض التحسينات الشكلية أو الثانوية التي قد تساعد، بهذا القدر أو ذاك، على إخفاء طبيعته. ولكن ما يحدث على أرض الواقع هو فعل الشكل البطرياركي، وإعادة إنتاج له.كيف تتمايز الديموقراطية الثورية عن هذا الأسلوب؟

التنظيم الثوري يلجأ بالفعل إلى اجتذاب الجماهير، ليصبح بالإمكان قيادتها. ولكنه لا يلجأ إلى ذلك عبر تسلسل هرمي يبدأ من القمة، حيث يتسلسل القرار من شخص الديكتاتور إلى سلطة قادة المنظمات، ومنها إلى الأمانة العامة، وفي القاع تكون جماهير الكتاب والصحفيين. إن المؤسسة، هنا، تصبح أداة السلطة، تخلقها لتيسر سيطرتها.

الوسيلة الأخرى لخلق مؤسسة هي أن يمْنَحَ الكتّاب حق اختيار أمانتهم العامة. والتنظيم الثوري يهدف أيضاً، إلى السيطرة على هذه المنظمة، ولكنه يحقق ذلك بوسيلتين:

أ ـ تربية أعضائه بحيث يكونون صالحين للقيادة. إن قوة الأنموذج في المجال الجماهيري تصبح في أحيان كثيرة حاسمة في مجال الإختيار.

ب ـ قدرة التنظيم على إقناع جماهير هذه المؤسسة ـ اتحاد الأدباء والصحفيين مثلا ـ بصحة سياسته في هذا المجال المهني، وفي المجال الأعم، في مجال التغيير السياسي والإجتماعي.

ما هي نتائج أسلوب كهذا؟

أولا: إن القيادة تصبح تفاعلاً بين التنظيم الثوري والجماهير.

ثانيـاً: ان التنظيم الثوري سيتخلى عن أساليبه الأبوية، لأنه، حتى لو أراد، لا يمتلك السلطة التي تجعله يمارس هذه الاساليب؛

ثالثاً: سيساعد الجماهير على التخلص من الأساليب الأبوية في علاقاتها، لعدم وجود سلطة تعيد إنتاجها؛

رابعاً: سوف يكون هذا تدريباً جيداً للحزب الثوري وللجماهير في إقامة حكم ديموقراطي حقيقي.

مجلة « القاعدة » - ٢٠/ ٣ / ١٩٨٥ - العدد « ٩ »

الفصل الرابع عشر

إتجاه للتشرذم
وإتجاه للتوحيد

منذ خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، والساحة الفلسطينية تشهد عمليات انقسام حدثت فعلاً، وعمليات انقسام أخرى محتملة داخل الفصائل الفلسطينية. وإذا كان البعض يرى في هذا توجها سلبياً، فهم ينطلقون من فهم الثورة كدولة، يقف «عرفات» على رأسها، ويرون أن إمكانية الإعتراض الوحيد هي الضغط على «عرفات» ولجمه من الإندفاع في طريق الخيانة.

وراء هذا يكمن الإيمان بإن مسيرة عرفات لا بد منها، وبإنها وحدها القادرة على تحقيق المكاسب. فما على الفصائل الفلسطينية الأخرى إلا أن تقوم بدور المساعد احيانا، ودور الواعظ الأخلاقي أحيانا أخرى. وتجاوز ذلك يعني المقامرة والمجازفة.

هنالك آخرون، وأنا منهم، يرون في ما يحدث داخل الفصائل الفلسطينية، وجهاً ايجابياً، رغم المظهر السلبي. فالساحة الفلسطينية تحتاج إلى تغيير جذري يتم فيه بتر قيادة تمثل شريحة طبقية فلسطينية أصبحت معادية للثورة. وهذه القيادة من خلال سلاحَيْ القمع والمال، ومن خلال علاقات عربية ودولية كانت تحكم الساحة الفلسطينية، وتتخذ جميع المبادرات. كان يُسمح للآخرين بالإعتراض، ولكن ذلك لا يصل ابداً إلى مركز القرار.

وإذا كان لنا أن نلجأ إلى مقارنات لتوضيح الصورة، فإن الساحة الفلسطينية كانت تُحْكَم حكماً بطريريكياً، يقوم على إخصاء الأب لأبنائه. إذ أن أقصى ما كان يسمح به لهؤلاء الأبناء هو بعض حرية القول، أما حرية الفعل فمتروكة للاب وحده.

وبكلمه أخرى، فقد تم خلق مجتمع عالم ثالثي نموذجي داخل الثورة الفلسطينية حيث

يوجد الحاكم في عزلة، وحيث الآخرون، مهما ارتفعت مناصبهم ، ليسوا أكثر من أدوات منفذة. وفي مثل هذا المجتمع يتم قمع او قطع الرؤوس التي تمتلك إمكانية أن تكون بديلة.

(١)

في مثل هذا الوضع يتم التغيير بعملية مؤلة. مصدر الألم فيها فعل دينامية مضادة: التمرد. إن مسيرة هذه الدينامية هي عملية تفكيك. يحاول الأفراد أن يرفضوا كل شكل من أشكال السلطة الأبوية. وتكون النتيجة، أحيانا، رفض فكرة التنظيم نفسها.

هذه العملية لا بد منها لأن الصراع، هنا، لا يدور ضد سلطة أبوية قمعية فقط ، ولكن ضد دينامية متأصلة في التكوين الاجتماعي- الإقتصادي لدول العالم الثالث، اذ إن سلطة الدولة تكون إعادة انتاج للمؤسسات الاجتماعية القائمة: القبيلة، المؤسسة الدينية، التقسيمات الطبقية وغيرها.

بكلمة أخرى، فإن تغيير الوضع القديم لا يتم بتغيير القيادة، بل بعملية تغيير شاملة. إن مخاطر هذه العملية هي في إمكانية أن تمضي حتى النهاية، حتى تصبح تذريرا (التحول إلى ذرات) كاملاً.

في الوقت ذاته، وبعد غياب السلطة الأبوية، تأتي عملية الجمع، وهي عملية التوحيد. وهذه عملية تتم على مستويات مختلفة، ابتداء من استعادة السيطرة البطريركية كاملة كما كانت، وانتهاء بعملية توحيد تقوم على أساس ثوري، تُتَجاوَزُ فيه المؤسسات القديمة، كما تُتَجاوَزُ فيه عملية التذرير.

تكون الطروحات، في الغالب، حاملة هذا التجاوز. ولكن التفاعل مع الواقع العملي يفرض تنازلات لصالح النمط البطرياركي. فقد تتم تحالفات على أسس قبائلية او إقليمية. وسيبدو التكوين البطرياركي للشخصية هو الأنسب للقيادة، أي أن هنالك خطورة ان تستعاد الأنماط القديمة للسلطة من خلال الخضوع لمعطيات الواقع، أي من خلال الإستسهال.

نستطيع أن نلمس فعل هذه الديناميات مجتمعة في الساحة الفلسطينية. والإستسلام للجانب العفوي من هذه الديناميات مسألة مدمرة. فالتفتيت قد يمضي إلى نهايته، وذلك يعني نهاية الثورة، وقد يمضي التوحيد بدافع عفوي فتستعاد الأوضاع القديمة.

من هنا يصبح للفكر، للنظرية، دورٌ حاسمٌ في إعادة بناء الثورة.

(٢)

كيف يمكن التحكم في دينامية التذرير وجعلها عملية حيوية تساهم في إعادة بناء الساحة الفلسطينية على أسس جديدة؟ ما هي المعايير السلبية والإيجابية لهذه العملية؟ كيف يمكن لعملية التوحيد أن تصبح عملية إعادة صياغة، لا استعادة للماضي؟ ما هي المعايير والأسس التي ينبغي اتخاذها؟ كيف يمكن التعامل مع الواقع دون الخضوع له او القفز من فوقه؟

هذه أسئلة هامة، وسوف تؤدي الإجابة عليها – نظرياً وواقعياً – إلى بداية صحيحة لبناء تنظيم ثوري حقيقي قادر على قيادة الشعب الفلسطيني نحو تحقيق أهدافه عبر ثورة حقيقية. ومن الواضح أن الحلقة المركزية في هذا كله هي الواقع الفلسطيني والكيفية التي ينبغي فيها التعامل معه .

مجلة « القاعدة » – ٦ / ٣ / ١٩٨٥ – العدد « ٧ »

الفصل الخامس عشر

علامـــات استفهـــام
حول « البيان الرباعي »

ليست هذه دراسة سياسية في «بيان مشترك صادر عن القيادة المشتركة للجبهتين الديمقراطية والشعبية وجبهة التحرير الفلسطينية والحزب الشيوعي الفلسطيني»،لا فما أريده، هنا، هو محاكمة العقل العربي. ولن يكون منطلقي معايير معقدة كالنمطق الكانتي، أو المنطق الجدلي الهيجلي،أو غيرها من الوسائل المعقدة لمحاكمة العقل،بل سوف أكتفي بالمنطق الأرسطي،والمنطق الصُّوْري البسيط.

المنطق الصوري علم يدرس النشاط الذهني فيما يتعلق بالبناء والشكل المنطقيين، ووظيفته الرئيسة صياغة القوانين والمبادئ التي ينبغي اتباعها كمعطى أولي لتحقيق نتائج صحيحة خلال عملية المعرفة. هذا ما يقوله عنه القاموس الفلسفي السوفييتي..

ما الخلل الاساسي في البيان الرباعي طبقاً للمنطق الصوري؟ إنه التناقض. وهذا يعني أن الخلل لم يرتفع حتى إلى مستوى المنطق الأرسطي البسيط.

إليكم هذا المثال من البيان:

«حماية وحدة منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها على أساس وطني تقدمي ومعاد للامبريالية والصهيونية، تنطلق من التمسك بالبرنامج السياسي المقر في الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني ومقررات دورة الجزائر السادسة عشرة».

والعجيب أن مواقف بعض الأطراف الموقعة على هذا البيان تتناقض جذريا مع بعض مقررات الدورتين. فكيف تدعو هذه الأطراف كل مَنْ في الساحة أن يلتزم بهذه المقررات

التي لاتلتزم هي نفسها بها؟

مثال ذلك موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني (مجموعة البرغوثي الموقعة على البيان).فلقد أتيح لي الاطلاع على المناقشات الحادة التي دارت بين الحزب، والحزب الاخر الذي يحمل الاسم نفسه (جناح عربي عواد). وفي هذه المناقشات، شن جناح البرغوثي هجوماً حادا وعنيفا على شعار الكفاح المسلح. وقد استشهد هذا الجناح على صحة موقفه بحرب لبنان التي برهنت على النتائج المدمرة لمنطق الكفاح المسلح. وليس هذا مجال نقاش ما قيل حول هذه المسألة إنما المهم، أن الحزب الشيوعي الفلسطيني، بدون تبليغ عن تغيير موقفه من مسألة الكفاح المسلح، وبدون القيام بأي نقد ذاتي، وضع توقيعه بالموافقة على قرارات تنص على تبني الكفاح المسلح. وبناء على هذا الموقف الجديد للحزب، ما معنى مواصلة الهجوم على جناح عربي عواد، وما معنى استمرار اعتباره خارجا على سياسة الحزب؟ مع العلم بأن نقطة الخلاف الرئيسية هي قضية الكفاح المسلح.

سؤال لا نجد له جواباً... وتناقض منسجم مع ذاته.

مثال آخر. منذ شهر تقريبا أصدرت القيادة المشتركة للجبهتين الشعبية والديموقراطية بيانا تشجبان فيه الكونفدرالية مع الأردن، ولكن الجبهتين توقعان بيانا يلتزم بمقرارت تنص على أن:

«تقوم العلاقة المستقبلية مع الأردن على أسس كونفدرالية بين دولتين مستقلتين».

ألم يخطر ببال قيادات الجبهتين، بأن هنالك تناقضا بين الموقفين؟ وإذا خطر ذلك، أفلا يستحق التنويه؟

إن الصمت على هذا التناقض يعني أحد امرين:

أ - أن قيادات الجبهتين لم تفطن إلى التناقض، ولم تفطن إلى أنها تدعو إلى الوحدة بين كافة القوى على أساس موقف متناقض.وهذا يشير إلى ظاهرة خطيرة، تتعلق بالعقل ذاته، وأعني بها أننا أمام عقل منقسم على نفسه، وعاجز عن إدراك هذا التناقض.

ب- أن القيادات هذه فطنت إلى هذا التناقض وتجاهلته انطلاقاً من موقف «من يتذكر؟!»، ودلالة هذا أنها لا تحترم عقل من تتوجه إليه بخطابها .والإ فكيف نقول للاخرين:

اتخذوا موقفا موحدا من الكونفدرالية: كونوا معها وكونوا ضدها في الوقت ذاته.

هذا البيان كارثة عقلية.

الفصل السادس عشر

المؤذن في مالطة

لا أحد يعترض على من يؤدي الأذان. تلك وظيفة يحتاج إليها المصلون. إذاً، ما الاعتراض على الأذان في مالطة؟

أعتقد أن مصدر الإعتراض يعود إلى عدم وجود جامع في مالطا، أو مصلين. فالمؤذن يرهق نفسه بدون جدوى.

خطر لي هذا المثل الشعبي حين قرأت البيان المشترك الصادر عن «القيادة المشتركة للجبهتين الديمقراطية والشعبية وجبهة التحرير الفلسطينية والحزب الشيوعي الفلسطيني». والبيان صدر عن لقاء تم في عدن في الفترة الواقعة بين ٢٣-٢٦ من اذار١٩٨٤ وقد حضره وفد من الحزب الاشتراكي اليمني، وممثلون عن الحزب الشيوعي السوري والحزب الشيوعي اللبناني.

وأنا هنا لا أكتب في السياسة، ولكن في المنطق الذي أفترض توفره عند منظمات تنتمي إلى الماركسية، وبالتالي يحكم منهجَها المنطقُ الجدلي. ابتداءً نتساءل: كيف تم التوفيق بين هذا اللقاء وبين امتناع بعض هذه الاطراف عن المشاركة في لقاءات أخرى ضمت غالبية المنظمات الفلسطينية؟ بعض أطراف هذا اللقاء – الجبهة الديمقراطية مثلاً – جعلت من كل تصريح سياسي لها مناسبة للهجوم على فتح – الانتفاضة .حتى عندما زار «عرفات» مصر، فإن الجبهة الديمقراطية هاجمت فتح – الانتفاضة، بدعوى أنها أغضبت عرفات، فدفعه الغضب إلى زيارة مصر.

وهذا منطق غريب في تفسير الأحداث السياسية. ألا يمكن تفسير زيارة «عرفات» لمصر بحبه للملوخية؟ فحب الملوخية تفسير أيضا لا يقل وجاهة عن الغضب.

على كل حال، ليس هذا موضوعنا. الموضوع هو: كيف تنسجم وحدة العائلة الفلسطينية

مع هذا الإصرار الغريب على تخريب العلاقة مع إحدى المنظمات الفلسطينية، وهي صاحبة أكبر حجم في الساحة؟ بل إننا نتساءل: كيف نفهم هذه الدعوة للوحدة التي تشمل الجميع، من أطراف تصر ألاّ تعيد الوحدة إلى تنظيماتها ذاتها؟ وأنا اعني جبهة التحرير الفلسطينية والحزب الشيوعي السوري.

والغريب أن الانشقاقات داخل هذه المنظمات تَمّتْ بسبب القضايا ذاتها التي تشق الساحة الفلسطينية، اي أن هذه المنظمات غير قادرة على تحقيق الوحدة بسبب هذه القضايا، ولكنها تطالب، انطلاقاً من هذه القضايا ذاتها، ومن الخلافات حولها، بأن تتوحد الساحة الفلسطينية.

هذه المسألة أصولية، كما يقول الفقهاء. فمن يطالب الآخرين بالإنسجام العائلي، عليه أن يطبق ذلك على نفسه.

الدليل الآخر على أن هذا البيان يؤذن في مالطة، أنه يرتفع كالروح القدس فوق كل المسائل الدنيوية، ويؤذن: أحبوا أعداءكم.

إن هذا البيان عندما يتجاهل المسائل التي تطرحها الساحة الفلسطينية والعربية، فهو لا يكشف عن قداسة وتعالٍ، ولكنه يحدد موقفاً.

الخلاف داخل الساحة الفلسطينية، دار ويدور الآن حول الكفاح المسلح، وحول سحب القوات من لبنان او إبقائها، وحول إتفاق ١٧ أيار، وحول الموقف من التحالف السوري-السوفييتي واستبداله بالتحالف الامريكي - الاسرائيلي - المصري - السعودي، وحول اتفاقيات كامب ديفيد الخ..

في الوقت الذي أصرت فيه فتح - الانتفاضة على بقاء القوات الفلسطينية في لبنان، قام ياسر عرفات بالتبرع للنظام السوداني بالقوات الفلسطينية المتواجدة على أرض السودان لدعم نظام النميري ضد الثورة الشعبية هناك. وفي حين كانت المواجهة على أشدها مع القوات الامريكية في لبنان، كان «عرفات» ينسق مع البحرية الإسرائيلية ومع الجيش الكتائبي ومع مصر، لمحاربة الذين يقفون في وجه القوات الأمريكية.

وهذا غيض من فيض. إن خلافاً بهذا العمق يسمّى أزمة، يجب حلها على الاسس التالية:

«حماية وحدة منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها على أساس وطني وتقدمي ومعاد للإمبريالية والصهيونية..»

كيف بحق الله؟ على أرض الواقع، وفي المؤسسات الفلسطينية، يتم ذلك بالنزول بقائمة

واحدة مع مجموعة عرفات، مع قبول شرط أن يكون لعرفات الأكثرية، وبالتالي القيادة. يبدو أن هؤلاء السادة قد فقدوا أوليات الإنسجام المنطقي عندما يسلكون مثل هذا المسلك داخل المؤسسات الفلسطينية، ثم يقولون لنا:

«إن ضمان وحدة منظمة التحرير الفلسطينية يتطلب قيام قيادة جماعية أمينة على قرارات المنظمة وخطها الوطني وتتمثل فيها كافة الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية».

اذا كانت هذه القيادة الأمينة تعني قيادة عرفات، فهذا يتناقض مع نص البيان:

«التصدي لنهج الانحراف والاستسلام بكافة مظاهره وخاصة زيارة القاهرة وما أعقبها من خطوات...»

ماذا عن ما سبقها من خطوات؟

ليس هذا المهم. إذا كان الهدف هو الإطاحة بعرفات، فكيف نفسر تدعيمه داخل المؤسسات الفلسطينية؟ كيف نفسر الدفاع عنه، والهجوم المتصل على فتح الانتفاضة، ورفض التعامل معها دفاعاً عن عرفات؟

قلنا إن ما يعبر عنه البيان من قداسة وتعال يحدد موقفاً. وهنا نؤكد أن المساواة بين الخائن وبين المقاتل الذي يحارب القوات الأمريكية، والدعوة إلى التحابّ بينهما، والتصافي تحت قيادة عرفات، كل هذا يحدد موقفاً من الكفاح المسلح، ومن اتفاقيات كامب ديفيد، ومن التنسيق بين البحرية الإسرائيلية وبين عرفات، ومن تحويل المقاتلين الفلسطينيين إلى مرتزقة يدافعون عن أنظمة عميلة كنظام النميري.

ولكن كيف تفسر أن البيان يدين عرفات، وإنْ كان بشكل خجول، وبعبارات لا ترفض قيادة عرفات؟

الواقع ان هذا التناقض ليس لمصلحة البيان، بل هو يؤكد ما سبق أن قلنا، وهو أنه يفتقد أوليات الانسجام المنطقي.

إن الغالبية الكبرى – إن لم تكن كل – من هذه المنظمات المشاركة في هذا اللقاء هي منظمات ماركسية لينينية. ولكن كيف يمكن لماركسي لينيني أن يُغفل التحليل الطبقي في رؤيته لما يدور في الساحة الفلسطينية!

إن الجبهة الديمقراطية فسرت زيارة عرفات لمصر بأنها كانت لكيد العوازل! وهذا التعمق في تفسير الظواهر السياسية، حين يصدر عن تنظيم ماركسي لينيني، يجعلنا نتساءل عن

مدى جدية تبني هذا التنظيم للماركسية! وبالطبع نستطيع القول لو ان قادة فتح الانتفاضة عزموا عرفات على الغداء، وداعبوه قليلاً لزال غضبه، واتجه بقواته نحو الإسرائيليين بدلاً من التنسيق معهم.

ولكن ماذا عن الإطراف الأخرى؟ لماذا حلت عليها روح القدس، واعتبرت الموعظة الحسنة بديلاً للتحليل العميق الجاد؟ وهل نستطيع ان نتناسى ذلك الحلف غير المقدس بين البورجوازية البيروقراطية وبين الكومبرادور الفلسطيني، والذي يقف عرفات على قمته؟

حين تم هذا الحلف في مصر برزت ظاهرة السادات، وحين تم في السودان برزت ظاهرة النميري. وفي الساحة الفلسطينية عبر هذا الحلف عن نفسه من خلال سياسة عرفات. اصحاب البيان يعرفون ان أفق قيام دولة فلسطينية، من خلال التفاهم مع أميركا وإسرائيل، مغلق. عرفات يعرف هذا. فلماذا هذا الارتماء المهين تحت أقدام أمريكا وإسرائيل؟

خطأ في التقدير، وحالة نفسية أصابت عرفات! هذا ما قاله بعض اطراف هذا اللقاء. ولكن هل كان لقاء الحمامات في تونس لأ باطرة الكومبرادور الفلسطيني، والقرارات التي اتخذوها هي أيضاً ناجمة عن حالة نفسية؟

صدق أو لا تصدق أن أطرافاً في هذا اللقاء، وهم ماركسيون جداً، ينسبون قرارات الحمامات لعقد نفسية، ولله في ماركسييه شئون!

وهذا يقودنا إلى هذه الموضوعة الغامضة:

«الدعوة لأوسع جبهة وطنية في إطار منظمة التحرير..»

ما هي منظمة التحرير أصلاً؟ أليست جبهة؟ وهل الجبهة - في العمق - هي اتحاد فصائل واتحادات وشخصيات وطنية، أم هي علاقات محددة بين طبقات؟ وإذا كانت منظمة التحرير لا تقوم بدور الجبهة، فما هي وظيفتها على وجه التحديد؟

أسئلة كثيرة، وبيان كسول لا يجيب على أي منها.

«التعميم» -٣- «نسيان» ١٩٨٤

الفصل السابع عشر

« المؤتمر الشعبي » :
خطوة إلى الوراء

أعاد طرح الجبهة الشعبية لمشروع عقد مؤتمر شعبي لشجب اتفاق عمان النقاش حول الوضع الفلسطيني مجددا. إن عقد مؤتمر لشجب اتفاق عمان يكشف عن الحلقة المفرغة التي تدور فيها الساحة الفلسطينية، عقد مؤتمر نتائجه معروفة سلفاً وهي شجب اتفاق عمان بدون توقع أية نتائج تترتب على ذلك، فالقيادة اليمينية ستواصل مسيرتها وكأن المؤتمر لم يعقد.

بذرائع غريبة تسعى غالبية الفصائل الفلسطينية إلى تجميد الوضع الحاضر تاركة حرية الحركة، على إطلاقها، لليمين. أي أن هذه الفصائل لا تستطيع أن تتجاوز وضعها كمعارضة أنيسة مدجنة. وأية محاولة لدفعها، ولو خطوة واحدة إلى الامام، تخلق حالة من الذعر، وكأنها مهددة باليتم، وبفقد رعاية الأب.

(١)

لقد كانت جبهة الإنقاذ خطوة إلى الأمام. خطوة صغيرة خائفة. ولكنها خطوة على كل حال. والآن يتم التراجع عنها...

«صحيح أن الجهود الرامية لإسقاط إتفاق عمان لم تتوقف منذ لحظة توقيعه، وأن النضال ضد نهج القيادة اليمينية مستمر بأشكال متعددة وبتحالفات مختلفة داخل الصف الوطني الفلسطيني، ولكن الصحيح أيضا أن الأمر بات يتطلب اليوم، وفي ضوء المستجدات الناشئة، مستوى توعياً أرقى في المواجهة، وأشكالا جديدة لتأطير وتوحيد القوى المعارضة لاتفاق ونهج الإنحراف » (مجلة الهدف – عدد ٧٨٦ – صفحة ٦)

ونتبين، بدون جهد، أن المستوى النوعي الأرقى هو إعادة بناء «التحالف الديمقراطي»، مع دعوة صريحة إلى لجنة عرفات المركزية للمشاركة، وبالطبع فإننا أمام عودة إلى اتفاق عدن - الجزائر.

وحتى لا نخلط الأمور على القارئ، فإن مجلة (الهدف) تؤكد، المرة تلو المرة، أن الصيغة التي يجب تجاوزها هي جبهة الانقاذ،

« خاصة وأن الأشكال والائتلافات القائمة لا تزال قاصرة عن توحيد كافة القوى والهيئات والشخصيات ذات المصلحة الفعلية في إلغاء اتفاق عمان ومحاصرة نهج الإنحراف».

و(الهدف) لا تفسح مجالا للبس بأن الهدف هو استبعاد

«كل الدعوات والمحاولات الرامية إلى خلق منظمة بديلة أو موازية لمنظمة التحرير الفلسطينية وأن يصبح واضحاً للجميع أن هذا المؤتمر لن يكون مدخلا لتعميق الإنقسام الفلسطيني .. ولن ينتهي بالطبع بالافكار والمشاريع المغامرة التي لا تزال تراود البعض وتدفعه للعمل باتجاه انجاز مشروعه الخاص، منظمة بديلة او موازية..»

تردد مجلة (الهدف) ذلك كلما ذكرت انحراف اليمين: إبعاد عرفات وفتح –الانتفاضة جانباً؛ والرسو عند لجنة عرفات المركزية.

والأساس الذي تنطلق منه الجبهة الشعبية، في مشروعها، هو البيان المشترك الصادر عن الجبهة الشعبية والحزب الشيوعي الفلسطيني.

«ومن هنا يكتسب التفكير بالبحث عن صيغة لقاء كل هذه القوى والقطاعات اهمية خاصة. وهذا ما عبر عنه البيان المشترك الصادر عن الجبهة الشعبية والحزب الشيوعي الفلسطيني حيث اعتبر.....».

وإذا كانت الجبهة الشعبية تنطلق من خلال وحدة المواقف مع الحزب الشيوعي الفلسطيني، فمن الطبيعي أن تعلن نهاية الاطار الذي يجمعها مع فتح الإنتفاضة. تقول مجلة (الهدف):

«ولهذا السبب يمكن القول إن ما ورد في البيان المشترك بين الجبهة الشعبية والحزب الشيوعي الفلسطيني، يشكل أساسا لمثل هذا اللقاء ومدخلا لتوحيد أوسع الصفوف الوطنية الفلسطينية».

والذي يدهشنا، هنا،أن الحزب الشيوعي الفلسطيني قد اعترف بحق إسرائيل في الوجود،

وفي (الهدف) عدد ٧٨٨ يدعو أمين عام الحزب الشيوعي الفلسطيني بشير البرغوثي، عرفات ومؤيدي اتفاق عمان، إلى حضور المؤتمر وتحويله - اي المؤتمر الشعبي - إلى مباراة خطابية بين أنصار الاتفاق وأعدائه. وهو يرى أن الجماهير الفلسطينية سوف تنتصر في هذه المباراة الودية:

«وأعتقد أنه يجب توجيه الدعوة لكل القوى الفلسطينية بغض النظر عن موقفها من الاتفاق لكي تحدد هذه القوى بنفسها رأيها، ولكي توضع في موقع الدفاع عن وجهة نظرها .أن الجماهير الفلسطينية في الواقع موحدة ضد الاتفاق. من هنا، فليات هؤلاء - الذين مع الاتفاق - ويحددوا موقفهم: مَنْ مع الوحدة الفلسطينية، ومن ضدها. لذا فإن الجماهير الفلسطينية ستعزل - وبالضرورة - هؤلاء المصرين على أن يكونوا مع الاتفاق».

ولا أستبعد أن يدعو الأستاذ بشير البرغوثي لمباراة ودية من هذا النوع مع شارون وشاميرا

وطالما أن الحزب الشيوعي الفلسطيني يقف ضد الكفاح المسلح فما هي الأسس الموحدة التي انطلق منها الطرفان: الجبهة والحزب؟

(١)

من الواضح ان الجبهة الشعبية تضع مصادرة حين تفرض على المؤتمر الشعبي، قبل ان ينعقد، ان يحافظ على منظمة التحرير بشكلها الحالي:

«..أن ندحر كل الدعوات والمحاولات الرامية إلى خلق منظمة بديلة أو موازية لمنظمة التحرير الفلسطينية..».

ماذا يبقى للمؤتمر الشعبي ان يقرر ما دام قد أُملِيَتْ عليه كل القرارات مسبقاً؟

ولكن الذي يحيرنا هو مفهوم الجبهة الشعبية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فهي ليست قيادة منظمة التحرير:

«هنا نود ان ننبه من خطورة الخلط بين منظمة التحرير ككيان يمثل الشعب الفلسطيني وهويته الوطنية وبين القيادة اليمينية المنحرفة التي تحاول جر المنظمة إلى خيار الاستسلام..».

وهي ليست مؤسساتها العرفاتية، وهي ليست القوى المعارضة لعرفات، وهي ليست مجالا للبحث في المؤتمر الشعبي الذي يضم كل الفلسطينيين المعارضين لاتفاق عمان،

ولا الذين لم يحددوا رأيهم في الاتفاق. إنها ليست شيئا ملموساً، محددا، ولكنها كإله الصوفيين موجودة في كل شئ، ولكننا لا نراها، يراها فقط الواصلون المكشوف عنهم الحجاب: المحور الديمقراطي وكوادر«فتح» الوطنية المبهمون، الذين لا اسم لهم، لا تراهم رؤية العين، ولكن حضورهم في خيال الجبهة الشعبية أقوى من حضور عرفات ومجموعته، وأقوى من حضور انتفاضة فتح!

تقول الجبهة الشعبية إنهم يعارضون عرفات: كيف يعارضونه ونحن لا نعرف عنهم شيئا؟ تجيب الجبهة الشعبية:

«علينا ان نؤمن بوجودهم، والمؤمن الحقيقي لا يحتاج إلى براهين ملموسة».

إن تعريف الجبهة الشعبية لمنظمة التحرير على أنها كيان «يمثل الشعب الفلسطيني وهويته الوطنية» يعني وجودا روحانيا بلا تجسيد مادي ملموس.

أما الجبهة الديمقراطية فواضحة تماما حول هذه المسألة، منظمة التحرير منقسمة بسبب «..نهج التعويل على واشنطن، للوصول إلى تسوية عادلة». والحل أن تتراجع قيادة م.ت.ف. عن مواقفها وتعلن توبتها بالغاء «إتفاق عمان ووقف كل النشاطات أو الأعمال التي تستند إليه، لفتح باب الحوار الوطني الشامل واستعادة وحدة منظمة التحرير على أساس خطها الوطني»، كما يقول نايف حواتمة في مجلة الحرية بتاريخ ٢٧/١٠/١٩٨٥.

أي أن المنظمة لكل الفلسطينيين الذين سيتوحدون بعد أن تكتشف قيادة المنظمة خطأها وتتوب عنه!

إن وراء رؤية الجبهة لـ م.ت.ف مفهومين للساحة الفلسطينية، ولعلاقات الطبقات داخلها .

الجبهة الشعبية: ركوب موجة التردد

أشرنا إلى أن عقد مؤتمر شعبي - بالصيغة التي تطرحها الجبهة الشعبية - يدخل في سياق الطابع الغوغائي لمهرجانات العالم الثالث، أعني، خلق حشد هائل من البشر وضجيج مرعب لبحث ما تم بحثه سلفا وإقرار ما جرى إقراره مسبقاً.

من الزاوية المعرفية يتسم هذا المسعى بأنه لا يخاطب العقل الانساني، الذي يتقبل إشارات العالم الخارجي ويخضعها للتحليل والمراجعة حسب معطيات ذاتية وموضوعية، بل

يخاطب ذلك الجزء من الجهاز العصبي الذي يستجيب استجابات إنعكاسية للإشارات. وهذا الجهاز قد جرى تكييفه عبر عملية طويلة من الدعاية والإعلان، فأصبحت الإشارة الخارجية تثير ردود فعل إنعكاسية،ذات طابع إنفعالي، لا أفكاراً تقتضي المناقشة والتحليل.

(٢)

ما علاقة هذا الذي أوردناه بمشروع المؤتمر الذي تقترحه الجبهة الشعبية، وتدير الحوار حوله؟

أولاً : أنها تلك اللغة الإشارية التي تدمج الشعار الإعلاني، الذي يخاطب لا وعي الفلسطيني، بالحقيقة الموضوعية. فهنالك الإنقساميون، المغامرون، وهنالك العلميون. إن مجرد هذه التسميات لا تفسح مجالاً للنقاش، ولاستقبال هذه الإشارات بشكل عقلاني، وهي، بالاضافة إلى هذا، تفترض بقبول نتائج سابقة على المقدمات.

ما هو رد الفعل المنتظر؟

ما دام هنالك خطأ من اليمينيين وخطأ من المغامرين، فخير الأمور الوسط. ولا تكتفي الجبهة الشعبية بهذا، بل تصادر، منذ البداية، على أي خيار آخر.

ولكن، هل تعدد المواقف داخل الساحة الفلسطينية هو مجرد اختيار خاطئ ومتعمد، أم هو تعدد اجتهادات؟ والإجتهاد لا يُدان قبل صدوره، بل يناقش عقب صدوره. أما هنا، فباب الإجتهاد مغلق من الناحيتين: من ناحية الإنتماء إلى فكر، ومن ناحية أن هنالك افكاراً لن يُسَمَحَ بمناقشتها بأية حال ،وتحت أي ظرف.

ثانياً: أن ما يطرحه المؤتمر الشعبي - أعني مشروعه - ليس فكراً سوف يؤدي إلى فعل، بل موقفاً يعلق الفعل: ندين «عرفات» ونطالب بإسقاط نهجه ورموزه، ثم نعود لنعلن تمسكنا بعرفات ونهجه ورموزه،فهم منظمة التحرير الفلسطينية،فإن سقطواسقطت!

ألا يحمل مثل هذا التحديد تناقضاً لا مخرج منه؟أجل. ولكن مشروع الجبهة يضع تحريماً قاطعاً. وهي لا تصدر هذا التحريم وفق موقف سياسي مطروح للمناقشة، بل بتكديس إشارات لها طابع الإشارة الإعلانية: وحدة الصف، المحافظة على الكيان الفلسطيني، عدم تضييع المكتسبات ..الخ.

ثالثاً: من الواضح أن مسعى الجبهة يهدف إلى وضع الساحة في حالة تردد، وعدم قدرة على الحسم. وموضوع الحسم هو تحديد موقف سياسي وفعلي من القيادة الفلسطينية التي تمثل مصالح الكومبرادور الفلسطيني ، الذي تتشابك مصالحه وتوجهاته مع الكومبرادور العربي. وعلى حسم هذه المسألة يتوقف اتخاذ القرارات المناسبة بالنسبة لكل القضايا الملحة في الساحة الفلسطينية.

فما هي خلفيات هذا الموقف؟

(٣)

بشكل أساسي هنالك موقفان في الساحة الفلسطينية من قيادة الكومبرادور الفلسطيني:

- موقف تمثله الجبهة الديمقراطية (وعلى نحو ما الحزب الشيوعي الفلسطيني، وجبهة التحرير الفلسطينية وبعض قطاعات الجبهة الشعبية).

وترى الجبهة الديمقراطية أن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية هي قيادة بورجوازية (وطنية متذبذبة) قد تنحرف في بعض الظروف، ولكنها وطنية في الأساس ، ويجب شل تذبذبها وتصحيح مسارها.

إن الذي يحدد موقف هذه البورجوازية هو مصالحها (مشروعها) التي تتناقض،بشكل جذري، مع المشروع الصهيوني. إن مواقفها الخيانية تنبع،أساساً،من نقص وعيها بمصالحها. إن على اليسار أن يعمل جاهداً لتنوير هذه البورجوازية وتثقيفها بمصالحها حتى تتوقف عن التذبذب والإنحراف،وحتى تسير في الطريق الوطني المؤدي إلى التحرير!

وترى الجبهة أن قيادة البورجوازية الفلسطينية ليست مجرد ضرورة فلسطينية داخلية، بل تقتضيها ظروف الوضع العربي والعالمي. فتوازن القوى داخل المنطقة العربية يميل إلى صالح السياسة الامريكية وحلفائها: الرجعية العربية والصهيونية. والثورة الفلسطينية تعيش خارج أرضها، في وسط هذا الوضع العربي الراجح لصالح الصهيونية، ولاتستطيع، لهذا، أن تستمر إلا بقيادة بورجوازية.

- أما الموقف الآخر، فيرى أن القيادة البورجوازية الفلسطينية قد انحازت نهائياً إلى المشروع الامريكي، وهي لا ينقصها الوعي بمصالحها، بل إن وعيها بمصالحها هو بالتحديد الذي قادها إلى هذا الانحياز.وليس هنالك فرص ذهبية أمام هذه البورجوازية لتستعيد موقفها الوطني، فإن الخلافات بينها وبين امريكا وعملائها هي خلافات داخل

العائلة الواحدة لا تتصل بالجوهر، بل بالتفاصيل.

اما المعركة داخل الوطن العربي فهي ليست محسومة لصالح الموقف الأمريكي. إنها صراع مستمر وسوف ينتهي حتما لصالح الشعوب العربية. وخيار الوقوف مع المعسكر الامريكي سوف يعزل الثورة الفلسطينية عن حلفائها الحقيقيين. أما بالنسبة لتذبذب البورجوازية الفلسطينية، فهي مسألة غير صحيحة. فهي ليست بورجوازية وطنية تصارع الإستعمار للإستيلاء على السوق القومي، بل هي بورجوازية كومبرادورية وطُفيلية تشكل الجناح الضعيف للكومبرادور العربي. لهذا لا بد من الإطاحة بها والمجيء بقوى ثورية تستطيع أن تقود الثورة حتى النصر.

فما هو موقف الجبهة الشعبية؟

(٤)

الجبهة الشعبية تراوح بين الموقفين .ففي الوقت الذي تتحدث فيه عن إسقاط اليمين، تتحدث في الوقت نفسه، عن استعادة اليمين للخط الوطني، وترفض بشكل قاطع استبدال قيادة وطنية بالقيادة اليمينية، ويعود ذلك، في رأيي، إلى سببين:

الأول : أن الجبهة لا تملك، ولاعتبارات داخلية لم تتبلور بعد، وجهة نظر نهائية؛ الامر الذي دعاها إلى اتخاذ موقف وسط بين الموقفين.

الثاني: أن الحسم داخل الساحة الفلسطينية سوف يهمش الجبهة، ولن يتيح لها إلا دوراً ثانوياً. لن تستطيع أن تكون قيادة لليمين، ولا قيادة لليسار. أما هذا الموقف الذي يجد قواسم مشتركة في الساحة، من أقصى اليمين حتى أقصى اليسار، قواسم ترتكز على السلبية والتردد، فسوف تكون الجبهة الشعبية فيه هي القوة المقررة.

إن المؤتمر الشعبي الذي تقترحه الشعبية هو صورة لهذه السلبية. فالساحة الفلسطينية سوف تقيم مهرجاناً لتقرر قراراً سبق اتخاذه. تجتمع حتى تراوح مكانها. ولن يسمح لها بطرح مسألة واحدة من المسائل الملحة التي تواجه الساحة.

ماذا نتوقع أن تكون نتائج المؤتمر في أحسن الحالات؟

أن يدين اتفاق عمان؟

وبعد؟

لا شيء على الإطلاق.

مجلة « فتح » ٢٠/ ١١ / ١٩٨٥ « العدد ٦٤ »

الفصل الثامن عشر

تدمير الثقافة

(١)

نطرح معلوماتنا عن دائرة الإعلام والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية على مجموعة من الخلفيات :

أ - رؤية اليمين الفلسطيني للوظيفة، أو الوظائف، المنوطة بالعقل والإبداع الفلسطينيين. وهي رؤية تكشف عن موقفها من الانسان الفلسطيني: هل هو أداة لتنفيذ مشاريعها ومصالحها، التي هي، في الوقت ذاته، مصالح ومشاريع الكومبرادور الفلسطيني، أم هو هدف، او على الأصح، الهدف الأكبر للثورة الفلسطينية؟

ب - نناقش هذه الدائرة انطلاقاً من وظيفتها المسماة في المواثيق الفلسطينية لنرى: هل ينسجم نشاطها مع وظيفتها المعلنة؟

ج - نناقش نشاط هذه الدائرة على خلفية وضع وصراع محددين:

انحرافات اليمين الفلسطيني، والمواجهة بين هذا اليمين والقوى الفلسطينية الوطنية والتقدمية. أين تقف هذه الدائرة، في هذا الظرف المحدد، من هذا الصراع؟

د- يؤكد كتّاب هذا التقرير التزامهم بالفكر الثوري، والدفاع عنه أمام عمليات التعهير والتشويه. والجبهة الديمقراطية هي التي تسيطر على هذه الدائرة. وهي منظمة تدعي التزامها بالماركسية اللينينية؛ كما أنها تدعو إلى ما تسميه «تفعيل وتنشيط المؤسسات الفلسطينية.» ولهذا سوف نناقش موقف الجبهة على خلفية الماركسية اللينينية. وعلى أساس مدى انسجامها مع شعارات الجبهة الداعية إلى تفعيل المؤسسات الفلسطينية.

(٢)

إننا ننطلق من فهم للعمل السياسي يعتمد على أن المعيار الأساسي للحكم على أي تنظيم هو الممارسة، لا ما يقوله عن نفسه، من هنا نحاكم الجبهة الديمقراطية على مستويين في موضوعنا هذا:

- الإدعاء بالتزام الماركسية – اللينينية؛

- الفعل الحقيقي داخل دائرة الثقافة والاعلام.

ينقسم نشاط دائرة الاعلام والثقافة إلى مرحلتين:

الأولى : حين كان نشاطها مُركّزاً على خدمة المصالح الشخصية، ونزوات ومتع بعض أعضاء الجبهة، وجيرانهم وأصدقائهم.

الثانية : حين تحولت هذه الدائرة إلى أداة لخدمة اليمين الفلسطيني، ووسيلة لتدميرالعقل والابداع الفلسطينيين. وسوف نورد أمثلة على كل مرحلة:

- السيدة ليانه بدر، شاركت في كل الأسابيع الثقافية الفلسطينية (في لندن وباريس والجزائر والكويت وقطر الخ...) بدون أن تقدم مساهمة واحدة، في أي من هذه الانشطة. وتعيش الآن في باريس كمبعوثة من الدائرة لدراسة شعر محمود درويش عن قرب. ورغم أن السيدة ليانه قد غادرت بيروت بعد بدء الاجتياح الصهيوني (عام ١٩٨٢) بثلاثة أيام، فقد آستولت على الدعم المادي للأدباء الذين صمدوا في بيروت. وهي الوحيدة التي تقدمت بطلب لمعونة مالية، حتى تكتب مذكراتها عن بيروت في فترة الأجتياح!

وهنالك حادثة غريبة بالفعل، إذ بعد خروج الأسرى من معتقل (أنصار) تقدم ثلاثة منهم إلى دائرة الثقافة والإعلام، طالبين نشر يومياتهم عن فترة الإعتقال، ورفضت الدائرة طلبهم، بدون الإطلاع على مذكراتهم، وقيل لهم إن هذا الموضوع مستهلك. وفي الوقت نفسه حصلت السيدة ليانه بدر على تسعة الاف ليرة كدفعة أولى مقابل مشروعها لكتابة يومياتها في معتقل أنصار. هذا رغم أنها لم تر معتقل أنصار في حياتها.

- السيدة ليالي بدر، أنهت عملها في الكويت، وجاءت إلى دمشق، وعلى الفورتم تعيينها في الدائرة، وجاءتها بعثة على حساب الدائرة لمدة سنة في جمهورية المانيا الديمقراطية لدراسة الإخراج التلفزيوني، علما بأن الدائرة لا تملك جهازاً للإخراج التلفزيوني!

- السيدة «ك» زوجة عضو في اللجنة المركزية للجبهة الديمقراطية، تعمل في مركز الاثار والتراث الفلسطيني في باب الجابية – دمشق منذ سنتين، ونشاطها مقتصر على الذهاب

إلى الدائرة مرة كل شهر لاستلام مرتبها الشهري!

– السيد قيس الزبيدي، مسؤول قسم السينما في الدائرة. والطريف في المسألة أنه لايوجد قسم فاعل للسينما في الدائرة ولا وجود لقيس نفسه لأنه، منذ عامين، وهو يعمل مدرساً في معهد السينما في جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

ونستطيع أن نمضي في إعطاء الأمثلة التي توضح سير هذه الدائرة، وكيف أن ماركسية الجبهة الديمقراطية تتمثل في رشوة الأعوان والمحاسيب، وسرقة المال العام. وكم كان بودنا في هذا السياق، لو أُتيح الاطلاع على تذاكر السفر المجانية الممنوحة لمن حضروا المؤتمر الوطني الفلسطيني في الجزائر وغيرها من التذاكر والنقود. هل تسمح الدائرة بمراجعة حساباتها بواسطة لجنة قانونية محايدة؟ لا أعتقد.

(٣)

نحن نعلم أن أقوالنا هذه سوف تثير غضب العديد من المثقفين الفلسطينيين. ولكننا نعتقد أن علينا أن نواجه هذا الغضب ونناقشه:

منطلق الغاضبين هو أن المال الفلسطيني سائب. والشاطر هو مَنْ يستولي على جزء منه، ويستعمل الجزء الآخر للمتع الخاصة. السرقة – سرقة المال العام – متفشية، ولم تعد نقيصة. فأي معنى للتدقيق مع الجبهة الديمقراطية فقط؟

والمنطلق الآخر للغاضبين هو أن الوظيفة العامة الفلسطينية ليست خدمة عامة. هنالك عشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين يستلمون مرتبات شهرية، بدون أن يقوموا بأي عمل، فلماذا نحاسب الجبهة وحدها؟

يضاف إلى هذا المفهومُ البدوي الفلسطيني: الستر على الولايا. فالمرأة إنسان قاصر، يجب أن نتحمل أخطاءه بصبر الرجال !

لهذا، فعندما نناقش دائرة الاعلام والثقافة فإننا نحاول، أيضا،أن نرسي ونؤكد المفاهيم التالية:

– المال الفلسطيني ملك للشعب الفلسطيني،والاستيلاء عليه بدون وجه حق يجب إن يعتبر جناية ضد الوطن.ونقول للمتمركسين إن جناية كهذه يعاقب عليها في الإتحاد

السوفيتي بالإعدام. ونقول لهم إن مسألة المال العام كانت أحد موضوعات الصراع الأساسية في التاريخ العربي بين الثائرين والطغاة. فعندما قال معاوية إن المال العام «لنا»، رد عليه أبو ذر الغفاري بأن المال هو مال المسلمين، وحق الحاكم فيه كحق أي مسلم. وقد كرر قولة معاوية حاكم الكوفة الذي قال: «السواد بستان قريش».

ومنطق الجبهة الديمقراطية ودائرة الإعلام والثقافة هو منطق الطغاة:

الدائرة لخدمة العائلة.

المال العام مالنا، وإذا أعطينا فان ذلك تفضل منا.

- مفهوم الوطنية العامة: قد تنحط السلطة، في أحيان، إلى الحد الذي تفضل فيه «أهل الثقة على اهل الكفاءة»، ولكن (دائرة الاعلام والثقافة) ووراءها الجبهة الديمقراطية، قد ذهبتا إلى ما هو أبعد من انحطاط السلطة بكثير. فمفهوم الوظيفة العامة أصبح يتلخص عندها في مفاهيم القرابة، الإستزلام، تيسير المتعة.

إن علينا أن نستعيد، في الثورة الفلسطينية، وبشكل أشد حزما وحسما، مفهوم الوظيفة كخدمة عامة وكتكليف بشروط من الشعب. إن من واجبنا، في ظروف الثورة المسلحة خاصة، الأ نسمح بقيام السلطة كقوة مفارقة، متعالية على الجماهير، وخارج سياق التكليف الشعبي المشروط. ولكن من الواضح أن دائرة الثقافة والإعلام والجبهة الديمقراطية تتبنيان مفهوم السلطة كحق إلهي، فإن كانت سلطة سيئة فهي عقاب من الله.

- المفهوم الثالث الذي يجب أن نرسيه هو ان المرأة ليست وظيفة للرجل، بل هي إنسان كامل له حقوق كاملة، وعليه واجبات كاملة؛ أي أنها ليست «حرمة». ويتأكد هذا الوضع للمرأة عندما يرتبط وضعها بالمال العام للثورة الفلسطينية، وبالخدمة في قضية عامة.

من هنا نستطيع القول إن ضيق أفق هؤلاء السادة يتجاوز كل حد، فالمرأة لها حقوق المواطن، لكن شهامتهم لا ترى أن ذلك يترتب عليه واجبات ومسؤليات ومساءلة.

فما هي حقيقة موقف هؤلاء السادة؟

(٤)

تحدثنا عن المرحلة الأولى من تاريخ (دائرة الاعلام والثقافة)، وهي مرحلة تقديم الخدمات المادية ووسائل المتعة والتسلية للمتسلطين عليها. وقد كان هذا جزءاً من سياسة «عرفات»

يتيح لكوادره السرقة والنهب والدعارة. وتصبح هذه كلها سيفاً مسلطاً على الأعناق، وتهديداً وابتزازاً دائمين لمن يمارسها.

و«عرفات» بهذا يضمن الخضوع الكامل من هذه الكوادر،لأنه يملك المبررات الكافية لإيصالهم إلى حبل المشنقة، لو أبدوا أقل اعتراض.

ولكن «عرفات»، في هذه المرحلة، التي سميناها بالمرحلة الثانية، يريد أهدافاً إضافية لهذه الدائرة، بالإضافة إلى دورها في إفساد المثقفين الفلسطينيين، وتتلخص الأهداف الإضافية للمرحلة الثانية بالتالي:

- إعداد الجو النفسي، وإشاعة المبررات الايدولوجية والسياسية لعقد اتفاق مع العدو الصهيوني؛

- سحق كل موقف يعارض القيادة اليمينية، وكل فكر يرفع شعار الكفاح المسلح؛

- تحويل العقل والإبداع الفلسطينيين إلى مجرد أدوات دعائية لمشاريع الكومبرادور الفلسطيني.

وسوف نعطي هنا مثالين بارزين على نشاط الدائرة في مرحلتها الجديدة. المثال الأول: هو الحرب التي تشنها الدائرة والجبهة الديمقراطية على (فرقة أغاني العاشقين).

لقد سبق لنا، في مجلة (فتح)، أن نشرنا وثيقة، وهي عبارة عن عقد يمنح بموجبه عضو الفرقة مرتبا قدره خمسة آلاف ليرة سورية، كحد أدنى، إذا استقال من الفرقة والتزم بيته، وبعد أن نشرنا هذه الوثيقة قامت الدائرة (والجبهة الديمقراطية) بحملة تنكر فيها الواقعة أصلاً، وقد قام بإشاعة هذا الإنكار بعض المتخلفين عقلياً.

ماركسيون بدو: كل شيء للقبيلة

ولكننا نؤكد، هنا،أن الوثيقة صحيحة.وأن هنالك أدلة، بالاضافة إلى الوثيقة،تبرهن على صحتها:

- إن مجلة (الحرية) قد دأبت على مهاجمة (فرقة أغاني العاشقين)،والقول بأنها لا تتبع دائرة الإعلام والثقافة وأنها فرقة مزيفة، زما الفرقة الحقيقية فهي تقيم في تونس، ولا تمارس أي نشاط. والإنتماء إلى الدائرة (شرف) لم تدعه الفرقة، لأن مشروعيتها لا تأتي من قيادة خائنة، ولا من عملائها الصغار، بل من نصف مليون متفرج، في سوريا وحدها،

يشاهدون كل عرض من عروض الفرقة.

وهذه مفارقة غريبة، أو أكثر من مفارقة. فإذا كان أعضاء الفرقة يريدون الإنضمام إلى الدائرة، فلماذا تمانع الدائرة وهي التي تنشر الاعلانات أن الفرقة غيرشرعية؟ والمفارقة الأخرى: متى حدث في تاريخ الثورة الفلسطينية أن تمنع مؤسسة فلسطينية إبرام عقد مع أحد العاملين لحين حضور الوالدين؟

- تقول الدائرة إن العقد الذي نشرته مجلة (فتح) لا يحمل توقيع السيد أحمد الجمل، مدير الدائرة بالوكالة. وذلك لأن أعضاء الفرقة هم الذين تقدموا إلى الدائرة طالبين إبرام هذا العقد، فاشترطت أن يكون حاضراً عند التوقيع والد ووالدة الطرف الثاني المتعاقد.

إن ما تم بالفعل هو أن الدائرة تقدمت بهذا العقد المغري إلى أعضاء الفرقة، وأن أعضاء الفرقة أخذوا العقد كشاهد على هذا المسعى القذر، ورفضوا التوقيع عليه.

- إن مجلة (فلسطين الثورة) الناطقة باسم القيادة اليمينية لمنظمة التحرير تشن هجوماً شرساً ضد (فرقة أغاني العاشقين) وتطالب بتصفيتها. ودائرة الاعلام والثقافةتتلقى أوامرها من تونس، من عبد الله الحوراني. هنا وثائق تثبت هذا، وهي أوامر إلى الدائرة تحمل توقيع الحوراني وختم الدائرة.

(٥)

المثال الثاني هو سعي الدائرة لتصفية مركز الآثار الفلسطيني في دمشق بناء على طلب صهيوني، أو على الأصح، تهديد صهيوني، ولهذا حكاية تستحق أن تروى:

الحكاية يرويها الدكتور شوقي شعث، مدير مركز الآثار الفلسطينية، وهو مبنى أثري يقع في باب الجابية بدمشق، منحته للدائرة وزارة الثقافة السورية:

«في البداية كنا نعمل في اطار التعاون بين منظمة الثقافة والتربية والعلوم العربية، التابعة للجامعة العربية (ألكسو) وبين دائرة الإعلام والثقافة الفلسطينية، و(ألكسو) هي التي تقوم بتمويل المركز ..لقد تم الاتفاق على إقامة مركز للإثار الفلسطينية، وعلى مشروع تنظيم وإقامة ندوة الآثار الفلسطينية. بقيت ألاحق الموضوع لتأمين أمكنة ومستلزمات المشروعين. تم تحويل السيد طلال ناجي إلى دائرة الثقافة والإعلام للإشراف على المشروعين، وعينت أنا خبيراً للمركز».

ويضيف الدكتور:

«خصصت (ألكسو) راتباً شهريا لي قدره ثلاثة آلاف دولار. ولكن السيد عبدالله الحوراني قام بتحويل هذا المبلغ إلى الصندوق القومي. وخصص مبلغ ألفي (٢٠٠٠) ليرة سورية كمرتب لي. جرت مناقشات حول كون الراتب لا يكفي للإقامة والتنقّلات الخ.. وبعد مداولات عديدة شارك فيها الحوراني ووزارة الثقافة السورية، تم الاتفاق على توقيع عقد اتفاق بيني وبين الدائرة، على أن اداوم يومين في الأسبوع، مع تغطية النفقات اللازمة لتنقلاتي، وأن اداوم أربعة أيام في جامعة حلب، بصفتي أستاذاً فيها. وقد تكلم الحوراني طويلاً عن ضرورة خدمة الثقافة الوطنية والتضحية من أجلها، وانه يقدر تضحيتي بقبول المرتب الخ..»

ويضيف الدكتور شعث:

«كنت في برلين منذ وقت قريب. سافرت اليها بمهمة، بصفتي مديراً للمركز لحضور مؤتمر الآثار العالمي. وقد ألقيت فيه محاضرة عن الآثار الفلسطينية، ثم تفرغت للعمل في المكتبة الضخمة، التي وضعت تحت تصرف المؤتمرين. صوّرتُ كل ما يتعلق بالآثار الفلسطينية، ومنها المجلات الصهيونية المتخصصة بالتراث، وعددها ستة عشر مجلة. هذا في الوقت الذي نحاول أن نصدر مجلة عن المركز، ولكن السيد عبدالله حوراني يرفض. وقمت، بالإضافة إلى هذا، بجمع كل المقالات والكتب المتوفرة عن الآثار الفلسطينية. هنالك مجلة اثارية تصدر في المانيا منذ اربعين عاما حصلت على أعدادها. وقد سبق أن حصلت على دوريات سورية في هذا الموضوع، قيمتها (١٢٠٠٠) ليرة سورية. وقد بلغ ما أرسلته من طرود اثنين وعشرين طرداً من الصور والكتب والمجلات. كما أن أكثر من ثلثي كتب المركز قد عملت على أن تأتي كهدايا في الوقت ذاته، حين سافرت إلى برلين، كان المسؤولون في دائرة الإعلام والثقافة موجودين في تونس، فدفعت مصاريف الرحلة من جيبي الخاص».

(٦)

سوف نتوقف قليلاً عن تكملة حديث الدكتور شوقي شعث ونروي مفارقة طريفة:

لا بد أن القارئ سوف يسأل عن المكافأة التي قدمتها دائرة الاعلام والثقافة لهذا الرجل الذي بذل كل هذه الجهود، ووفر على الدائرة ملايين الليرات؟ لقد خصصت (ألكسو)

٤٩٠٠٠ دولارا لإقامة ندوة الآثار الفلسطينية، ولكن الدكتور عمل جاهداً حتى رفع المبلغ إلى مائة ألف دولار.

فكيف كوفيء؟

لقد أرسل السيد عبد الله حوراني إشعاراً إلى «الاخ/مدير عام الصندوق القومي» يقول فيه:

«فان الدائرة تشعر أنه لم تعد هناك حاجة لعمل الأخ شوقي شعث في المركز، خاصة وأنه موظف في المديرية العامة للآثار والمتاحف في سوريا - متحف حلب - ولم يستطع خلال كل مدة عمله لدينا أن يعطي من وقته أكثر من أربعة إلى خمسة أيام في الشهر لمركز الآثار الفلسطيني».

تم إرسال هذا الكتاب والدكتور شعث في برلين يسجل الاف الصفحات الخاصة بالاثار الفلسطينية التي احتاجت إلى (٢٢) طرداً.

ويقول كتاب الحوراني:

«هذا بالإضافة إلى أن استمرار الجمع بين راتبين (راتب الحكومة السورية وراتب منظمة التحرير) أمر لم يسمح به الصندوق القومي الفلسطيني من قبل، في حالات مماثلة. كما أنه قد يعرض ألاخ شوقي للمساءلة من قبل الجهات السورية...».

والتلفيق يصل إلى حد الصفاقة. فالإتفاق مع الدكتور شعث قد تم بمعرفة الحوراني ووزارة الثقافة السورية، وبموافقتهما، بل وبإلحاح من الطرفين. فما معنى اكتشاف الحوراني، والآن فقط، أن الدكتور شعث يجمع بين مرتبين؟ وأي معنى للحديث عن المساءلة، ما دامت الجهات التي تسائل هي التي سمحت بهذا الوضع؟

وأما القول بأن (ألكسو) لم تقدم معونات لمركز الآثار الفلسطيني منذ سنتين، فهو تضليل صريح وقح. فالمعونات تدفع بانتظام ولكن الذي يقبضها هو عبد الله حوراني.

والسؤال الاكثر الحاحا هو: لماذا يثير الحوراني مسألة الدوام بالنسبة للدكتور شعث وحده؟ - والدكتور يداوم حسب عقد وقعه الحوراني نفسه - ويسكت عن الذين لا يداومون ابداً، وعن الذين يجمعون بين مرتبين او أكثر؟

سوف أورد بعض الامثلة:

رياض الزعبي: موظف بالتلفزيون السوري، وبالدائرة.

قيس الزبيدي: مدرس في معهد السينما في ألمانيا الديمقراطية، ويقبض مرتباً بالإضافة إلى مرتبه من الدائرة.

أما بالنسبة للدوام فإن السيدات والسادة التالية أسماؤهم لا يداومون على الاطلاق:

كليمنص خوري، نادية كنعان، قيس الزبيدي، رياض الزعبي، رسمي ابو علي.

والسؤال الآخر: كيف عرف حوراني، الموجود في تونس أصلا، كل شيء عن الدائرة في الوقت الذي تدعي فيه الدائرة أن لا صلة له بها، وكيف يصدر قرارات وأوامر لها؟

كيف نفسر هذه المفارقات والعجائب؟

يفسر لنا الدكتور شعث ذلك فيقول:

«لقد تقرر إقامة ندوة الآثار الفلسطينية في بلد عربي. ولكن حوراني ألح على اقامتها في ستوكهولم. قلت: لماذا بعثرة النقود في المهمات والسفر؟ وقلت: إن العمل في هذا المجال يحتاج إلى هدوء وصمت. نقيم الندوة في بلد عربي، والجولة الثانية في جامعة أوروبية. حوراني يريد ستوكهولم حتى تتحول إلى ندوة يفتتحها «عرفات» ، وتصبح دعاية له لا لدراسة االآثار الفلسطينية. قلت:إننا نريد ندوة في جو علمي، نحن نخطط لها ونحدد موضوعاتها، أما تسييسها لصالح «عرفات» فلن يخدم الندوة في شيء.

هذا هو سبب الخلاف وليس الراتب او الدوام. لا اعتقد ان احداً يخالفني في ان طبيعة مهنتي لا تتطلب دواما جامداً كدوام الموظفين. ثم إني لم اكن العب في برلين..».

يضيف الدكتور شوقي شعث سبباً آخر:

«ثمة وجه آخر للخلاف، هم يريدون نقل المركز إلى عمان، على أساس ان يشرف عليه عبد الرحمن المزّين. وهو فنان تشكيلي، وكما يعرف الجميع فإن هنالك فرقا واسعا بين حقلي الفن التشكيلي والاثار».

والسبب الثالث كما يقول الدكتور:

«من المعروف أن «إسرائيل» كدولة قامت على أساس نظرية الحق التاريخي في فلسطين.

هم يحاولون جمع المعلومات لدعم نظريتهم، وبالتالي أحقية دولتهم في الوجود، ومن هنا جاء اهتمامهم بالآثار. وفي فلسطين المحتلة يوجد دائرة عليا للآثار ومؤسسات خاصة ومتاحف وجمعيات أصدقاء الآثار. وقد صدر الكثير من الكتب في «إسرائيل» عن ذلك، بالإضافة إلى ستة عشر دورية تصدر بمختلف اللغات. كل ذلك لتدعيم الحق الصهيوني في فلسطين ولتشويه الحقائق التاريخية».

(٧)

في الجزء الأخير من حديث الدكتور شعث إشارة إلى مسألة خطيرة:

فالمرحلة الثانية من نشاط دائرة الإعلام تبدأ مع مساعي القيادة اليمينية لـ م.ت.ف. لإقامة حوار مباشر مع العدو الصهيوني. وحتى تقبل قيادة العدو مثل هذه الخطوة، لا بد من إبداء حسن النية. وفي هذا المجال لا يمكن القفز فوق معطى الحق التاريخي الذي إقيمت «إسرائيل» على أساسه. القبول بهذا الحق زمر لا بد منه للإعتراف المتزامن بين المنظمة و «إسرائيل» الذي طالب به نايف حواتمة في حديثه مع صحيفة (لوموند).

ان نشاط الدكتور شعث في مجال الآثار قد آثار اعتراضات صهيونية. فالحوار مع العدو يتطلب عدم معارضة هذا الحق عمليا في مجال الآثار .

يقول الدكتور شوقي شعث:

«انطلاقاً من فهمنا لضرورة العمل على مواجهة العدو بكل السبل،جهزنا، في مركز الآثار الفلسطينية، مجلة علمية متخصصة بهذا المجال.والعدد الأول جاهز للطباعة. عرضنا المسألة على المشرفين على الموضوع عدداً من المرات. عبد الله حوراني اجابنا: لا توجد ميزانية للطباعة!! ألححنا عليهم. فكان الجواب دائما مماثلا، أي أنهم وضعوا امامنا عراقيل عديدة تحت ذرائع مختلفة. قلنا لهم: نحن لسنا دائرة آثار «كلاسيكية». ليس عندنا أرض. لا مجال أمامنا للتنقيب والعمل، كما في دوائر الآثار العادية، ففيم نعمل إنْ لم نصدر- وهذا أضعف الايمان - مجلات وكتبا في مجال عملنا؟ ليس لدينا سوى البحث العلمي الذي يخدم إرساء دعائم ثقافتنا الوطنية، وتبيان حقنا ومشروعية نضالنا ضد العدو....» وكخطوة أولى طالبنا بإنشاء مكتبة في حقل الآثار، إضافة إلى تمويلنا ومساعدتنا لاستكمال إصدار المجلة. وهكذا سار العمل إلى أن وصلنا إلى

اليوم، لا المجلة - عددها الأول - طبعت، ولا الكتب الثلاثة التي أنجزت عن تواريخ بعض المدن الفلسطينية (عكا ويافا والقدس) أنجزت. ومن أجل الخروج من هذا الجمود، كلمت مديرية دائرة الآثار في سوريا، ابتغاء طبع المجلة بمساعدة الدائرة، خاصة وأن مثل هذه الخطوة سوف تشجع بقية دوائر الاثار في أقطار عربية اخرى ، على مساعدتنا لاحقاً في الطباعة. وبالنسبة للكتب الثلاثة، تم إرسال أحدها إلى منظمة التربية والثقافة والعلوم، والآخران ينتظران من يجود علينا بنشرهما».

ويضيف أنه بعد عودته من برلين راجع ياسر عبد ربه وعبد الله حوراني وأحمد الجمل، وتحدث معهم في هذه المواضيع «غير أنهم غيبّوها بالكامل».

هنا ينتهي حديث الدكتور شوقي، هذا الحديث الذي كشف بشكل عملي الدور التخريبي الذي تقوم به (دائرة الثقافة والاعلام). والطريف أن السيد ياسر عبد ربه، رئيس الدائرة، هاجم دور الدائرة في السعي لشق (فرقة أغاني العاشقين)، وخص باللوم السيدين أحمد الجمل ومحمد سعد ذياب اللذين يتلقيان الأوامر والاموال من عبد الله حوراني مباشرة، وقال إن هؤلاء يسيئون له شخصياً، وللدائرة، وللمنظمة التحرير «بتصرفاتهم الرعناء غير المسؤولة».

ونحن نسأل عبد ربه: هل تحويل الدائرة إلى خدمة العائلة والجبهة الديمقراطية مسألة لا تسيء اليه؟

مجلة « فتح » ٢٨/ ٨/ ١٩٨٥ « العدد ٥٢ »

الفصل التاسع عشر

وقف الحملات الإعلامية

في الإجتماع بين المنظمات الفلسطينية، جرت أحاديث عامة، وطرحت أسئلة لم يجب عليها، إلاّ أنه جرى الإتفاق على شئ واحد: وقف الحملات الإعلامية. وتعهد الجميع بوضع أيديهم على الأزرّة، وإيقاف الحديث عن الخلاف. الأجهزة سوف تطيع. إنها مجرد اجهزة صماء لها براعات، لكنها بدون عقل.

(١)

وقد كان هذا كشفاً لنا، نحن العاملين في مجال الفكر. كنا أجهزة تُعبأ، فتقوم حملة إعلامية، وأجهزة تُدار على العكس فتتوقف الحملات الإعلامية، وأصبح ما نقدمه يسمى إعلاما، لافكرا ينتج. تصدر الأوامر لنا أن نشتم فنشتم، وتصدر أوامر أخرى أن نصمت فنصمت.

إذا كان هذا هو موقف قادة الفصائل منا، فما هو موقفنا من أنفسنا، نحن العاملين في مجال الفكر؟

سأتحدث عن نفسي،وارجو أن اكون – في هذا – ناطقاً باسم زملائي العاملين في نفس المجال.

حين يضع الكاتب نفسه في وضع يطلق عليه إسم «جهاز إعلامي» فهو يوافق على أن يصبح أداة منفذة. هنالك من يفكر عنه،أما هو فيطيع الأوامر. ومعنى هذا أنه ليس صاحب رأي ولا موقف،بل مسماراً في آلة.إنه بهذا يلغي نفسه كإنسان أساساً،ولا يرتفع أبدا إلى مستوى المفكر، لأن باب الاجتهاد أمامه مغلق.وأسال نفسي:كيف وصلت – أنا –إلى هذه الحال؟

أتذكر أنني نشرت في مجلة الآداب اللبنانية - وقد كنت أعيش في مصر - في الستينات، سلسلة من المقالات تحت عنوانين: التراث والتقدم، والثورة والأنموذج. وعندما انعقدت، في موسكو عام ١٩٦٥، ندوة كتاب آسيا وأفريقيا، وقف أحد المفكرين السوفييت، وتحدث، خلال جلسة كاملة، عن هذه المقالات. وقال إنه قد اقتنع أن طبقة رأسمالية طفيلية تقف على قمة السلطة في مصر؛ وأنها سوف تقود مصر إلى الرأسمالية والإرتماء في أحضان الغرب. قال ذلك استناداً إلى هذه المقالات.

وكان الوفد المصري مكوناً من السادة سعد وهبة ويوسف إدريس وفتحي غانم، فأعلن انسحابه احتجاجاً.

وفي مصر ايضاً تجمعت في عام ١٩٧٦ كل القوى الحية في مصر، في ندوة تدين سياسة السادات، وقد ترأست هذه الندوة، وتم سجني ثم طردي من مصر.

وفي العراق لم يطلب مني أحد أن اقول كلمة واحدة لا اؤمن بها. في أوج الحملة على الشيوعيين العراقيين، اجرت جريدة «المحرر» المغربية معي حديثاً قلت فيه إنه في كل عشر سنين تقوم إسرائيل بهجوم تحطم فيه الإنجازات العربية في مجال الإقتصاد والجيش.وفي كل عشر سنين يجيء موسم الحصاد. إذ تقوم الحكومات العربية باعتقال وقتل وقمع زهرة شباب الأمة. والآن جاء موسم الحصاد، في العراق،ولم يراجعني أحد على تصريحي هذا. وعندما كتبت نقداً لرواية جبرا إبراهيم جبرا «السفينة» دفاعاً عن الشيوعيين، إتصل بي طارق عزيز، وكان وزيرا للإعلام، وشفيق الكمالي، كان رئيساً لا تحاد الأدباء العرب، وناصيف عواد، مدير مكتب صدام حسين، حتى لا أنشر المقال، ورفض الحزب الشيوعي العراقي نشره. ولكنني رغم ذلك نشرته.

وحين كتب طارق عزيز مقالا يفتتح فيه الحملة على الشيوعيين، ويبرر أسبابها، كان الذي رد عليه هو انا، وليس الشيوعيين، ورفض الشيوعيون العراقيون نشر ردي الطويل جداً، قائلين: «نفعل ذلك لسلامتك».

رغم هذا لم توجه السلطات العراقية كلمة واحدة اليّ، ولم تتخذ أي إجراء ضدي.

ورغم هذا غادرت العراق، لأنني اعتبرت أن مجرد وجودي هو نوع من التواطؤ.

والحديث يطول. وليس هذا مجال الافتخار. ولكنه تحديد للمواقف. فأنا أواجه إهانة مزدوجة: أنني كنت جزءاً من حملة إعلامية وأنه ايضاً يمكن إسكاتي بقرار. وما هو معنى قرار الإسكات؟ أنه من المطلوب أن يتوقف عقلي عن العمل فترة من الزمن.

وأود أن أؤكد، هنا، أنني حين حللت طبيعة البورجوازيتين الفلسطينيتين: الكومبرادورية والبيرقراطية، وحين عرضت رأيي في مسألة البديل الثوري؛ وفي كون الثورة الفلسطينية هي القلب المسلح للثورة العربية، وفي المشروع الثقافي الفلسطيني، وحين كتبت عن المفاهيم الفاشية في الأدب، وعلاقة مفهوم الارض الأم بغريزة الموت الخ... لم أكن أتلقى أوامر من أحد، ولم أكن جزءاً من «حملة إعلامية».

وأؤكد ايضا أنه ما دامت الساحة الفلسطينية والعربية، تطرح القضايا والإشكالات فلن أتوقف عن التفكير، وبالتالي عن الكتابة، مهما صدر من أوامر. وحين تكون المسألة مسألة تَلَقّي الأوامر وتنفيذها، أي حين تكون المسألة أن يبيع الإنسان نفسه، فلن يكون ذلك مقابل ملاليم. تأكدوا من هذا !

(٢)

والآن نأتي إلى هذا القرار الغريب: «وقف الحملات الإعلامية». هل يعني هذا أن الساحة الفلسطينية لم تعد تطرح الإشكالات والأسئلة؟ وهل يعني هذا أن باب الإجتهاد قد أغلق، باعتبار أن قادة الفصائل قد توصلوا إلى الكلمة الأخيرة في كل شيء؟

دعونا نتذكر أن إغلاق باب الإجتهاد في التاريخ العربي كان يمثل موقف جماعة ترى أن استعمال العقل هو من عمل إبليس، إبليس الذي - كما قال الشهرستاني في الملل والنحل - مال إلى استعمال العقل «في مقابلة النص»، كما يقول الشهرستاني.

فهل يعتقد قادة الفصائل فعلاً أن العقل إثم من عمل الشيطان؟هل يعتقدون أن تأكيد قوانين العقل - علم المنطق - هي مؤامرة مجوسية ضد العرب،كما يقول الدكتور سامي النشار؛ وأن ابن المقفع حين ترجم كتاب «المنطق» لأرسطو كان يهدف إلى تدمير الأمة العربية؟

(٣)

ان هذا يطرح مسألة في غاية الأهمية. وهي وضع المثقف داخل الثورة الفلسطينية، بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المسألة المطروحة هي مسألة العقل داخل الثورة الفلسطينية.

« التعميم » ١ - أيار - ١٩٨٤

العقل السلبي
والعقل الايجابي

حيرتني طويلاً عبارة ماركس التي يقول فيها:

«إن مهمة الفلاسفة كانت في الماضي تفسير العالم، أما الآن، فإن مهمتهم هي تغييره».

ومنشأ حيرتي أسباب ثلاثة هي :

الأول : أن تفسير العالم هو خطوة في سبيل تغييره، حيث الوعي (المقولة اللينينية الأساسية والتي أصبحت الحزب الواعي) هو البداية التي لا بد منها لتغيير العالم.

الثاني : أنني حين أستعيد تاريخنا العربي، وهو الذي أستطيع التحدث عنه ببعض الثقة، أجد أن المفكرين العرب كانوا، في مسعاهم لتغيير العالم، أسرع منهم إلى تفسيره. كانت الفلسفة موقفاً سياسياً إجتماعياً قبل أن تكون موقفاً تأملياً. يحيى بن الحسين أعلن أن الصورة التي يرسمها الجبريون للرب تهدف إلى تبرير طغيان الحاكم، واعتبر أن الوسيلة الوحيدة للتعامل مع الحاكم الظالم هي السيف. مَن لا يحمل السيف ضد الحاكم الظالم فهو شريك له في ظلمه.

والسلسلة طويلة : الجعد بن درهم الذي كان يؤمن بأن الإنسان حر الإختيار، ربَطَه حاكم الكوفة خالد القسري بالحبال، ورماه تحت المنبر، كان ذلك يوم عيد الاضحى، وخطب في الناس قائلاً:

«أيها الناس! اذهبوا وضحّوا، تقبّلَ الله منكم، اما انا فسوف أُضحّي بالجعد بن درهم، فلقد زعم ان الله لم يكلم موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً. تعالى الله عما يقول الجعد

علواً كبيراً.ويتوالى المفكرون ـ الشهداء، غيلان الدمشقي الذي صلب على ابواب دمشق، ابن المقفع الذي وضع في تنور ملتهب بأمر حاكم البصرة الخ..

الثالث : أن عمل ماركس الأساسي كان تفسير العالم.وأما من اجل تغييره فلم يفعل الا القليل.

(١)

لا أذكر في أي سياق جاءت عبارة ماركس. وأنا أعلم أن محاكمة عبارة منتزعة من سياق النص هي محاكمة ناقصة. الأغلب أن ماركس كان يتحدث عن واقعة محددة، وهي موقف الفلاسفة الماديين السابقين عليه. كان هؤلاء يرون أن العالم، خارجنا، واقعة موضوعية لاسبيل لنقضها. أما الوعي الإنساني فهو ظاهرة سلبية تتلقى الإنطباعات عن العالم الخارجي في سكونية تامة. والنشاط العقلي الوحيد الممكن هو التأمل.ويذهب هؤلاء الفلاسفة، وفي معارضة تامة لهيغل، إلى أن الواقع الموضوعي والنشاط العقلي ضدان لا يلتقيان. إن التفاعل بين الذات والموضوع ملغى تماماً. الموضوع – أو الواقع – يتحرك بقوانينه الخاصة، والذات – العقل والفعل الإنسانيان – تتأمل بحيادية.

في هذا السياق يمكن لعبارة ماركس أن تكون مفهومة. وبذلك نتخلص من تلك الغوغائية التي ترى عقل الماضي سلبياً، وإنه بعد ماركس فقط اكتسب الفكر سمة الإيجابية والفعل.

العقل كان دائماً ايجابياً. أما الفكر السكوني فقد كان من إفراز الفئات العليا التي تعلم أن التغيير يهدد مصالحها:

«إعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة : شبهة ابليس لعنه الله. ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النص، واختياره الهوى في معارضة النص..» .

كما يقول الشهرستاني في (الملل والنحل) ويضيف معلقاً على حديث ذي الخويصرة التميمي، الذي اعترض على تقسيم النبي للغنائم:

«أوليس ذلك قولاً بتحسين العقل وتقبيحه؟ وحكماً بالهوى في مقابلة النص، واستنكاراً على الأمر بقياس العقل؟؟..».

السلطة هي أيضاً مؤسسة أيديولوجية،مؤسسة فكر فاعلة؛تعطي الأوامر للواقع وعليه أن يستجيب.

الفكر، بالنسبة للفلاسفة السابقين على ماركس، له صفة التأمل. والتأمل، في نظر مفهوم نقاء السلطة، جريمة يعاقب عليها القانون. فالمطلوب أن ننفذ ثم نخرس. وذلك مقابل المفهوم القديم التالي : نفذ ثم ناقش.

قد لا يكون رجل السلطة سيئاً، وقد يكون من ينفذ الأوامر ممن يرضون بدور سلبي؛ ولكن الاثنين اكتسبا عادات الأمر والتنفيذ حتى أنهما لم يعودا ينتبهان إلى خطورة الأمر.

سأضرب مثلا من الثورة الفلسطينية،حادثة وقعت قبل ايام قليلة.منذ فترة قصيرة أخبرني رئيس التحرير أنه تلقى امراً بإيقاف الحملات الاعلامية ضد المحور الرباعي (الجبهة الديموقراطية والشعبية والتحرير الفلسطينية – طلعت يعقوب – والحزب الشيوعي الفلسطيني بشير البرغوثي). وأضاف رئيس التحرير أن الإتفاق جرى بين قادة الفصائل الفلسطينية الثمان على هذا.

ولما كان لي رأي في مثل هذا الامر، فقد كتبت مقالاً في مجلة «التعميم» أعرض فيه رأيي، والمبررات التي دعتني إلى اتخاذ موقف معارض للقرارالجماعي.

وأنا لم أعمل في أجهزة الإعلام من قبل، لذلك بدا لي الأمر كله غريباً ومربكا، وخاصة انني وجدت نفسي أتحدث عن واقعة لم تحدث، ثم تذكرت شيئاً، أعتقد أنه يفسر المسألة ويزيل الحيرة. إن للأمر لغة وإيقاعاً لا يتحملان الشرح، والأخذ والرد. لغة الأمر يجب أن تكون قاطعة، سريعة الإيقاع، بحيث يكون الرد عليها سريعاً أيضاً:

– سوف أنفذ.

لنفرض أنك طلبت من خادم أن يجيئك بكوب ماء. سوف تقول:

ـ ماء.

ويرد الخادم وهو يتجه إلى المطبخ:

ـ حاضر.

(٢)

نحن ـ أو أنا على الأقل باعتباري عاملاً في القسم الثقافي لهذه المجلة ـ نطمح إلى تغيير العالم، أي نطمح أن نكون ذوات فاعلة في علاقتنا بالواقع؛ لا نتلقى هموم الواقع

بسكونية، بل نحاور ونناقش، ونعترض بهدف التغيير.. إننا نتبنى مقولة لماركس أكثر وضوحاً وأقل التباساً من سابقتها: إننا في سعينا لتغيير العالم سوف نتغير نحن. نتغير إلى مزيد من الإيجابية، وإلى مزيد من التفاعل بين الذات والموضوع. هذا هو مشروعنا.

نرى الكثير من الأعمال الهامة تُكْتب، وتنشر وكأن المخطوطة خرجت من يد الكاتب لتسقط في بئر لا قرار له. ونعلم كم هو مؤلم للكاتب أن يبذل الجهد المضني، فلا يواجه إلا بالصمت. وأحيانا يُحْدث الكتاب ردود فعل واسعة، ونعلم أن معظم هذه الردود يقوم على سوء تفاهم أو سوء فهم. وهذا وضع مربك، يشبه من يرى نفسه موضع تكريم وتبجيل، ثم يكتشف أن لبساً قد حدث، وأن التكريم قد أُعِدَّ له باعتباره شخصاً آخر.

ونحن نطمح أن نتجاور حالة كهذه. كما نطمح إلى أن نعيد فتح قضايا أُثيرت، ثم أُغلق باب النقاش حولها، بدون أن تأخذ المسائل المطروحة مداها. إن مفكرين من أمثال حسن حنفي، صادق جلال العظم، أدونيس، لويس عوض، طارق البشري، عادل حسين، إلياس مرقص، عبد الله العروي، رفعت السعيد، أحمد صادق سعد، بوعلي ياسين وغيرهم قد طرحوا الكثير من الأفكار التي تستحق أن يُفتح لها باب النقاش. قد لا نحقق ذلك كله، أو قد نضطر إلى فتح ملفات أخرى. ولكننا نضع ذلك كهدف. وسوف نحاول إثارة أوسع حوار جاد حول الأفكار، وستَفتح هذه المجلة أبوابها لكل من عنده شيء يقوله.

كما أننا ندرك بعمق أن تيار التنوير قد انقطع أو كاد، ذلك التيار الذي كان ينقل الينا الإنجازات الفكرية التي تحدث في العالم الأوروبي، وأن مجال العمل في هذا الحقل قد اتسع ليشمل العالم كله.

(٣)

ولكننا، فوق ذلك كله، أو قبل ذلك كله، سوف نعمل لكي نزيل الحواجز - الخوف - الحساسية الخ - بين المثقف والسياسة.من الشائع أن المثقف (المحترم) لا يتحدث في السياسة. هنالك شبهة تشير إلى أن المثقف حين يتحدث في السياسة، فسوف يكون بين خيارين : منافقة السلطات وكسب ودها، وبالتالي امتيازاتها...أو أنه يقوم بعملية انتحارية. ونظراً لأن كلا الإختيارين غير مقبول، فإن الأسلم والأجدى أن يبتعد المثقف عن السياسة. ولأن السياسة هي الهم الاساسي لكل مثقف، لذا أصبح الأدب سياسة مستترة، وتوقف أن يكون ادباً.

سوف نسعى إلى أن نضع فاصلاً بين الاثنين، أن نجعل الرأي السياسي جزءاً من الفعل السياسي المباشر؛ لا يتخفى وراء عمل أدبي فيشوهه، أو لا يقول إلاّ العموميات التي لا تفيد ولا تضر.

ونحن جزء من الثورة الفلسطينية وسوف نناضل لأن نجعل الثقافة تحتل مركز الصدارة في الفعل الثوري. لا نفعل ذلك لصالح الثقافة فقط، بل وبشكل أساسي، لصالح الثورة.

(٤)

ولكن، هل اختيار العقل الإيجابي مسألة سهلة، سوف تمر بدون تعقيدات؟

السلطة العربية قوة كلية شاملة، تحيط بكل شئ، أو على الاقل، فانها تسعى إلى ذلك. والجوهر الأكثر نقاء وعرياً للسلطة هو أن يكون في مقدورها أن تصدر الأوامر فتنفذ بدون نقاش. في مثل هذا الجو، على رجل الدولة أن يتحسس مسدسه إذا ذكرت كلمة الثقافة، إذ إنها ـ الثقافة ـ تشكل خرقاً وقحاً وفظاً لنقاء مفهوم السلطة. المثقف ـ وما أكثر شيوع عبارة : ثرثرة المثقفين ـ يتحدث كثيراً، وخارج الموضوع دائما، فهو لم يتعلم الضبط والربط اللازمين لتنفيذ الأوامر.

فما الحل؟

هنالك حلأن، لا واحد. الأول أن يتحول المثقف إلى رجل إعلام، ينفذ الأوامر، ويقنع الآخرين بتنفيذها. والثاني هو تصفية المثقف، إما تصفية جسدية، أو إسكاته حتى لا يُسمَع له صوت.

قد يقودنا هذا إلى الإعتقاد أن السلطة العربية تبنّت أفكار الفلاسفة الماديين، السابقين لماركس، إذ اعتبرت أن العقل ظاهرة سلبية، يتلقى انطباعاته عن العالم الخارجي، بدون أن يفعل للتأثير فيه. ونحن نتلقى الأوامر وبسلبية تامة لننفذها.

ولكن الأمر ليس كذلك.

لو شرحت للخادم سبب حاجتك للماء، فسوف تشجعه على النقاش. وقد ينتهي به الأمر أن يقول لك : قم أنت واشرب. ولا يريك هذا النوع المائع من إصدار الأوامر الشخص الذي يلقي الأمر، بل كذلك الذي يتلقاه.

لهذا السبب يصبح المثقف شخصاً ثقيل الظل، يقتحم الأمور بدون معرفة بها. إنه يخرق

الدينامية الاجتماعية القائمة على إصدار الأوامر وإطاعتها، بل إن هذه الدينامية تشمل حتى العلاقة بين العامل والصناعة، بين الطيار والطائرة. إن الآلة تصدر أوامرها، وأحد مقاييس كفاءة العامل هي القدرة على الإستجابة السريعة.

(٥)

إن هذا يطرح السؤال التالي:

ما فائدة الثقافة؟ إذا كانت العملية الإجتماعية ـ وبالنسبة لنا في الثورة الفلسطينية ـ تسير بسلاسة ويسر، فما الداعي لتعقيد الأمور؟

لنا إجابات متعددة على هذا السؤال:

أ ـ إذا كان هدف العملية الإجتماعية والثورية هو خلق إنسان سوي، فيجب إن نرتفع به عن مستوى الإستجابة السلبية. الإنسان ينمو وينضج عبر الفعل الإيجابي. يغير العالم إلى الأحسن والأجمل فيتغير هو بالوتيرة بنفسها.

ب ـ حين نطرح سؤالاً كهذا، فنحن، في حقيقة الأمر، نناقش مبرر وجود الثورة نفسها. الثورة تقوم لأن التوازن القائم غير صحي وغير إنساني. نثور لأننا نريد تغيير الواقع.

جـ ـ كثيراً ما توضع علاقة الثقافة بالفعل باعتبارها علاقة بين ساكن (الثقافة) ومتحرك (الفعل)، أي أنهما ضدان. مَنْ منا لم يسمع عبارات من النوع التالي، تقال بحكمة ووقار: العرب انهزموا لأن كلامهم أكثر من فعلهم. وقال أنور السادات في حديث إلى المثقفين : لم يضيعنا إلا الفلسفة. وقال الدكتور سامي النشار : الفلسفة مؤامرة ضد العرب. وقال آخرون : الفلسفة مدعاة للكفر «من تمنطق تزندق».

ولكن لنتذكر الوقائع الملموسة:القرآن والحركة الإسلامية، موسوعة «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» والحركة القرمطية، أعمال الموسوعيين الفرنسيين والثورة الفرنسية، «رأس المال» والحركة الاشتراكية، كتاب لينين «ما العمل؟» واستلام البولشفيك للسلطة في روسيا.. وهناك مئات الأمثلة – وانْ تكن أقل وضوحاً – ولكنها تشير إلى أن الثقافة فعل، بل أن الفعل خارجها يفقد كفاءته.

وليس لنا الآن أن نطرح علاقة الثقافة بالفعل، فليس هذا موضوعنا، بل همّنا هنا هو أن نؤكد أن الثقافة هي فعل في العمق.

د ـ الموقف من الثقافة هو الذي يحدد الفارق بين الفكر البراغماتي والفكر الثوري. وهذه المسألة تكاد تكون أكثر سطوعاً وبروزاً داخل الثورة الفلسطينية. فهي ثورة يكاد أن يلتهمها، حتى العظم، العقل والمسلك البراغماتي، فهل نعجب بعد ذلك حين يقال إن الثورة الفلسطينية لا تملك مشروعها الثقافي بل تكاد تكون ثورة بلا ثقافة ؟

(٦)

هذا بالطبع لا يلغي كون مهمة المثقف صعبة. وصعوبتها لا تقتصر على مواقف السلطة القامعة منها فقط ،بل أيضاً، تشمل مواقف الجمهورالذي تربى وتكيف في ظروف معادية للثقافة. إن العقلية البراغماتية تطغى على ذوق الجمهور، فأصبح السؤال المطروح عندما يدور الحديث عن رواية من الروايات: ماذا تريد أن تقول هذه الرواية؟ يطرح هذا السؤال القراء والنقاد أيضا. وهم في الغالب يريدون من الرواية أن تقرر مقولة سياسية يتفق الجميع عليها؛ أي بكلمة اخرى يريدون من الرواية أن تقول ما يعرفونه. ولعل أشد الأمور مدعاة للعجب هو أن النقاد الماركسيين أصبحوا أشد براغماتية من جميع من سبقهم؛ العمل الأدبي بالنسبة لهم مقولة؛ والعمل الفني المتميز هو الذي يكرر مقولاتهم. إن حلقتهم مفرغة لإنها تسير على النحو التالي : مقولة ـ فن ـ مقولة. وبهذا نتوصل إلى نتيجة مذهلة : الفن لا ضرورة له، فالمقولة موجودة بدونه ويمكن إنتاجها بدون وساطته.

وبعد، فإن طموحنا كبير وإمكانياتنا قليلة. وقلة إمكانياتنا تعود بالطبع إلى ما سبق أن قلناه : موقف الثورة الفلسطينية من الثقافة. فهل تعلم يا قارئي العزيز، أن الذي يصنع القهوة له مكان في مجلتنا، والذي يصغي لإذاعة مونت كارلو له حجرة خاصة به، والذي يفتح لك الباب إذا زرتنا له مكانه، أما القسم الثقافي فليس له حتى كرسي يجلس عليه .

وما دام لا بد لنا أن نجلس، لذا فنحن مصدر إزعاج للآخرين!

إختيار النهاية الحزينة

الساحة الفلسطينية يحط عليها، الآن، كابوس انهيار أخلاقي وروحي؛ ساحة يدور فيها صراع سياسي بالمعنى الرديء للصراع، وبالمعنى المصري للسياسة، حيث يوصف النصّاب بانه «بتاع بوليتيكا». وهنالك عدة مظاهر تشير إلى هذا وتفقأ العين بوضوحها:

أ - هنالك الفارق بين القول والفعل. الفعل المتآمر الدنيء والقول المنمق الإحتفالي الذي يقال للخداع؛

ب - هنالك أيضا الخراب الروحي حيث يتم تغليب مصالح صغيرة لأصحاب عقول صغيرة، على مصالح الثورة، أعني تغليب الصراعات الثانوية على الصراع الرئيسي؛

جـ - هنالك أيضا افتقاد المشروع الثوري، أو المشروع الثقافي للثورة، وإلغاء إمكانية تحققه، واستبدال تكتيك بائس به؛ بهذا يتم إلغاء الإنسان، إلغاء كونه مشروعاً منفتحاً على المستقبل وتحويله إلى فرد في قطيع - له عقلية القطيع، واستجابات القطيع.

د - وهنالك مسألة قد تبدو لا أهمية لها، ولكنها تمثل تدميراً لروح الانسان وعقله في العمق، وأعني بها تعهير اللغة، وتحويل المصطلح الثوري إلى أداة تضليل وكذب. يصبح، انطلاقا من هذا، اسم الخيانة خطأ، وترتفع شعارات «الرجوع إلى الحق فضيلة»، وتُستعاد بدون خجل عبارات أنور السادات وأفكاره : السلام الاجتماعي داخل الساحة الفلسطينية، العائلة الواحدة التي تضم الجميع في إطار الوحدة الوطنية. لا خونة ولا رجعيين في الساحة. ولسبب غير مفهوم، كانت هذه الدعاوى

لا تجد نفسها متناقضة عندما تدعو، في الوقت ذاته، للقضاء على فتح - الإنتفاضة.

والوضع داخل فتح - الإنتفاضة، يحتاج الى كلمة حق تقال. لقد شكلت الإنتفاضة حالة نوعية في داخل الساحة الفلسطينية إذ جعلت الفعل الثوري بديلا للسياسة المناورة، ورفعت لواء الكفاح المسلح ومارسته فعلا في حين كان الآخرون يتسابقون على تسويات لن تخدم أحدا سوى الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة. وواجهت فتح - الإنتفاضة، بجسارة، القوات الأمريكية والإسرائيلية والكتائبية. لقد ساهمت في تغيير ميزان القوى في المنطقة، في حين كان الآخرون يزايدون بالعبارات الغوغائية الجوفاء، ويسرعون، في الوقت ذاته، ليلتقوا مع المشروع الأميركي.

ولكن الإنتفاضة أخذت تجنح إلى الخوض في هذا المستنقع الآسن. هنالك بوادر أولية يجب تلافيها منذ البداية؛ تلافيها بحزم، لأن النتيجة سوف تكون ليس مجرد انتهاء فتح - الإنتفاضة، بل تغييب القضية الفلسطينية لعقود طويلة من الزمن. هنالك أمراض كانت تتفشى في الساحة، اعتقدنا أن الانتفاضة سوف ترتفع عنها، غير أننا نجدها تطل برأسها كأنها تقول لنا : سأظل دائما مع الفلسطيني ، سأجعله مثل سيزيف يجاهد ويضحّي بكل شئ من أجل دفع الصخرة إلى قمة الجبل، ولكن قبل أن يصل إلى غايته، قبل أن تصل إلى غايتها بخطوة تعود الصخرة هاوية إلى السفح، ليبدأ الفلسطيني دائما من نقطة البدء متجهاً إلى العبث واللاجدوى.

على رأس هذه الأمراض، اليقين القاطع الذي يتلبس القادة بأنهم صوت القدر، وأنهم وحدهم محقون، وكل من غيرهم على ضلال. إن عبقرية كشكسبير كشفت التركيب النفسي لمثل هذه الشخصية، والنتائج التي يقود إليها هذا التكوين. لقد كان «لير» يعتقد أنه يملك الحقيقة التي لا حقيقة غيرها. وكانت النتيجة دماراً شاملاً أصاب كل الأنقياء والشرفاء حوله، ولم يبق في الساحة إلا الأوغاد، أما لير فمات متسولاً.

كان لينين صوت التاريخ، ولكن غالبية مواقفه كان يتم - وهو في السلطة وبموافقته - الاعتراض عليها.

إذا لم نتعلم من هذه الأمثلة الناصعة، فالهلاك مصيرنا.

مجلة « الثورة الفلسطينية » ١٩ حزيران ١٩٨٤

القسم الخامس

الإنتفاضــة

الفصل الثاني والعشرون

مأزق الإنتفاضة ... مأزقنا

مأزق *الإنتفاضة، ومأزقنا، أننا عاجزون عن فهمها، عن تصور أسباب قيامها واستمرارها. إنها لا تملك جهازاً إعلامياً ذا كفاءة يعبر عنها. ونحن نحكم عليها من خلال ظروفنا.

جاءت الإنتفاضةخارج سياق زماننا، وبعيداً عن توقعنا؛ فجاهد الخارج - الفلسطيني والعربي - لأن يجعلها جزءاً منه، وامتداداً له. وكأن العجز والإنهيار وتسليم المقدرات إلى النوايا الطيبة لأمريكا و «إسرائيل» قادر على أن يخلق ثورة ضد العجز والإنهيار والإستسلام.

وبكلمة مختصرة تبدو الإنتفاضة، وكأنها حدث غير مفهوم في نجم بعيد، نتابع أخبارها فنزداد اغتراباً عنها. نشاهد، في التلفزيون، شباناً ملثمين يرفعون أيديهم بشارة النصر، يركضون إلى الأمام وإلى الخلف، يلقون حجارة، ثم يزوغون، ونساء بملابس فلسطينية تقليدية، وأخريات بملابس حديثة، يهزجن،يمسكن بالجنود أو يصرخن في وجوههم محاولات تخليص المعتقلين من بين أيديهم. أما الجنود «الإسرائيليون» فإن الكاميرا قريبة منهم، فنستطيع أن نرى ملامحهم بوضوح. نراهم وهم يركضون، ثم يتوقفون فجأة، ينحنون ويصوبون بنادقهم التي تحمل القنابل الغازية ثم يطلقونها. الكاميرا لا ترينا الهدف الذي يطلقون عليه. فيبدو الجنود بحركاتهم الغريبة وتربصهم وإطلاقهم القنابل، كأنهم يمثلون فيلماً هزلياً.

كان ذلك يتم في صمت، فيضفي على المشهد جواً غريباً، فانتازيا. نسمع ونقرأ التعليقات السياسية، فنندهش من انتساب تلك المشاهد إلى تلك الأفكار السياسية.

* مقدمة كتاب عبدالهادي النشاش « الانتفاضة الفلسطينية الكبرى »

وجاء الشعراء وكتّاب الوجدانيات ليضفوا على المشهد طابعاً ميتافيزيقياً. زادوا في بلبلتنا بدون أن يزيدونا علماً بالإنتفاضة. وضعوها في إطار المطلق واللامعقول، جاعلين منها صنماً مقدساً، ومن الحجر مقولة مطلقة.

وسائل الإعلام والكتابة تعطينا معلومات بدون أن ترسم لنا صورة مفهومة. ثم جاء السياسيون. عند هؤلاء السياسيين، تتجمد الإنفعالات وتغدو مقولات رصينة مفهومة، ولكن الأيام برهنت أنهم لا يعرفون أكثر مما يعرف متابع التلفزيون. قالوا إن الإنتفاضة قد بدأت بمناسبة ذكرى انطلاقة إحدى الفصائل الفلسطينية، وبمناسبة انعقاد الدورة الثامنة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني. وتبين أنهم لم يكونوا يعرفون المعلومات الأولية عن سبب قيام الإنتفاضة، وهي مقتل أربعة شبان عرب على أيدي المستوطنين الصهاينة.

وقال السياسيون إن الإنتفاضة سوف تستمر أسبوعين، أو ربما شهراً، ولكنها تدخل شهرها الرابع عشر باطمئنان وثقة. وأعلن بسام أبو شريف أنه سيوقف الإنتفاضة إذا خفف «الإسرائيليون» من تعنتهم.

وتستمر الأمثلة إلى ما لا نهاية. وكلها تشير إلى العجز عن فهم ما يدور في الأراضي المحتلة، وإلى محاولة ادعاء ملكيتها. والغريب أن هنالك إجماعاً على مفارقة مستحيلة: أن الإنتفاضة، وهي ممارسة صدامية، قد قامت واستمرت لتتيح للمتخاذلين والمستسلمين، مزيداً من التخاذل والإستسلام. إنهم يدّعون أن الإنتفاضة سوف تنتهي عندما يصل المستسلمون إلى أهدافهم الإستسلامية.

أما الإستجابة العربية للإنتفاضة فهي أكثر تعقيداً. فتحت ستار النصح لها، والجو الدولي المتسم بالإنفراج، والإنسجام العربي، تريد غالبية الأنظمة العربية من الإنتفاضة أن تتوقف، أو أن تحدد هويتها بانتسابها إلى أحد الأنظمة العربية أو إلى القيادة الفلسطينية المنحرفة. إن موقف هذه الأنظمة يشبه موقفها من الغزو «الإسرائيلي» للبنان عام ١٩٨٢. إنها لا تريد لحرب الشعب أن تنتصر، حتى لا يكون ذلك مثالاً لشعوبها تحتذيه، فتزيحها عن السلطة.

أذكر أننا غادرنا بيروت بعد الحصار،على ظهر السفن اليونانية.كنت على ظهر واحدة من السفن المتجهة إلى عدن.وعندما أصبحت السفينة قرب ميناء جدة، تبين أن ما لدينا من الماء والطعام لا يكفي لأكثر من يوم واحد.كان ما يزال أمامنا سفر خمسة أيام على الأقل.

اتصل قبطان السفينة بميناء جدة، وطلب شراء كميات طعام وماء تكفي ٥٢٧ راكباً. توقع قبطان السفينة رداً سريعاً ومرحباً. فهؤلاء المقاتلون الخمسمائة والسبعة والثلاثون مضى

عليهم ثلاثة شهور وهم يقاتلون داخل بيروت في ظروف بالغة الصعوبة. فقد قام الغزاة وحلفاؤهم الكتائبيون بقطع الماء والكهرباء وإمدادات الطعام عنهم. فعاشوا ظروفاً مفجعة. ولكن الرد من حاكم جدة أدهش القبطان، قال حاكم جدة إنه لن يزودنا بقطرة ماء واحدة.

ماذا كان يعني ذلك؟

كان المقاتلون مرهقين، وهم بحاجة حقيقية إلى الغذاء والراحة.وكان انقطاع الماء فاجعاً لأن درجة الحرارة كانت أربعة وأربعين مئوية. لهذا كان اعتذار حاكم جدة عن تزويدنا بالماء، يعني الموت للمقاتلين.

قام القبطان بالإتصال مع رئيس الوزراء اليوناني، الذي اتصل بدوره مع الإدارة الأمريكية. بعد ساعات قليلة، رأينا إحدى سفن الأسطول السادس الأمريكي تقترب وتتصل بسفينتنا، وتقول إن ما قام به حاكم جدة، منافٍ لقوانين أعالي البحار، وإن الأسطول الأمريكي على استعداد لتزويدنا بالماء والطعام بدون مقابل. رفض المقاتلون العرض الأمريكي بالطبع.

المفارقة التي تستحق التأمل، أنه قبل شهور قليلة من هذا التاريخ، اصطدم زورق «إسرائيلي» بالشاطئ السعودي، وتبدّى الكرم العربي واضحاً عندما تم تزويد الزورق بالماء والطعام، وعندما تم السماح للفنيين «الإسرائيليين» بإجراء بعض الإصلاحات، وسحب القارب إلى ميناء إيلات. وهكذا نسي حاكم جدة قوانين أعالي البحار حين تعلقت بالمقاتلين الفلسطينيين. ولكنه تذكرها جيداً عندما تعلقت المسألة بالزورق «الإسرائيلي».

ما الذي دعا حاكم جدة إلى اتخاذ هذا الموقف؟

كانت معركة بيروت تشير إلى مغزى خطير. وهو أن بضعة آلاف من المقاتلين الذين يخوضون حرباً شعبية، استطاعوا أن يوقفوا مائة وخمسين ألف جندي إسرائيلي مدججين بأحدث الأسلحة، مسنودين بقوة جوية وبحرية هائلة، أمام أبواب بيروت لفترة تقارب ثلاثة شهور. وفي اعتقادي أنه لولا تخاذل القيادة اليمينية؛ ولو أنها قامت بتعميم مثال بيروت على كل المناطق التي اجتاحها «الإسرائيليون»، لانهزم «الإسرائيليون».

وكان هذا مثالاً خطيراً لكل الشعوب العربية، أن تستطيع قوى الشعب المسلح أن تهزم أحدث الجيوش وأكثرها كفاءة. لهذا السبب ترك حاكم جدة المقاتلين الفلسطينيين ليموتوا على سفينتهم المتجهة إلى عدن.

الإنتفاضة الفلسطينية مثال آخر يجب تغريبه عن وجدان الإنسان العربي، وإلغاء دلالته

العملية بالنسبة للشعوب العربية. وسائل الإعلام وشعر المناسبات والوجدانيات الغثة ساهمت في تغريب الإنتفاضة وإبعادها عن وجداننا.

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا؛ من كونه قد جعل الانتفاضة مسألة مفهومة، أي أنه وضعها في سياقها على الصعد المحلية والعربية والعالمية.

يحدد المؤلف أن «الإنتفاضة المجيدة لم تأت معزولة عن السياق العام لنضال الشعب الفلسطيني على مدى عشرات السنوات...» وهي أيضاً نتاج «ظروف ذاتية». إن أهمية هذا التحديد هو أنه يشكل رداً على أولئك الذي يعتبرون الإنتفاضة امتداداً - مجرد امتداد - لأوامر ومناورات الخارج، إلى حد جعل بسام أبو شريف يعلن أنه قادر على إنهاء الإنتفاضة، لو أراد.

إن تحديد هذه المسألة كنقطة انطلاق، ضرورة هامة، سواء أفي المنهج أو في الدلالة السياسية. بالنسبة للمنهج ينكشف ذلك الفهم التآمري البوليسي الذي يفسر الحركات التاريخية باعتبارها تآمرا وتدبيراً خارجياً. لقد توقفت هذه الاتهامات عند مقولات ثابتة لا تحيد عنها. فمنذ زمن بعيد كان الكاثوليك يقولون إن البروتستنتية هي مؤامرة حاكها المسلمون واليهود ضد الكنيسة.كما كان البروتستنت يقولون الشيء ذاته عن الكنيسة الكاثوليكية.

خلال الأشهر الفائتة، كانت جريدة «الشرق الأوسط» مسرحاً لحوار مذهل، يدور حول: هل كان طه حسين ماسونياً؟ وقد بُني اتهام طه حسين بالماسونية من خلال هذا المنهج التآمري ذاته. فالثورة الفرنسية كانت نتاج مؤامرة ماسونية. وشعارات الثورة الفرنسية هي: الحرية والمساواة والإخاء. وقد أثبت الكاتب الذي قام بتوجيه الإتهام أن طه حسين كان يؤمن بالحرية والمساواة والإخاء؛ لهذا فهو ماسوني!!

وهذا المنهج هو منهج القيادة اليمينية الفلسطينية المنحرفة. والمنهج ليس منفصلاً عن بنيته الأيديولوجية التي يقدمها، بل إن المنهج يكاد يكون هو جوهر الأيديولوجية.

إن منهج القيادة اليمينية يكشف الكثير من نوايا هذه القيادة، ويكشف كذلك عن أيديولوجيتها. يكشف أولاً فهمها للتاريخ وللحركات الإجتماعية؛ فحسب هذا المنهج تصبح التحركات التاريخية الكبرى من صنع أفراد، يصدرون أوامرهم فتحدث التحولات الكبرى. إن مئات الألوف التي تشارك في صنع الأحداث لا وزن لها، إنها مجرد تتالٍ ميكانيكي للمحرك الأول.

هذا المنهج هو المنهج اللاهوتي نفسه الذي يرى أن الله هو العلة الأولى، وأن كل ما يحدث هو توالي العلل والمعلولات التي تعود إلى العلة الأولى. من هنا نستطيع أن نفهم، بشكل أجود، قصيدة محمود درويش «مديح الظل العالي» حين يسبغ على عرفات صفات الله، فهو–أي عرفات– يستطيع أن يوقف الإنتفاضة إذا شاء. فالجماهير المنتفضة هي، بالنسبة لبسام أبو شريف، مجرد أدوات لا رأي لها ولا موقف، ولا ذات لها ولا إرادة. يأمرها عرفات أن تنتفض فتطيع، ثم يأمرها بالسكوت فتسكت.

يشير هذا المنهج، ثانياً، إلى العجز العقلي والروحي الذي تتسم به القيادة اليمينية. فهذا المنهج هو منهج الطبقات المهزومة، التي تكرر نفسها بلا نهاية، ولا تتعلم أن أساليبها ومفاهيمها لن تؤدي إلا إلى هزيمتها.

القيادة اليمينية كررت نفسها –باستعمال الجماهير كوسيلة لا حول لها ولا إرادة - في الأردن ولبنان ، وهي الآن تكرر نفسها حين أصبحت قيادة لا أرض لها سوى الطائرة تنتقل بها بين عواصم العالم. والقيادة التي لم تحترم ولم تتحالف مع الشعب الأردني واللبناني لا يمكن لها أن تحترم شعبها.

إن هذه الحركة النملية - نسبة إلى النمل - تعبر عن جمود العقل وعن الدوران في حلقة مفرغة.

ما هي دلالة هذا المنهج على الصعيد السياسي؟

يقول شامير:

«لن يستطيع أحد إرغام «إسرائيل» على التفاوض مع منظمة التحرير تحت ضغط العنف، ثم إن اتفاقيات كامب ديفيد هي الطريق الوحيد للتوصل إلى السلام...».

ويعلق المؤلف على ذلك:

«وكنتيجة منطقية لهذه «الرؤية»، فإنه يصبح المطلوب عندها تقديم كل التنازلات التي من شأنها دفع المواقف إلى مستوى من التطابق أو الإتفاق المشترك على أقل تقدير. ومن هنا جاءت جملة السياسات اللاحقة المساومة في طابعها العام: حكومة المنفى، الموافقة على قرار مجلس الأمن الدولي (٢٤٢)، وثيقة بسام أبو شريف (الإعتراف بالعدو)، وثيقة الإستقلال، ... وغيرها».

ويتحدث المؤلف عن حكومة المنفى، فيقول:

«إنها طرحت فكرتها في السابق ، غير أن إعادة بحثها في ظل الإنتفاضة يحمل في طياته بعداً جديداً. إنها الآن باختصار أداة مفاوضات»

.ويضيف:

«جرى طرح «حكومة المنفى» في الماضي لأسباب عديدة، وفي خدمة أهداف سياسية محددة.فقد طرحت عشية انعقاد «المؤتمر الدولي» بعد حرب تشرين عام ١٩٧٣ بغية تأهيل منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة كطرف في المفاوضات ...».

بهذا تحدد هذا المنهج على الصعيد السياسي: التفاوض بدلاً من الكفاح المسلح.

لماذا، إذاء إصرار القيادة اليمينية على التفاوض كأسلوب رغم عدم منطقية ذلك؟

إنه ذلك المنهج نفسه الذي يرى التاريخ تآمراً بين مجموعة محدودة من الأشخاص، يحددون الخطوط العامة لحركة التاريخ، فيطبع التاريخ والواقع.

كيف يرى الكاتب الإنتفاضة؟

يؤكد المؤلف:

« أن أي متتبع لتطورات العملية النضالية داخل فلسطين المحتلة يدرك بجلاء أن الإنتفاضة الراهنة قد جاءت لتمثل حلقة هامة ضمن سلسلة من النشاطات التي تعود إلى سنوات عديدة خلت...».

فلقد تصاعدت العمليات الفدائية بعد غزو لبنان حتى بلغت (٥٦٩) عملية في عام ٨٥/٨٦. كما حدثت عمليات عسكرية نوعية مثل عمليتي حائط المبكى عام ١٩٨٦ وعملية قبية. ويتحدث المؤلف عن عملية قبية:

«فقد أشاعت نهوضاً وطنياً عارماً في أوساط الشعب الفلسطيني داخل الوطن المحتل، وأسهمت في تعزيز ثقة الجماهير الفلسطينية بمنظماتها الوطنية، الأمر الذي انعكس إيجابياً على تطور الإنتفاضة لاحقاً».

ويضيف المؤلف:

«أن هذا التأكيد ضروري «لأن ثمة من يحاول توصيف الإنتفاضة على أنها حدث نوعي أملته ظروف موضوعية لا تتكرر، وبالتالي فإن الحكمة تفرض «استثمارا» سريعاً لها ...».

كما يرى المؤلف:

«أن إرتفاع مستوى احتدام الصراع يرتبط اليوم، مثلما سيرتبط في المستقبل، بدرجة نضج الشرط الذاتي عند أبناء الشعب الفلسطيني...».

أوردنا هذه الاقتباسات الطويلة لتأكيد أن هنالك رؤية أخرى، منهجاً آخر في فهم الإنتفاضة. إن هزيمة عام ١٩٨٢ أمام الغزو الإسرائيلي، هي هزيمة القيادة اليمينية المنحرفة، لأنها لم تُعدّ نفسها، في كل مناطق الغزو، لمواجهة العدو. وإنها، رغم صمود بيروت،قد انصرفت إلى التعلق بالأوهام التي زرعها فيليب حبيب،وجعلت كل همها الإنسحاب «المشرّف».إن الوضع في بيروت كان يستدعي مواجهة أقوى، وأطول زمناً،ولكن القيادة اليمينية استعجلت الأمور حتى لا يسطع مثال الحرب الشعبية، كما سبق وقلنا.

إن الزخم الذي تولّد من الكفاح المسلح استمر رغم الخروج من لبنان، ورغم الأوهام التي زرعها عرفات حول اقتراب الحل، ورغم سعي عرفات لإبعاد القوات الفلسطينية عن المناطق المجاورة لـ «إسرائيل»، ورغم الحرب التي شنها ضد القوات التي رفضت الانسحاب. وبكلمة أخرى، إنه في الوقت الذي تخلت فيه طبقات كاملة عن الكفاح المسلح فإن طبقات أخرى واصلت النضال بكثافة أشد مما كان عليه الحال قبل الغزو «الإسرائيلي». فمن المعروف أنه قبل الغزو «الإسرائيلي» كانت منظمة التحرير قد التزمت باتفاق لوقف كل العمليات العسكرية ضد «إسرائيل».

من هذا المنطلق تصبح الإنتفاضة الفلسطينية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بكفاح الشعب الفلسطيني، ذلك الكفاح الذي تحدى سياسة اليمين التي قبلت الهزيمة، وحمل السلاح دفاعاً عن الانتفاضة.

وفي هذا الوقت، هنالك العنصر الذاتي في الإنتفاضة. وليس هذا مجال التفصيل في ذلك. يكفي أن نذكر التفرقة العنصرية، وتغيير الهياكل الإنتاجية، حيث تحول آلاف الفلاحين وأصحاب الحرف اليدوية إلى عمال، وحيث أفلست أو أصبحت على شفا الإفلاس عشرات المصانع الصغيرة والشركات الخاصة. ثم التفرقة في الأجور بين العمال العرب «والإسرائيليين»، وانتزاع مناطق واسعة من الأرض العربية لإقامة مستوطنات «إسرائيلية» أو تحويل تلك الأرض إلى مناطق عسكرية.

باختصار، فإن تحويل الطاقات العربية داخل الأرض المحتلة إلى أيد عاملة رخيصة، وتدمير البنى الإجتماعية العربية، قد أثار كل طبقات المجتمع ضد الإحتلال «الإسرائيلي». يضاف إلى هذا وجود الإحتلال ذاته؛ كل ذلك قد ولد من اليأس والإحباط، ما جعل

الاستمرار في قبول ظروف كهذه مستحيلاً .

ولكن اليأس والإحباط والقمع لا يخلق ثورة. إن هذه عوامل محرضة ولكنها لا تولّد فعلاً جماهيرياً ضخماً ومستمراً كما هو شأن الإنتفاضة. فكيف نفسر قيامها إذاً؟

هنا تأتي أهمية هذا المنهج ، الذي يؤكد على تفاعل العنصر الذاتي والعنصر الموضوعي. إن تكثيف النضال العسكري الفلسطيني والقيام بعمليات نوعية داخل الأرض المحتلة قد ولّد شعوراً بأن هذا الإحباط ليس قدراً، بل يمكن تجاوزه بالفعل.

ويمكننا، حسب هذا المنهج، أن نفسر مختلف التفاعلات التي ساهمت في قيام الإنتفاضة.

المنظمات الفلسطينية المؤيدة لخط الإستسلام حاولت إجهاض الانتفاضة بأسلوبين:

الأول : القول بأن الإنتفاضة مؤقتة وسوف تنتهي خلال إسبوعين. قالوا ذلك بثقة العارف ببواطن الأمور؛

الثاني : القول بأن هذه الإنتفاضة من فعلهم وبأنهم يستطيعون إيقافها متى شاؤوا.

ولكن الإنتفاضة استمرت. وتبين أنها قادرة على إصدار الأوامر للذين ادعوا أنهم وراءها. إن تنظيمات الداخل المرتبطة بالتنظيمات الخارجية المهادنة، قد اتخذت مواقف حادة ضد القيادة الفلسطينية اليمينية، مما جعل بعضها يصدر بيانات ضد هذه القيادة، متخلياً عن موقف التأييد أو الصمت تجاهها.

أصبحنا نشهد مفارقة مدهشة؛ تنظيمات الخارج تتخذ مواقف مهادنة،«وفروعها» في الداخل تتخذ مواقف متشددة. وبعد فترة صمت، تأخذ منظمات الخارج في تغيير مواقفها لتصبح اكثر تشدداً. إن الحماس العام للإنتفاضة قد وضعها في إطار الإحترام وشبه التقديس، وأصبحت توجهاتها شبه أوامر لمنظمات الخارج.

أما القيادة اليمينية فقد كان لها منهج آخر، وهو أسلوبها المعروف باستعمال المال للإفساد والتشويه. وضعت مكافأة لكل من يحمل صورة عرفات في المواجهات والمظاهرات، وحاولت شق الصفوف، والإدعاء بأن الانتفاضة هي جناحها الضارب. كل هذا اضطرها لأن تصبح طرفاً في الإنتفاضة.

ومن المعروف أن المنظمات المعارضة لنهج الإنحراف، وأيدت الانتفاضة واعترفت لها بحقها في التمايز وساهمت في استمرارها؛ لم تدّعِ أن الانتفاضة من صنعها، وهي التي ساهمت فيها منذ قيامها.

هنالك، بالطبع، بعض الفجوات، في المعلومات عن الانتفاضة، التي نملؤها بمنهج يربط بين الخاص والعام، وبين الذاتي والموضوعي. فنحن، أو أنا على الأقل، لا نعرف كيف ولد تغيير الهياكل الاجتماعية، المؤسسات أو الأشكال التنظيمية التي تعبر عنه. كما أنني لا أعرف كيف تتكون العلاقات بين مختلف القوى في الداخل. كل ذلك متروك لمؤرخي وعلماء اجتماع الداخل، إن وجدوا. ولكننا نستطيع أن نحدد الخطوط العامة. لا شك أن دراسة جادة لظروف الداخل سوف تثري هذا المنهج. وقد تدخل بعض التعديلات عليه. ولكن لا شك أن منهجاً كهذا هو القادر أن يكون مفتاحاً للإنتفاضة، وإزالة صفة التغريب عنها.

ما هي الأهمية العلمية لتحديد هذين المنهجين في تفسير الإنتفاضة، وفي التزام أحدهما؟

عندما نحدد المنهج الذي نلتزمه، فنحن نحدد مواقف عملية أيضاً. المنهج اليميني يرى الإنتفاضة كتلة منسجمة، تنطلق من معطياته؛ أي باعتبارها وسيلة للضغط على حكام «إسرائيل» لقبول التفاوض مع القيادة اليمينية، مع «دولة المنفى». لماذا الإصرار على مفهوم الإنسجام وإلغاء الجدل في ظاهرة إجتماعية معقدة؟

إن القيادة اليمينية تتبع سياسة تمزيق أية مجموعة سياسية أو فعل سياسي جذري، وتاريخها يشهد على ذلك. تريد التمزيق لتسيطر، وهي السياسة المعروفة: فرِّق تسد. إذن الإنسجام المطلوب هو إنسجام جزئيات غير مترابطة، خاضعة لمركز توجيه موحد.

إننا أمام المنهج الفاشي الذي سبق لنا ذكره. الزعيم الفاعل والجماهير المنفعلة. إننا هنا أمام الفلسفة الجبرية الإسلامية. لا يُسأل الحاكم عمَّا يفعل، لأن ذلك متروك ليوم الآخرة. ظلم الحاكم الجائر قد يكون عقاباً إلهياً، فالإعتراض عليه هو اعتراض على أمر إلهي. والله يفعل ما يشاء. فهو يستطيع أن يؤيد الأبرار في النار، ويدخل الأشرار إلى الجنة. إن الإمام يحيى بن الحسين هو الذي كشف الخلفية الإجتماعية لرؤية المجبِّرة للرب. قال: إن الهدف وراء هذه الصورة للرب هو تبرير جور الحاكم الظالم. ودعا إلى مقاومة الحاكم الظالم بكل الوسائل.

إذاً، فمنهج اليمين الفلسطيني هو تقديس الزعيم، وإضفاء صفات الألوهية عليه – كما فعل محمود درويش – ومن ثم تبرير خيانته. لذلك يقال لنا دوما،حتى من حلفاء عرفات اليساريين، لنرجئ الحكم على عرفات، فقد يكون مصيباً، وقد يكون مخطئاً، وهو مأجور في الحالتين. إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد. وهكذا يكرر التاريخ نفسه على شكل مهزلة، ونعني بذلك التحالف بين المجبِّرة والمرجئة؛ هذا التحالف الذي يتجسد

في الجبهة الموحدة بين الجبهة الشعبية وعرفات.

إن مفهوم الإرجاء الفلسطيني الذي تتبناه الجبهة الشعبية هو مفهوم خطير. إن هذا المفهوم يلغي جدية القول إن هنالك إستراتيجية لهذا التنظيم. فأية فاعلية حقيقية لتنظيم سياسي يقول ليس لنا القدرة على الحكم على مواقف مصيرية تحدد مصير الوطن وقضيته، وقد تلغي الوطن والقضية، أو يتخذ – هذا التنظيم – موقف الجماهير المنفعلة؛ نحن نطيع الأوامر ولا نناقش.

إن هذا يقودنا إلى سؤال خطير: هل يختلف موقف الإرجاء، من ناحية فعلية، عن موقف اليمين؟ إن الإرجاء جزء عضوي من موقف اليمين، إذ أن موقفه لا يكتمل إلا بتبني الآخرين لموقف الإرجاء. إن تعليق الحكم على مواقف السلطة يعني الخضوع لها.

نأتي الآن إلى وجهة النظر الأخرى التي ترى في الإنتفاضة ظاهرة متنوعة، ترتبط بعلاقات جدلية. إنها لا ترى في الإنتفاضة كتلة موحدة تضم أطرافاً متماثلة، بل تراها كعناصر متمايزة، يجمعها إطار، حيث يبحث المشاركون عن الأسس المشتركة بينهم. هنا يصبح الإنسان فاعلاً ومنفعلاً.

هذا المنهج يرى قيام واستمرار ظاهرة ما في علاقاتها الداخلية، وفي علاقاتها بالظواهر الأخرى. وعندما نطبق هذه الرؤية على الانتفاضة، فإنها لا يمكن أن تكون مقودة من الخارج، ولكنها في الوقت ذاته غير منفصلة عنه.

تحدثنا عن رؤية اليمين، وقلنا إن ما يحكمها هو رؤية جبرية للواقع، أما بالنسبة لهذه الرؤية المضادة فإن جوهرها هو حرية الإختيار. إن التقاء الإرادات الحرة هو جوهر العلاقة بين الداخل والخارج. ولهذا لا يمكننا أن نتحدث عن الزعيم الفاعل،ولا عن الانتفاضة المنفعلة. وهذه الرؤية تدرك الآن أن مركز الثقل قد انتقل للانتفاضة، لأن فعلها أكثر كثافة وتأثيراً.

إن ذلك لا يعني الإستغراق في الرثاء للذات وفي إهانة الذات، إن للخارج دوره الذي ازداد أهمية وفاعلية بسبب الإنتفاضة. وهكذا فإن المنهجين لا يشكلان،فقط، موقفين سياسيين مختلفين، بل يعبران عن رؤيتين متباينتين للعالم وللإنسان.

كيف يتم التفاعل، حسب هذين المنهجين، بين الثورة الفلسطينية والعالم الخارجي؟

إن اليميني المخلص لفكره يرى في الوضع الدولي تسلسلاً هرمياً للسلطة؛ تصدر الدولة الأكبر أوامرها للدولة الأصغر فتطيع. وفي هذا المجال، يجب العمل على جعل أمريكا

تصدر أوامرها للكيان الصهيوني بالانسحاب. إذا فعلت ذلك فإن كل شيء سوف يتم حسب المرجو، تنسحب «إسرائيل» من الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وتسمح للفلسطينيين أن يقيموا دولتهم المستقلة. هذا الفهم للعلاقات بين الدول امتداد لفهم القيادة اليمينية للعلاقات داخل منظمة التحرير، ولعلاقة هذه القيادة بالانتفاضة؛ مركز فاعل وتسلسل هرمي منفعل. هذا الفهم نفسه ينسحب على المؤتمر الدولي؛ الكبار يأمرون والصغار ينفذون.

وهكذا قامت القيادة اليمينية، إنطلاقاً من هذا الفهم، بمحاولة جادة لإلغاء كل ما هو ثانوي في رأيها، من مثل سحب القوات الفلسطينية من ساحة المواجهة مع العدو، التنازل عن الأرض مقابل سلام وهمي، إلغاء منظمة التحرير واستبدالها بدولة المنفى، الإعتراف بالعدو الخ... ينطلق منهج كهذا من الإحساس العميق باحتقار الشعب والإعتقاد بأن الإرادة الحرة للجماهير شيء لا وجود له، وأن حركة التاريخ هي من صنع أناس متميزين.

لن نطيل، لأن هذا الكتاب يسجل كل ما قلناه بتفصيل ودراية، والمقدمات الطويلة لا تصلح ،مهما طالت ، أن تكون عوضاً عن الكتاب الذي تقدمه.

الفصل الثالث والعشرون

الإنتفاضة والثقافة السائدة

في ندوة * أقامتها مجلة «النهج» وشاركتُ فيها، قال الدكتور ماهر الشريف، العضو البارز في الحزب الشيوعي الفلسطيني وعضو مجلس تحرير مجلة «النهج»، إن على العرب ألا يفكروا أبداً في محاربة إسرائيل لأنها تملك قنابل ذرية وصواريخ الخ...

وسط هذا التردي جاءت الانتفاضة لتربك الجميع، إذ أن الجميع قد أعدوا أنفسهم، ليصبحوا جزءاً من سياق هذا العصر العربي المتردي . الكتابة أصبحت منسجمة مع هذا العصر. كتّاب المسلسلات يكتبون وعيونهم على أجهزة الرقابة العربية. يجب أن ترضى السلطات العربية كلها عن كل ما يكتب. هناك من يتشدقون باليسارية، في مصر، وهم مجرد أبواق لعرفات، ويحللون الوضع في مصر على أساس أن مؤسسة الرئاسة هنالك وطنية، ولكن الحكومة المصرية غير وطنية. نفس التحليل الذي سمعته من لطفي الخولي عن السادات... السادات وطني ولكن حكومته ليست وطنية .

والوضع الفلسطيني وصل الآن إلى أقصى حالات السوء؛ فقد تم الإعتراف بإسرائيل من قبل م.ت.ف.من طرف واحد،وبقراري ٢٤٢و ٣٣٨، وأعلنت المنظمة أنها ضد الكفاح المسلح، وأصبح كل شيء معتمداً على حسن نوايا الكيان الصهيوني وأمريكا. وصلت الأمور إلى حد مطالبة م.ت.ف.بالغاء قرار هيئة الأمم الذي ينص على أن إسرائيل دولة عنصرية.

كما جاءت الانتفاضة ضد تخطيط مسبق وضعه عرفات يهدف إلى ترتيب الأمور بحيث لا يكون هنالك مركز فلسطيني غيره، لذا سعى إلى تفريغ الداخل. كانت سياسة عرفات

* دراسة ضمن أعمال ندوة مركز الدراسات الفلسطينية «الذكرى السنوية الأولى للانتفاضة ١٣-١٢-١٩٨٨»

تهميش الجميع، حتى يصبح هو القوة الوحيدة. حين قامت الجبهة الوطنية في داخل الأرض المحتلة، قام عرفات بتفكيكها بالتعاون مع إسرائيل، وكل تحرك في الداخل كان يقمعه.

وهنالك واقعة ذات دلالة، فلقد أصدر شولتز بياناً وصف فيه عرفات بأنه إرهابي. فأصدرت وزارة الخارجية الأميركية بياناً قالت فيه إن عرفات ليس مع الإرهاب، وأنه قد تعاون في عمليات عديدة مع أمريكا لكشف الإرهابيين والقضاء عليهم، واعتبرت الصحف الأوروبية أن الموقف غريب، حيث تقوم أجهزة الوزارة بالرد على الوزير.

هنالك سمة لجميع الأنظمة العربية، الرجعي منها والتقدمي، أنها لا تريد لحركة أو نظام أن يكون على يسارها. حدث هذا عندما قامت ثورة في السودان ضد عبود، وكذلك في اليمن الجنوبي، لقد وقف عبد الناصر ضد الثورتين.

عندما قامت الإنتفاضة في داخل الأرض المحتلة توالت تصريحات عرفات ومن حوله، بأن الإنتفاضة محدودة وستنتهي بعد أيام معدودة. ثم أخذوا يدّعون بأنهم سيوقفون الإنتفاضة، إذا وافقت إسرائيل على المؤتمر الدولي. كما صرح جورج حبش بأنه خائف على الإنتفاضة من التطرف. وطالب أن تقتصر أهدافها على مطالب صغيرة للغاية.

إن المثقف العربي، وقد دخل في خضم الأنظمة، لم يكن على استعداد لقبول تحرك ثوري في المنطقة. ليست الحياة المريحة وحدها هي التي تدفعه للدخول في هذا الخضم، بل العنف الذي سيوجّه ضده إن حاول أن يكون مثقفاً فاعلاً.

في مقدمتي لديوان عبد الرحمن الابنودي «الموت على الإسفلت» قلت:

تبين، الآن، أن إغتيال ناجي العلي كان نتيجة لعملية مشتركة بين جهاز المخابرات الإسرائيلية وقوة الـ(١٧)، وهي عملية غامضة زادتها البيانات البريطانية والفلسطينية والإسرائيلية غموضاً. ولكن ما يهمنا في هذه المسألة هو تلك الجبهة القائمة، ابتداء من البيت الأبيض، ومروراً بتل أبيب، وانتهاء بقصور م.ت.ف. في تونس وباريس وقبرص، ضد المثقف الفاعل. وإذا أضفنا إلى ذلك تلك العدوانية الحاقدة للسيف، والذهب أيضاً، نستطيع أن نكتشف سعة وجبروت القوى التي تسعى لإلغاء دور المثقف.

لا يمكن لجبهة كهذه أن تتشكل ضد ظاهرة قليلة الأهمية. إن أطراف هذه الجبهة يدركون أن المثقف الذي يحمل برنامجاً لتغيير العالم هو القوة الحاسمة في هذا العصر منذ أن كتب لينين مؤلفه «ما العمل؟». والمثقف الحقيقي يدرك بعمق مأساوي معنى افتقاد الدور

والفاعلية. لهذا السبب يمتلئ ناجي العلي حياة رغم موته:

سِنّ القلم من جديد وارسم بنات غزة
غزة اللي حضنت سلوكها وعشقت العزّة
ما ماتتش... طب ما انت مُت... عرفت تتوفى*؟

هذا الديوان بكائية طويلة تشكو فيه الروح الشقية، ضياعها في وسط المجتمع الاستهلاكي. إنها شكوى مثقلة بالشعور بالذنب، مشحونة بتوق جامح لاستعادة المثقف لدوره في تغيير العالم. لهذا يتوهج الفعل -الدور بحرارة تجعل الشعر مجانياً. لم يعد الكلام هو الذي يغيّر العالم، بل الحجر الحي في فلسطين، هنا نواجه قاع اليأس :

ويا موت يا مدفوع في شرياني بريح سودا
الهم... دايماً بيرحل... بس ليه عودة
ماتت جناحاتي لكن لسّه مفرودة
وياما قلت... يا كلب... تُنك صاحي وبتنبح
بّطل تعدد... فلسطين لسّه موجودة
الكلام مش مستجيب... والصمت عار.
والمسافة بعيدة بين الفعل والقول البليد
لا القصيده حا تجري على الاسفلت
ولا ترمي حجر

لقد تعود بعض الشعراء الفلسطينيين – بحكم كسل عقلي وفقر روحي- أن يلقوا مسؤولية ما يحدُث لهم الآن على العرب بدون تحديد... ولكنهم لا يسألون كيف ولماذا لو سألوا لأصبحوا في قفص الإتهام. هذا الشعر يطرح الأسئلة، سؤال الأسئلة:من المجرم؟وما هي أركان الجريمة؟وفي قصيدته «نشيد العالم العربي» يجيب عبد الرحمن الابنودي بما معناه:

العالم العربي نام بعد أن قرأ الصحيفة، وملأ سيارته بالبنزين، وحيّا الإنتفاضة. في الصباح أتم مشترياته، ومر على شركة الڤيديو، وبدّل حقيبة الأفلام. في السهرة غنى بطولات الإنتفاضة، وشرب كأساً إثر كأس، وزجاجة إثر زجاجة، في «صحة أحلا وأجدع ناس» وحلم بالنصر وتحرير فلسطين، ونام. استيقظ العالم العربي صباحاً، تناقش، حيّاً،

* المقطوعات الشعرية للشاعر عبدالرحمن الأبنودي

واستنكر، أكل وشرب، ونام...يقول :

فلو حتحس بالحاجة لخيّك يوم

حْتنادي...

تلاقيني في عز النوم

أنا... والعالم العربي

هنا تكمن الجريمة، وهنا يختفي القاتل. إنهما مختبئان في تلك الحياة الإستهلاكية، المريحة، المرتاحة الضمير، الراضية عن نفسها...حياة إنسان بلا دور، ولا يريد أن يكون له دور:

حبيبك. إنما شفوي وقلباوي

لكن لا طبيب ولا مداوي

ولا باعرف اخوض الموت...

ولا ناوي...

إنه إنسان هارب من نفسه، ومن حس المسؤولية، ذلك الذي يلقي اللوم على العرب دون تحديد، أو على الأنظمة العربية فقط، وينسى نفسه. الفلسطيني الذي يفعل ذلك وهو منساق لمعطيات المجتمع الاستهلاكي، الذي أصبح موجهاً بواسطة الآخرين، مكتفياً بهويته الفلسطينية، يتناسى أن الفلسطيني هوية نضالية، فعلاً، وليس بطاقة انتساب إلى نادي المترفين، وليس تعلقاً بأذيال اليمين وأمواله. ليس للفلسطيني خيار؛ فهو إما مقتول، أو قاتل... والعربي كذلك:

موت الفلسطيني حق. يا امه لا تسألي

والا فين حق دم صديقنا ناجي العلي

اهو ده مقتول بايدي الليل لما خلي

انا اللي قاتله بايدي... وآدي نقطة دم

يا عم سيب البلا... يونس المبتلي

هذا الشعر اتهام للكثير من الشعر الذي قيل في الإنتفاضة، والذي أصبح فيه الحجر لعبة بلاغية، تنتشي بالتكرار والسجع والمرادفات والجناس والطباق، واتسعت اللعبة لتحوي مقارنة بين فعل الحجر وفعل التكنولوجيا العسكرية المتطورة، وأصبح الشعار: الحجر يقهر التكنولوجيا، الحجر خشبة خلاصنا، ودعا شاعر للصلاة للحجر، كما كان أجدادنا

يصلّون للمطر صلاة الاستسقاء: «أعطنا شتاء من حجارة». وبعد هذا المطر من الحجارة التي تسّاقط على أرواحنا، استهلكت اللعبة نفسها ودخلت في حلقتها المفرغة. لقد انتهت التشبيهات والإستعارات والكنايات – إذ لم يغادر الشعراء من متردم – يأتي شعر عبد الرحمن الأبنودي إدانة لهذا الشعر الذي أصبح جثة هامدة، ليقول لنا إن الحجارة موجهة إلى رؤوسنا بقدر ما هي موجهة إلى الصهاينة. تأتي الحجارة لتقول لنا إن الاستمتاع بالحياة الرخية يقيم حلفاً موضوعياً بيننا وبين الصهاينة، وإن معطيات هذا الحلف تتسلل إلى نفوسنا، فيصبح وضعنا الحقيقي:

أنا الموساد... أنا الفساد.

نحن الذين قتلنا ناجي العلي مرتين... مرة بسهراتنا العامرة في «الليل لما خلي»... ومرة بصمتنا عن قاتله. أو بكلمة أصوب، حين صمتنا عن قاتليه، قتلناه حين رغبنا، وحين رهبنا.

ولو اتقتلت... أوعى تسأل: مت بإنها يد؟

كان مقتل ناجي العلي درساً لمن يحاول تجاوز معطيات العصر الاستهلاكي. لقد استنكر الجميع اغتياله، ولكن قلائل هم الذين أشاروا إلى قاتله، لأن قاتله –عرفات– هو صاحب السيف والذهب؛ هو الطريق إلى المجتمع الاستهلاكي، وهو القاتل للمتمرد.

أذكر أننا حين اجتمعنا في فرع اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين لنناقش قضية ناجي العلي جاء بعض الصحفيين من مجلة «الهدف» وأعلنوا استنكارهم للجريمة، وعندما قيل إن ناجي العلي عضو في اللجنة النقابية لاتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين «المناوئة لعرفات» رفضوا القبول بذكر ذلك في البيان الذي سيصدر. وعندما دار الحديث حول تحديد القاتل، هدد صحفيو مجلة «الهدف» بالإنسحاب. قالوا إن ناجي العلي أكبر من كل هذه المسائل. أي أن ناجي العلي أكبر من القضية التي استشهد من أجلها.

وحتى حين تكشفت ملابسات الجريمة، لم يجرؤ كتّاب التحالف العرفاتي على ذكر اسم القاتل وأسباب القتل.

في مثل هذا الجو، كيف يكون رد الفعل لقيام الانتفاضة في الداخل؟ قرأت كثيراً من الأشعار الفلسطينية التي قيلت. كنت أمام لعبة بلاغية خالية من أي انفعال أو روح: الحجر بدلاً من المطر، الحجر بدلاً من التكنولوجيا الحربية المتطورة، بدلاً من الطائرة، بدلاً من الدبابة.. نريد الحجر، يجب أن نصلي للحجر الخ... لعبة بلاغية استهلكت نفسها... إن لهذا الفقر الشعري دلالة هامة: في الداخل، في قلب هؤلاء الشعراء، رفض للانتفاضة،

لهذا نفتقد الحرارة في شعرهم.

إن تأييد الانتفاضة يعني قبول الصدام مع العدو. وهم، تحت مظلة عرفات، يجب أن يقفوا ضد الكفاح المسلح و«الإرهاب» ، ليس الحجر سلاحاً خارقاً، ولكنه دلالة على المواجهة بكل سلاح ممكن. فهل يفعل ذلك عرفات الذي سحب قواته إلى المنافي، وأعلن الإعتراف بإسرائيل وإيقاف الكفاح المسلح؟

هؤلاء المثقفون أصبحوا جزءاً عضوياً من أجهزة عرفات؛ انحازوا إليه باختيارهم طمعاً بالمال، وهكذا، فهم، وقد باعوا أنفسهم، لم يعد بإمكانهم أن يلتحموا مع حركة نضالية حقيقية. إنهم لم يعودوا يصلحون إلا كأبواق دعاية ومهرجين. إن الهالة التي يضعها هؤلاء الشعراء حول الإنتفاضة تخفي النية لعزلها.

ها هي الصيحات ترتفع الآن معلنة أنه من المستحيل أن نحارب إسرائيل لأنها تملك قنبلة ذرية. وكأن الصين وفيتنام ولاوس وكامبوديا لم تحارب أمريكا التي تملك ترسانة هائلة من الأسلحة النووية.

إن هؤلاء الشعراء والكتاب يمجدون الإنتفاضة باعتبارها الشكل الوحيد للكفاح، أي لأنها تصبح البديل للكفاح المسلح، ووسيلة لجذب إسرائيل للتفاوض. يسمي محمود درويش الإسرائيليين بهواة الفرص الضائعة. إن اسرائيل، يقول درويش، ترى فرص السلام تأتي لها ولكنها ترفضها. إنه ينبهها إلى أن هنالك نهجاً يريد التصالح معها، وآخر يريد محاربتها، وعليها أن تختار.

إن هذا الأدب الذي كتب عن الانتفاضة، أبلغ تجسيد للهزيمة وأبلغ تعبير عن الإنحطاط العقلي والروحي، عن تحول القيم الإنسانية إلى سلعة تباع وتشترى. إن وراء تشويه الإنتفاضة -بالتفخيم أو بجعلها وسيلة للمناورة السياسة -الرغبة في جرها إلى ذلك المستنقع الذي يغرق فيه هؤلاء المثقفون.

الإنتفاضة تفرض نفسها على فلسطينيي الخارج، فالذين كانوا يقولون إن الانتفاضة متطرفة، مثل جورج حبش، أصبحوا يقبلونها الآن. كثيرون يحاولون الآن جرها إلى مستنقعهم، حتى يتخلصوا من الشعور بالذنب، كما أن هنالك محاولة لشطبها كتعبير عن واقع موضوعي، ويدّعون أنها قامت حسب أوامر من عرفات، وأنها ستنتهي حين يأمر بذلك.

المثقفون لا يستطيعون ان يتخذوا موقفاً لأن المال سوف ينقطع عنهم إن اعترضوا. لقد

اعتذر محمود درويش في جريدة «الشرق الأوسط» عن قصيدة طالب فيها بخروج المعتدين من فلسطين: قال: كنت أغني، كما يغني أعضاء الليكود «للاردن ضفتان: غربية وشرقية»، وفي الوقت ذاته أطلق على عرفات صفات الله: سيد روحنا، سيد الكون... فهل يستطيع هؤلاء الذين يعتذرون للمحتلين، ويطلقون صفات الله على صاحب التمويل، أن يتخذوا موقفاً مستقلاً.

إن مأزق المثقف الفلسطيني -وكذلك العربي إلى حد كبير- هو الذي جعله يعيش حالة العنانة التي يتردى فيها.

مثل هؤلاء المثقفين لا يستطيعون التعامل مع الانتفاضة بواقعية، بسبب الانفعالات المتباينة التي تثيرها، وأبرزها فقدان الدور الفاعل، والشعور بالذنب. إن أعظم الأعمال التي كتبت عن الثورات، كتبها أناس شاركوا فيها، لذلك كتبت بواقعية وصدق. نذكر كمثال رواية همنجواي «لمن تقرع الاجراس»، التي تحدثت عن الأخطاء كما تحدثت عن البطولات. كان هناك أبطال، وكان هنالك خوف. وكذلك رواية (أندريه مالرو) «أيام الأمل».

أما التبجيل الكبير للحجر، كأن له قيمة بذاته، وكأنه هو الذي سيهزم إسرائيل، فهو يوازي الدور الآخر، دور التخلي عن الحرب مع إسرائيل، وإعتبار أن الحجر وحده يكفي....وهذا كله اعتذار عن الرجعية الفلسطينية والعربية التي لا ترغب في مواجهة إسرائيل.

الفصل الرابع والعشرون

فلسطينيو الخارج
وفلسطينيو الداخل

قيام الانتفاضة في الارض المحتلة وضع حركة الفلسطينيين في الداخل والخارج في سياق جديد، لقد سلكت القيادة اليمينية سياسة طويلة المدى تهدف الى تحجيم الداخل - فلسطين المحتلة - لإعطاء فلسطينيي الخارج، الدور الأكبر الأساسي.

هل يعود ذلك الى سوء النية؟

من السذاجة أن نفسر التاريخ بالأخلاق، رغم أنها - الأخلاق - تلعب دوراً في كل حركة ثورية.

كيف نفسر ذلك اذأ؟

إن الأهداف الشديدة العمومية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني، الأهداف البعيدة المدى المنفصلة عن اساليب الوصول اليها، واحدة. ولكن السعي لتحقيق هذه الاهداف لا يتم من منطلق واحد. ان مختلف الفئات تعمل من أجل الوصول إلى أهدافها عبر مصالحها الخاصة، وعبر المفاهيم التي شكلتها تلك المصالح خلال النضال.

من هنا تنكشف سذاجة تلك الأفكار التي ترى أن انتفاضة الأرض المحتلة هي مجرد استجابة لإعادة انتخاب عرفات رئيساً لمنظمة التحرير، وبسبب الإحتفال بذكرى انطلاقة فتح والجبهة الشعبية. وكأن فلسطينيي الداخل لا يتحركون ضمن معطيات ظرفهم الخاص، بل ينتفضون احتفاء بمناسبات رسمية. والعجيب أن هذا الفهم يتم تقديمه باعتباره رؤية ماركسية او تفسيراً ماركسيا لما يحدث داخل الأرض المحتلة.

قلنا في البداية إن انتفاضة الأرض المحتلة، قد وضعت حركة الفلسطينيين في الخارج والداخل في سياق جديد، فماذا نعني بذلك؟

من المعروف أن التحالف الفلسطيني الذي اتخذ من عرفات زعيماً - رغم بعض الإحتجاجات الكلامية - كان يرى أن حل القضية يتم عبر مبارك - أمريكا - والتفاهم الإسرائيلي - الفلسطيني. وكل تحرك ثوري أو جماهيري يجب أن يوضع في خدمة هذه السياسة.

من الأمور ذات الدلالة،أن وفد منظمة التحرير الذي تشكل بعد مؤتمر الجزائر التوحيدي ليشارك في مؤتمر قمة عمان، قد كان مطلبه الرئيسي أن تعيد الدول العربية علاقاتها مع مصر بشكل جماعي. وقد كانت هذه الخطوة هي أبرز نتائج مؤتمر الجزائر التوحيدي. ويأتي من يقول لنا إن هذا المؤتمر، وما أدى اليه هو سبب انتفاضة الأرض المحتلة.

ومن يتأمل التكوين الطبقي (والمصالح التي يقررها) لقيادة الخارج، يصل إلى نتيجة مفادها أن سياسة الخارج تعبر عن مصالحه وليست مجرد اختيار قد يخطئ وقد يصيب. أما سياق الداخل، فقد كان في بعضه استجابة لسياسة الخارج، ولكنه في أساسه استجابة لوضع معاشي وأمني لا يطاق، وخشية من مستقبل أشد سوءاً. وعلى الرغم من وجود أنصار كثيرين لمنظمات الخارج في الداخل، فإن حركة الداخل جاءت – أساساً – استجابة لظروف الداخل.

كيف نبرهن على ذلك؟

ليس أمامنا - في هذه المرحلة على الاقل - ادلة ملموسة، ولكن أمامنا قرائن بالغة الدلالة. فردود فعل التحالف العرفاتي كشفت أن الانتفاضة لم تكن متوقعة، فقد وصفوها في البداية بأنها مؤقتة، وتهدف الى تحقيق مطالب آنية وليس لها طابع استراتيجي.

أبدى البعض خشيته من نتائج العنف الذي يمارسه المنتفضون ومن العناد الاسرائيلي، ووجه عرفات، من اذاعة مونتي كارلو الى المنتفضين، نداء بألاّ يقتصروا على شعار «بالروح بالدم نفديك يا عرفات»، بل عليهم أن يذكروا فلسطين التي لا تقل أهمية عن عرفات!

وسوف أكتفي هنا بمثال واحد على ارتباك التحالف العرفاتي إزاء الإنتفاضة؛ قال الدكتور حبش في حديث لصحيفة السفير (نشرته في ٨٩/١/٢٢):

«إن الأهداف التي يمكن أن تحققها هذه الإنتفاضة متحركة، وانا في الأيام الأخيرة وجدت من خلال البيانات الصادرة في الداخل – واخرها بيان يوم ١٣ الشهر الحالي – وجدت فيها تصعيداً في الطلبات يكاد يصل إلى مستوى الإجلاء التام عن كل الاراضي

الفلسطينية. ولا أخفيكم أنني خفت من هذا التصعيد، لأن الأهداف التي رسمت سابقاً كانت أكثر واقعية. لا يجوز وسط حماستنا لما هو قائم أن ننسى للحظة طبيعة العدو».

وبعد عشرة أيام من هذا القول ينسى حبش طبيعة العدو فيقول في حديث لمجلة (صباح الخير) نشرت جريدة (النداء) مقتطفات منه في ٢/٢ / ١٩٨٩ إنه يود أن يعرب عن ارتياحه لتطوير الشعارات السياسية التي يرفعها القادة الفلسطينيون داخل الضفة الغربية وقطاع غزة. وقال:

«في الأيام الأخيرة، أنا شخصياً سعدت كل السعادة عندما علمت وعرفت أن قياداتنا في الداخل قد صعدت الشعار السياسي وأصبح الشعار السياسي هو الحرية والإستقلال».

وهكذا، فإن الدكتور سعد كل السعادة لما كان يخاف منه قبل عشرة أيام.

إن اختلاف السياقين لن ينتهي سريعاً؛ فسيظل مسعى التجمع العرفاتي، لفترة طويلة، إخضاع الداخل لشروط الخارج واحتواء الإنتفاضة حتى تخدم مشروع التفاوض مع الإسرائيليين.

الفصل الخامس والعشرون

التعايش مع العنصرية

تطرح انتفاضة الارض المحتلة،سؤالاً له أهمية خاصة، لأنه- بدوره – يطرح أسئلة بالغة الخطورة. السؤال هو: لماذا عجز الكيان الصهيوني عن استيعاب الفلسطينيين ودمجهم في داخله؟ ألا يعني هذا العجز أن الكيان الصهيوني لم يتمكن من تقديم مبررات وجوده على أرض فلسطين؟

هنالك حركات في التاريخ استطاعت أن تستوعب شعوباً بكاملها؛ من أمثلة ذلك المسيحية والاسلام والشيوعية الخ.. وما تزال هذه الشعوب تتبنى وجهات نظر وقيم هذه الحركات. من ناحية إخرى، هنالك حركات جبّارة ذات قدرات عسكرية وبشرية هائلة، انطلقت لتدمج شعوب العالم في اطرها، ولكنها فشلت حتى في بلادها، ومن امثلة ذلك النازية والفاشية.

فما الذي جعل النوع الأول من الحركات قادراً على الإمتداد وكسب الأنصار، في حين عجزت النازية والفاشية عن ذلك؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في أن المشروع الثقافي الذي طرحه النوع الأول من الحركات كان موجهاً إلى البشرية كلها، بغض النظر عن القومية أو الجنس أو اللون؛ لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتزامه بقيم هذه الدعوة. في حين ان النوع الثاني من الحركات قد عبر في مشروعه الثقافي عن انحياز لمجموعة محددة من الناس، وضعتها فوق البشر:الآري، بالنسبة للنازية، إنسان متفوق، وعلى بقية البشرية أن تخضع له. يصف هتلر شعوباً باكملها،كالأفريقيين والعرب، بأنهم قرود أو أنصاف قرود، كما يستنكر هتلر أن يتاح للعرب، وهم أنصاف قرود، أن يعلمّوا أبناءهم الطب والهندسة.

المشروع الثقافي الصهيوني ينتمي الى النوع الثاني، من هذه الحركات. فهو يرى أن الإله الرعوي لقبيلة مديان (يهوه) قد اختار شعباً له، ووضعه فوق مستوى البشر، ودعاهم الى قتل كل من لا ينتمي الى هذا الشعب. وحتى الأسرى أوصى بقتلهم. وكان هذا الإله

يمارس سلطاته وهو موضوع في داخل تابوت.

وهكذا، بالنسبة للنازية والصهيونية، فإن على من يدخل ضمن إطار دعوتيهما أو دولتيهما أن يوافق على كونه في مستوى أدنى من الاثنين، أن يخضع لهما؛ فليس هنالك إسلوب آخر للإندماج في إطار مشروع ثقافي عِرْقي. وهذا يعني التخلي عن جميع المفاهيم التي كافحت البشرية من اجل تثبيتها: أي أن جميع البشر متساوون.

إن عدم إمكانية نجاح المشروع الثقافي الصهيوني في استعاب الفلسطينيين، يطرح على العقل العربي إشكالية المشروع السياسي الذي يطرحه بعض العرب،ومن ضمنهم القيادة الرسمية لـ م.ت.ف، والعديد من القوى الدولية، حول إمكانية التعايش بين العرب واليهود.إن دولة تقوم على مفهوم العرق عاجزة عن التعايش في مجتمع متعدد القوميات أو، حسب مصطلحها، مجتمع متعدد العروق. إن الدول المتعددة القوميات لا يمكن أن تعرف الإستقرار والسلام الداخلي إلا إذا طرحت المسألة القومية على أساس المساواة التامة بين جميع القوميات التي تعيش في داخلها. ونظراً لكون المشروع الثقافي الصهيوني ينص على أن التعايش بين مجموعات سكانية مختلفة – واليهود إحداها – يقوم على أساس وجود مجموعة سكانية تعتبر نفسها متفوقة على المجموعات الأخرى، تفوقاً يقوم على أسس لا تناقش – لأنها أوامر الرب – فإن التعايش في وطن واحد بين اليهود وغير اليهود، يصبح مستحيلاً. ومن المضحك فعلاً أن نطالب هيئة الأمم المتحدة أن ترعى مثل هذا التعايش. فكيف يمكن أن يقوم تعايش تحت رعاية هيئة الأمم، في الوقت الذي يتعارض فيه هذا التعايش مع ميثاقها.

إن مواثيق هيئة الأمم تستند إلى المساواة بين البشر ويأتي مَنْ يطالبها بأن تقيم تعايشاً يكون للبعض فيه حقوق ليست للآخرين.

إن التعايش بين العرب واليهود يجب أن يجتاز مأزقين:

الأول : مأزق العربي الذي يود أن يعيش في دولة واحدة تعتبر نفسها من عرق أسمى من البشر، وبهذا عليه أن يقبل بوضع متدنٍ.

الثاني : مأزق اليهودي الذي يتطلع إلى دولة تقوم على أسس غير خاضعة للأعراف الدولية في العلاقات بين الدول، ولا ترضى أن تتقبل فكرة المساواة بين مواطنيها.

الفصل السادس والعشرون

للحجارة تاريخ

ثورات العامة في بغداد لها تاريخان: واحد كتبه الكتاب الرسميون، فأطلقوا الصفات التالية على من قاموا بهذه الثورات «اللصوص والشطار والعيارون والفتيان والزعار والعياق والحرافيش والفساق...»، ولكن بعض الكتاب انصفهم، فكتب: «اللص أحسن حالاً من الحاكم المرتشي، والقاضي الذي يأكل أموال اليتامى».

كما شرح أبو حيان التوحيدي، أسباب هذه الثورات، فقال إنها:

«لانهماك السلطان في القصف والعزف، وإعراضه عن المصالح الدينية والخيرات السياسية».

امّا التراث الادبي الشعبي فقد جعل منهم أبطالاً يجترحون الأفعال الخارقة دفاعاً عن الحق والخير، كما في حكايات علي الزيبق والشاطر حسن.

يحكي ابن جرير الطبري وابن الاثير، عن موقف هؤلاء العوام عندما هاجمت جيوش المأمون بغداد؛ لقد هجر قادة الامين وعسكره بغداد وبقي العوام يدافعون عنها.

يصف الطبري حادثة معبرة، قائلاً:

«إن قائدا من قواد أهل خراسان، ممن كانوا مع طاهر من أجل النجدة والبأس، خرج يوماً إلى القتال، فنظر إلى قوم عراة لاسلاح معهم، فقال لأصحابه: ما يقاتلنا إلا من أرى؟ استهانة بأمرهم واحتقارًا لهم .فقيل له: نعم هؤلاء الذين ترى هم الآفة، فقال اف لكم حين تنكصون عن هؤلاء وتخيمون عنهم، وأنتم في السلاح الظاهرة والعدة والقوة، ولكم ما لكم من الشجاعة والنجدة وما عسى ان يبلغ كيد من أرى من هؤلاء ولا سلاح معهم ولا عدة لهم ولا جنة تقيهم!! فاوتر قوسه وتقدم، وأبصره بعضهم فقصد نحوه وفي

يده مقيرة وتحت إبطه مخلاة فيها حجارة، فجعل الخراساني كلما رمى بسهم استتر منه العيار، فوقع في بارته أو قريبا منه فأخذه فيجعله في موضع من بارته قد هيأه لذلك وجعله شبيها بالجعبة، وجعل كلما وقع سهم أخذه، وصاح دانق، أي ثمن النشابة دانق قد أحرزه، ولم تزل تلك حالة الخراساني وحال العيار حتى انفد الخراساني سهامه. ثم حمل على العيار ليضرب به بسيفه، فأخرج من مخلاته حجراً، فجعله في مقلاع ورماه فما أخطأ به عينه، ثم ثناه بآخر فكاد يصرعه عن فرسه لولا تحاميه، وكرّ راجعا وهو يقول: ليس هؤلاء بإنس، وقال: فحدثت أن طاهرا حدث بحديثه فاستضحك، وأعفى الخراساني من الخروج الى الحرب».

لقد قاتل هؤلاء العوام بالحجارة، يجعلونها في مخلاة، ويقذفون الجيش الغازي بها، حتى كادوا أن يفنوا جيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين. يقول المسعودي:

«واشتد القتال في كل يوم، وصبر الفريقان جميعاً... وضايق طاهر القوم، وأقبل يقتطع الشارع بعد الشارع».

لقد واجهوا الجيش الغازي ببطولة وثبات، وهم شبه عراة، حتى كادوا يفنونه. يقول الدكتور محمد رجب النجار في كتابه «حكايات الشطار والعيارين» والذي اعتمدنا عليه في تجميع هذه المعلومات:

«وتتوالى هزائم قواد جيش المأمون على أيديهم.. وبخاصة القائد عبد الله بن الوضاح، والقائد هرثمه، أفضل قائدين في الجيش، وكادت قواتهما تفنى على يد هؤلاء العيارين حتى ليصفهم بعض أصحاب هرثمة فيقول متعجباً:

«يفنى الزمان وما يفنى قتالهم
والدور تُهْدَمُ والأموالُ تُنتَقَصُ
والناس لا يستطيعون الذي طلبوا
لا يدفعون الردى عنهم وإنْ حرصوا
يأتوننا بحديث لا ضياء له
في كل يوم لأولاد الزنا قصصُ»

ويقول الشاعر عمر بن عبدالملك العتري:

«وقعة السبت يوم درب الحجارة
قطعت قطعةً من النظّارة
ذاك بعد ما تفانوا ولكن
أهلكتهم غوغاؤنا بالحجارة».

فهرست